
جيلنا وإشكالاته العصرية
محمد فتح الله كولن



سلسلة أسئلة العصر المحيِّرة (٤)

جيلنا وإشكالاته العصرية

الطبعة الأولى

رقم الإيداع

2016/14810

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-801-018-3

رقم النشر

1045

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax:002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

سلسلة أسئلة العصر المحيِّرة

(٤)

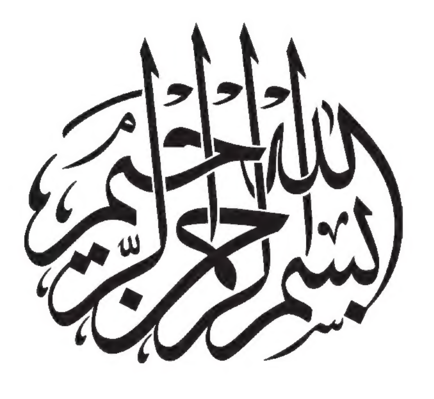


تأليف

محمد فتح الله كولن

ترجمة

أورخان محمد علي - د. عبد الله محمد عنتر





فهرس



حكمة بدء نزول القرآن بأمر ﴿اقْرَأْ﴾

سؤال: ما الحكمة في بدء نزول القرآن بأمر ﴿اقْرَأْ﴾ (سورة العَلَق: ١/٩٦)؟

الجواب: الأمر الإلهي ﴿اقْرَأْ﴾ تجلى في ذات أشرف المخلوقات ﷺ، واستودع عليه البشر، وكلفوا به للارتقاء بهم إلى أعلى الكمالات، وهذا الكون المعروض أمام أنظارنا لنتأمَّلَهُ ونفهمَ معناه ومحتواه، وكلما فهمناه أكثر أدركنا روعة النظام الذي أنشأَهُ الخالق ﷻ، وقدرته وعظمته وجماله... هذا الكون ليس إلّا تجلِّيًا من تجلِّيات اللوح المحفوظ، فلقد جعل الله كل شيء في هذا الكون من أحياء أو جماد -عدا الإنسان- بمثابةِ "قلمٍ" وظيفَتُه أن يُسجِّلَ ما أُودع فيه من تجليات وحِكم.

إن كل موجود -سواء أكان حيًا أم جمادًا- يُعَدُّ كتابًا، لذا فلم يأتِ الأمرُ بصيغةِ "انظُر وشاهِدْ" بل بصيغة "اقرأ"، ذلك لأن الكتاب يُقْرَأُ فحسب، وهذا الكون المتألِّقُ المملوءُ بالموجودات المتنوّعةِ التي يُعَدُّ كلٌّ منها كتابًا إنما هو بمثابةِ مكتبةٍ إلهيَّةٍ ثريّة، لذا فرغم أنّ كلّ موجودٍ -عدا الإنسان- قد كُلّف بوظيفة معينة؛ إلا أنَّ الإنسانَ قد عُهِد إليه بوظيفةِ الكتابة ثم أُضيفَ إليها تكليفٌ خاصٌ ألا وهو وظيفة "القراءة".

والعلمُ عبارةٌ عن إدراكِ ومعرفةِ النظام الذي يتجلّى في الكون، والعلاقاتِ المختلفة المتداخلةِ بين الأشياء في هذا الكون وتصنيفِ تلك المعارف وتبويبِها، وبما أنه لا يمكن إرجاعُ هذا النظام بكلِّ ما فيه من دِقَّةٍ بالغةٍ وتوازنٍ محكَمٍ إلى المصادفةِ العمياءِ؛ فلا بدَّ من منشئٍ وواضِعٍ لمثل هذا النظام... مخطِّطٍ واضحٍ وجوده بأجلى ما يكون الوضوح.

قبلَ وضعِ أيِّ نظامٍ يتمُّ أوَّلًا تصوُّرُه، تمامًا كما يتصوَّرُ المهندس المعماري تصميمَه قبل أن يرسم هذا التصميمَ على الورق، فإذا وَضَعْنا جانبًا التركيبَ المادِّيَّ للإنسان ولتفكيرِه وكيفَ يتشكَّلُ هذا التركيبُ وفقًا لتصوُّرِ الوجودِ نقول: إنه إن كان اللوحُ المحفوظ هو تصوُّرٌ لِلنِّظامِ الذي يشمل جميع الكون؛ فإن القرآن الكريم هو تسجيلٌ وتقييدٌ لذلك النظامِ المتصوَّر، وهو مرآة اللوح المحفوظ.

لذا كان لِزامًا على الإنسان أن يقرأَ ويحاولَ أن يفهمَ كلما قرأَ، وقد يُخطئ أحيانًا في الفهم، ويدخل في تجارب الخطإ والصواب وهو يحاول الوصولَ بجوهر العلم إلى مرتبةِ الثقة به والاعتماد عليه.

فثمة فرق بين النظرة والمشاهدة والفهم وقبولِ ما تمَّ فهمُهُ ونقشِه في القلب والشعور، وبعد كلِّ هذا فإن تطبيقَ ما تمَّ قبوله شيءٌ، ودعوة الأخرين إليه شيءٌ آخر تمامًا. أجل، فكل هذه الأشياء المختلفة المتعلِّقة بالفهم والإدراك جاريةٌ على الدوام؛ ذلك لأن هناك قوانين عديدة في الكون، تجري من قبل من وَضَعَها بدقَّةٍ بالغةٍ وتناسقٍ كبير، منها:

١- السيْر من الوحدة إلى الكثرة.

٢- وجود التشابه أو الفروق أو التضاد بين هذه الكثرة.

٣- وجود توازن فعَّالٍ بين الأضداد.

٤- التناوب، أي التناوب في الوظيفة.

٥- التعلم والنسيان ثم التعلم من جديد.

٦- صرفُ الجهد والعمل.

٧- التحليل والتركيب.

٨- الإلهام والكشف.

تنطبقُ هذه القوانين بأجمعِها على الإنسان، لذا كان من الطبيعي وجودُ كثرةٍ من الناس ووجودُ تشابُهٍ وفروقٍ واختلافاتٍ بينهم من حيث الفكر والنظرة والعقيدة والسلوك والتصرف، ولكن كل هذه الفروق والأضداد الفطرية ليست راكدةً أو فارغةً من المحتوى، بل هي تدخلُ ضمن إطارٍ من التوازن الفعَّال والحيوية؛ ولذا قد يكون هناك مسلك يستهدف الإيمان ولكن يحرم من العلم، وقد يكون هناك مسلك آخر يستهدف العلم ويحرم من الإيمان.

لذا كان هناك علم وجهل، إقرارٌ وإنكارٌ، فضيلةٌ ورذيلةٌ، عدلٌ وظلمٌ، حبٌّ وبغضٌ، سلامٌ وحربٌ، حياة متسمة بالكسل والخمول والتواكل، وحياة ترى أن الإنسان يستطيع إنجازَ كلِّ شيءٍ وحده، لذا نجدها تتَّسِمُ بالعجلة والتهوُّر والجنون والشهوة، تقوم أحيانًا بالبناء وأحيانًا بالهدم.

النسيان من طبيعة الإنسان؛ حتى إنه من الممكن أن ينسى ما تعلَّمه من مفخرةِ الإنسانية ﷺ، غير أن هذا الأمر يمكن تذكُّره وتعلُّمُه من جديد، كذلك فإنه في نهاية مثل هذه التجزئة والتحليل والتنويع سيكون هناك تناولٌ جديدٌ ونظرةٌ جديدة وإلهام جديد.

كل هذا قد حصلَ ويجبُ أن يحصلَ، وهو مستمرٌّ في الحصول، فقد أُوحِيَتْ الأوامر العشرة إلى النبيّ موسى عليه السلام لتنظيمِ الحياةِ الاجتماعيّة، وأُلْهِمَ عيسى عليه السلام الحلمَ والشفقةَ والرحمةَ والمحبَّةَ والصبرَ والتحمُّلَ في العلاقاتِ البشريّة، كما أُعطي النبيُّ محمد ﷺ -علاوة على هذه الأمورِ- العلمَ والإرادةَ والحكمةَ والتوازنَ وقابليّةَ التحليل والتركيب في الفكر وأوتي جوامع الكلم والبيان.

لذا كانت وظيفةُ المسلم -بوجهٍ من الوجوهِ- أكثرَ مسؤوليّة وأصعبَ مشقَّةً من وظائف الآخرين، ولكنها بنفس النسبة أكثر سموًّا ولطافةً، لأنها فضلًا عن استلزامِها الأسَسَ الاجتماعية مثل المحبّةِ والصفحِ والعفو والحلم والشفقة والصبر والتحمُّل فإنَّها تستلزِمُ خصائص عليا مثل العلم والإرادة والحكمة والتواضع وجمع القلوب وتأليفها.

لذا فإن الاكتشافات التي أُجْرِيَتْ على أيدي العلماء والمكتشِفين في مجال علوم الفيزياء والكيمياء والفلك والبيولوجيا (علم الأحياء)؛ تَسْتَحِقُّ كلَّ تقديرٍ وتبجيلٍ، لأنها دلّت على الكثير من الحقائق التي صُوِّرت في اللوح المحفوظِ وسُجِّلَت في القرآن الكريم، وساعدت في فَهْمِ وإدراك العديدِ من العلاقات الموجودة في أرجاء الكون، غير أن ما صاحَبَ هذه الخدمات من نجاحاتٍ يستدعي حفظَ الإنسانية

وصيانَتَها من الوقوعِ في ضلالةِ الأفكارِ مثل إنكارِ خالقِ الكون وبارئِه ومصوّرِه، أو رَدِّ وإنكارِ الإلهامِ والإرشادِ والوحيِ الإلهيّ، أو القيام بتأليه الإنسان وجعل إرادته هي الحاكم المطلق.

إن لم تُوجَّه علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء توجيهًا جديدًا، وذلك بإخضاعِها إلى القوانين المكتشَفَة والمستَنِدَة إلى التجارُبِ المَخبريّة؛ فَمِنَ المحتمَلِ أن يخسرَ الإنسانُ نفسَهُ ومجتمَعَهُ؛ لأنَّ مثل هذه الاكتشافات والاختراعاتِ ستدفَعُهُ إلى العجلةِ والتهوُّرِ والصَّلَفِ وعدمِ المسؤوليّة؛ لذا وجب على هذا الإنسان -الذي أصبح حقلًا للتجارب بعيدًا عن المقاييس الإنسانية- أن يتذكّر ولا ينسى بأنه إنسان، وأن هذا المجتمع ليس مختبرًا لإجراء التجارب المخبريّة عليه.

من المهِمّ تخليصُ العلومِ الحاليّة من الجمُود والخمود والعبثيّة، وهذا يُساعِد على فهم القضايا التي تُشَكِّلُ أساسًا للعلوم فهمًا صحيحًا، كما يؤدِّي إلى قيامِ الإنسانِ بأداءِ ما يقعُ على عاتِق إرادته وذهنه، ويستطيعُ آنذاك مشاهدةَ مكتسباتِ أحاسيسِه وقلبه مشاهدةً باطنيَّة، عندئذ ينقلبُ المثقَّفُ إلى لسانٍ فصيحٍ وإلى قلبٍ يستطيع قراءة الكون الموجودِ والموضوعِ أمامه ككتابٍ مفتوحٍ سَطْرًا سَطْرًا وكلمةً كلمةً، فمن غير المتصور أن يعتبر الإنسانُ الكونَ مختلفًا عن كتاب، ولا سيما إذا كان "**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ**"[١] في الأوامر التكوينيَّة، وكان أوَّلُ أمرٍ في القرآن المنزل هو "اقرأ".

---

(١) **سنن أبي داود**، السنّة، ١٧؛ **سنن الترمذي**، القَدَر، ١٧؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٤٩٢/٢.

ولكن هذه المسألة ليست سهلةً كما تبدو للوهلة الأولى، فمع وجودِ نظرةٍ تقول بأن الحواس تكون قويّة بنسبةِ قوّةِ الأحاسيسِ الظاهريّة والباطنيّة، إلّا أن وجودَ أيِّ عارضٍ في إحدى الحواس يؤثِّرُ سلبًا في الحواس الأخرى.

لذا نرى أن ألفاظ الصَّمَم والعمى والبكم تَرِدُ معًا في آيات القرآن ذي البيان المعجز، قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/١٨)، وقال أيضًا: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/١٧١)، لأنه إذا كانت العينُ يمكنُها قراءةُ الأوامرِ التكوينيَّة فإن السمعَ هو الحجابُ السِّرِّي الذي تنعكسُ عليه الأوامر التنزيليّة أوّلًا، أما اللسان فهو الذي يقوم بترجمة هذه المشاهدة وهذا السمع، لذا فمن لا يستطيع مشاهدةَ الآيات في الآفاق وفي الأنفسِ لا يستطيع سمعَ ما يتناهى إلى أذنيه، ولو سمعه لما فهمه، كذلك فإن القلبَ غيرَ المتَّصِلِ بالأوامر الإلهيّة لا يفهمُ ما يَطْرُقُ سمعَهُ ولا يستطيع أن يَخْلُصَ بِنَفْسِه من الاشتغالِ عبثًا بالشريعة الفطريّة.

إذًا فإن "اقرأ" رمزٌ للتوحُّدِ والتكامل، ورمزٌ للمشاهدةِ والتقييم والرؤيةِ إلى جانب الحَدْسِ، وتعبيرٌ لسانيٌّ عن هذه المعرفة الباطنيّة، وهو يحملُ دلالات كبيرةً لنا لكونِه أوَّلَ أمرٍ موجَّهٍ إلينا.

لقد أَطَلْنَا شرحَ هذا الموضوع لأهَمِّيَّته وربما استطرَدْنا قليلًا وتناولنا مواضيع أخرى، نأمل أن يُعْطِي لنا تكرارُ مطالعتِه والتفكيرُ فيه وتحليلُه بعضَ العُذْر في هذه الإطالة والاستطراد.



تجدُّدُ شبابِ القرآن

سؤال: يُقَالُ إن شباب القرآن يتجدَّدُ بمرور الزمن، ما المقصود بذلك؟

الجواب: جاءَ القرآنُ من الأزَلِ وسيدومُ إلى الأَبَدِ، فهذا الكتاب ذو البيان المعجز إنّما هو من الله تعالى الذي أحاطَ علمًا بأدقِّ التفاصيل لكلِّ شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، وقيامُ القرآن بشرح المسائل العائدة لأيامنا الحالية وللعهود والعصور القادمة وتناولُهُ للمسائِلِ التي تهمُّ الإنسانيّة وكيفيّةُ تطوُّرِ هذه المسائل والأحوال التي ستصير إليها يُعَدُّ من معجزات القرآن وشيئًا خاصًّا به وحده... صحيحٌ أنَّ القرآنَ نَزَلَ قبلَ أكثر من أربعة عشر قرنًا، إلّا أنه نزل من الملإِ الأعلى، وما أدراك ما الملأُ الأعلى! إنه نقطةٌ ترى الماضي والحاضر والمستقبل، ولقد صدر القرآنُ من عِلْمِ الله تعالى الذي يُمسك السماوات والأرض والكونَ كلَّهُ في يدِ قدرتِهِ، ويديره ويقدِّر كلَّ شيءٍ فيه، ويعلمُ حتى نَبضاتِ قلوبِنا.

أجل، كلما مرّ الزمان تَجدَّدَ شبابُ القرآن[٢]، فكما يزدادُ نضجُ الإنسان وقدرة ذهنِه على التحليل والتركيبِ، وتزداد تجاربه وخبرته بمرور الزمن، حتى وإن ضعفت قدرةُ ذاكرته؛ كذلك الأمر بالنسبة للجماعات؛ أي كلما شابَ الزمن وشاخ انفتحت قنوات جديدة وعروق جديدة وتوسَّعَت وزاد سعيُ الإنسان وظهرت علوم جديدة تشرح لنا أسرار الكون وغوامضه، فعلمُ الفيزياء يظهر أمامنا وكأنه العلم الذي ينمو على الدوام في عروق الزمن ويغذيه ويتوسَّع ويعكسه، والأمر نفسه واردٌ أيضًا بالنسبة لعلوم الكيمياء والفلك وفيزياء الكون والطبّ والعلوم الأخرى؛ أي إن كلَّ علمٍ يتناول ضمن سير الزمن سرًّا من أسرار الكون ويشرحُهُ ويعرضُهُ أمام الأنظار، إذًا فكلَّما خطا الزمنُ خطوةً نحو يوم القيامة كلّما تكاملت الدنيا ونضجت أمام أعيننا، فكأنَّ العلوم هي الشعرات البيض على هامة الدنيا رمزًا للنضج والكمال، أي كلما اقتربت نهاية الدنيا زادت الدنيا كمالًا.

هذه الحال أو هذا المنوال يساعِدُ على فهمِ القرآنِ، وسيأتي يومًا يهتدي فيه كبار علماء الغرب الذين يبحثون عن أسرار العلوم وحقائقها عندما يفهمون القرآن حقّ الفهم ولا يملكون أنفسهم

(٢) يعبر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ﵀ عن شبابية القرآن وفُتُوّته فيقول: "إن القرآن الكريم قد حافظ على شبابيته وفتوّته حتى كأنه ينزل في كل عصر نضِرًا فتيًّا وغضًّا طريًّا. نعم، إن القرآن الكريم -لأنه خطابٌ أزلي- يخاطب جميع طبقات البشر، في جميع العصور خطابًا مباشرًا، يلزم أن تكون له شبابية دائمة كهذه، فلقد ظهر شابًّا، وهو كذلك كما كان، حتى إنه ينظر إلى كلِّ عصر من العصور المختلفة في الأفكار والمتباينة في الطبائع، نظرًا كأنه خاص بذلك العصر، ووفق مقتضياته، ملقّنًا دروسه ملفتًا إليها الأنظار"، ويقول: "إن آثار البشر وقوانين البشريّة تشيب وتهرم، وتتغير وتتبدّل، إلا أن أحكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر متانتها أكثر، كلما مرت العصور". (بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الأولى، الشعاع الثالث، ص ٤٦٣). **(المترجم)**

من السجود لله، وستهتف الإنسانية "ما أعظمك يا ربّ!". أجل، سيأتي اليوم الذي يقول العلماء وهم يرَون الأبعاد السحيقة من الكون والتي تبعد عنا بلايين السنين الضوئية.. سيقولون ما قاله "باسْكَال" وهو يبكي "ما أعظمك يا رب!".

وضعَ القرآن الكريم أفضل نظام اجتماعي لأفضل مجتمع قبل أربعة عشر قرنًا، ولكننا لم نفهم نحن هذا بعدُ، لذا لم نستطع شرحَ هذه الوجهة الاجتماعية للقرآن كما يجب أمام المبادئ الأخرى من رأسماليّة وشيوعية وفاشية وليبرالية، نحن لم نقصِّرْ في فهم القرآن من ناحية المسائل الاجتماعية فحسبُ، بل لم نفهم كذلك المسائل الأخرى له فيما يتعلَّق بالحياة الإنسانية، ووظيفَتُنا الآن ومهمّتنا هي القيام بشرحِ كلِّ هذه المسائل وتقديمِها كوصفةِ علاج لأمراض الإنسانيّة وأدوائِها.

وعندما نقوم بهذا بإذن الله تعالى سيبدو واضحًا كيف أن القرآن الكريم آتٍ من نبعٍ عميقٍ، قد لا يُمكِنُ حدس مبلغِ هذا العمق ظاهريًّا، ولكن سيرى الجميعُ كم من حقيقة علميّة موجودة فيه.

نحن لم نستطع حتى الآن حلّ مسائلنا الاقتصادية، وعندما نرى أن نظامًا اقتصاديًّا معينًا وضع بالأمس قد أدّى إلى مشكلات ومصائب تركناه وركضنا وراء نظام آخر صائحين: "لن يتقدم البلد إلا بهذا النظام"، وعندما نطبّقه نرى جيشًا من الفقراء المظلومين والبؤساء أمام عدد قليل من الأغنياء، وهكذا تتغير الأنظمة ونكون لعبة في يد هذه الأنظمة، ولكننا إذا ما تناوَلْنا القرآن الكريم من جديد كنظام حياة فإنَّنا سنرى وسنفهم أشياء جديدة وجيدة وسنرى كيف

أنه صالح لكل زمان، وأنَّ شبابه يتجدد بتجدُّدِ العلوم وتقدُّمها بمرور الزمن، وكيف يبدو وكأنه نزل توًّا، ومع أنه لم يتمّ حتى الآن بحوثٌ عميقةٌ وجدّيّة حول القرآن في أيامنا هذه؛ إلّا أننا -بعقولِنا القاصرةِ وبقلوبِنا الضيّقة التي لا تتَّسِعُ للحقائقِ الكبيرةِ- نُذهَل أحيانًا مما نفهمُه من القرآن فنضطرُّ إلى القول: "كلا، ليس هذا قول بشر".

أجل، فكم من حقيقة علميّة عبَّرَ عنها القرآن بجملةٍ واحدة، وكم من بحوثٍ تمَّتْ في ساحات عديدة فتبيَّنَ أن الحقائق العلمية المستحصلة منها تُوافِقُ ما جاء في آيات القرآن، وشوهدت هناك بصمته، ليس هذا الذي نقوله ادِّعاءً فارغًا لا أساسَ له، بل هو حقيقة أظهرَتها التجارب العلمية، قد نحتاج إلى مثال أو مثالين لشرح هذا الأمر:

يقول الله تعالى: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة الأَنعَامِ: ١٢٥/٦)، فهذه الآية تشير إلى قانون من قوانين الطبيعة، إذ تستعمل كلمة "السَّمَاء" وفعل "يَصَّعَّدُ" وهو من "صعِد-يَصعَد" أي الارتفاع إلى فوق، وكلمة "يَصَّعَّدُ" تُعبّر عن صرف جهدٍ ومشقَّة، حتى إن الإنسانَ عندما يتلفَّظ بهذه الكلمة يُحسُّ وكأن نفَسه ينقطع، والقرآنُ يبين هنا الحقيقة التالية: كلما صعِد الإنسان وارتفع عن الأرض قلّ الضغط وصعب تنفّسه، لأن الضغطَ الجوّي يقِلّ درجة واحدة كلما صعد الإنسان مائة متر، وفي ارتفاع ألفي متر فوق سطح البحر يضطرُّ الإنسان إلى استعمال أجهزةِ تنفُّسٍ خاصة.

مثال آخر: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (سورة الْحِجْرِ: ١٥/٢٢)، إن هذه الحقيقة العلمية التي وردت بالآية ولم يتمّ فهمها إلّا في هذا العصر ذكَرها القرآن قبل أربعة عشر قرنًا؛ إذ تبيَّنَ أن الرياح تسوق الغيوم الحاملة لبخار الماء ويصطدِمُ بعضُها ببعض فيتمُّ انسيابُ الشحنات السالبة والموجبة وتحدث البروق، وتقوم الرياح بإنزالِ الأمطار من الغيوم وفي الوقت نفسه تقوم بتلقيح النباتات أي إنّها تقومُ بِحَمْلِ بذورِ الذكورةِ لتلقيحِ بذورِ الأنوثة في النباتات، فتساعدُ على إتمام عمليّة التلقيح والإثمارِ في النباتات، وتردُ في الآية نفسها أن الأمطارَ الساقطةَ من السماء تُخزَّنُ في باطن الأرض، وبوساطة الآبار والعيون تتمُّ الاستفادة من هذه المياه في سقي الأحياء من نباتات وحيوانات وإنسان، وهكذا يُشير القرآن إلى هذه القوانين الطبيعية قبل أربعة عشر قرنًا فيُبَرْهِنُ على إِعْجَازِه.

وتقولُ آيةٌ أخرى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ٥١/٤٩)، وفي اللغة العربية عندما تُضافُ كلمةُ "كلّ" -التي تعني العموم- إلى معرفةٍ فإنها تفيدُ عمومَ أجزاءِ الكل، وعندما تُضافُ إلى نكرةٍ فإنّها تُفِيدُ عمومَ الأفراد أي جميع الأفراد، وهنا كلمة "شيء" مُنَكّرة، إذًا فالمعنى أن جميع الخلقِ خُلِقوا زوجين اثنين، فكما أن الناسَ خُلِقوا زوجين اثنين، كذلك فقد خُلِقَتْ سائرُ الأحياء زوجين اثنين، فالنباتات أيضًا خلقت هكذا ذكَرًا وأنثى، وكلمة "زَوْجَيْنِ" الواردة في القرآن تعني الذكر والأنثى، بل إن الذَّرَّة نفسها التي هي أصلُ الأشياء خُلِقَتْ زوجين اثنين، فمن أجزائها ما تحمل

شحنة موجبة، وأخرى تحمل شحنةً سالبة، وهناك أيضًا قوّة دافعة وأخرى جاذبة، أي إن هذا الأمر يظهر في صورٍ وأشكال مختلفة، فإن زالت هذه الصفة لم تستطع الموجودات إدامة وجودها، وتتناول آية في سورة "يس" هذه الحقيقة بتفصيل أكثر فتقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يس: ٣٦/٣٦)، فهذه الآية تذكرُ أشياء لم تكن معروفة للناس في ذلك العهد، إذ تقول "إننا خلقنا أزواجًا أخرى لا تعرفونها".

آية أخرى وموضوع آخر: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ٤٧/٥١)، الجمل الفعلية في اللغة العربية تفيد التجدّد، والجمل الاسمية تفيد الاستمرارية. وجملة "وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ" جملة اسمية لا تتعلق بالأزمنة الثلاثة "الماضي والحاضر والمستقبل" بل تفيد الاستمرارية، أي لا تقول: "إننا وسّعنا في الماضي ثم تركنا" ولا تقول: "إننا نوسّع الآن" ولا "إننا سنوسّع في المستقبل"، بل تقول: "إننا نوسع على الدوام ودون توقف"، ففي عام (١٩٢٢م) ذكر العالم الفلكي "إدوين بويل هابل (*Hubble*)" بأن جميع المجرّات -ما عدا خمسًا أو ستًّا منها- تبتعد عن الأرض بسرعة تتناسب طرديًا مع بُعدِها عنا، وحسب حساباته فإن كان هناك نجمٌ على بعد مليون سنة ضوئية يبتعد عنا بسرعة (١٦٨) ألف كيلومتر في الدقيقة، فإنّ نجمًا على بُعد مليوني سنة ضوئية سيبتعدُ عنَّا بضعفِ هذه السرعة، وأيُّ نجمٍ على بعد ثلاثةِ ملايين سنة ضوئيّة ستكون سرعة ابتعاده بثلاثة أضعاف هذه السرعة، وهذا يؤيّدُ فكرةَ العالم الرياضي والراهب البلجيكي "لامتري (*Lemaitre*)" الذي ذكر بأن الكون في حالة اتساع (*Expansion*) دائمٍ.

هذا المفهوم العلمي القائل باتساع المكان والذي لا يزال محتفظًا بثقله في المحافل العلميّة، ذكره القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنًا، أمام هذه الحقيقة العلمية التي أعلنها رجل أُمّيّ ﷺ، كان من المفروض على المحافل العلمية أن تنحني إجلالًا وتقول له "نحن تلاميذك" ولكن ما نراه الآن ليس إلا مظهرًا من مظاهرِ الجحودِ.

وتقول آيةٌ أخرى: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**﴾ (سورة الزُّمَر: ٣٩/٥)، والتكويرُ في اللغة العربية بمعنى اللَّفّ الدائري كَلَفِّ العمامة مثلًا حول شيء دائري، أو بمعنى الدوران حول شيءٍ دائريّ، وهكذا نرى أن الآيةَ عندما تذكرُ "تكوير الليل على النهار والنهار على الليل" تُشير بشكل واضح إلى كروية الأرض، ومن جهة أخرى فإنَّ توضيحَ هذا المعنى بشكل أدقّ جاءَ في قولِه تعالى في سورة النازعات: ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: ٧٩/٣٠) أي جعلَها كالدحية، والدحيةُ هي بيضُ النعام، إذًا فأرضنا هذه كرةٌ مفلطحةٌ، مضغوطة قليلًا من جهة القُطبين وهي تشبه بيضة النعامة، وقد أبانَ القرآنُ هذه الحقيقةَ بشكلٍ واضحٍ لا لبس فيه ولا يحتاج إلى أي تأويل.

من الممكن ذكرُ أمثلةٍ كثيرةٍ وآياتٍ عديدة في هذا الخصوص ولكننا نكتفي هنا بهذه الأمثلة، كما قام القرآن الكريم بوضعِ بعض الأسسِ التربوية، ولكن عندما تركت هذه الأسس التربوية القرآنية وجُرّبت النظم التربوية الأخرى التي وضعها علماء النفس وعلماء الاجتماع؛ رأينا أجيالًا من الشباب الضائع الغارق في المشاكل

والمضطرب في تيَّار الأهواء ونوازع النفس، وستبقى الإنسانيّة تتجرَّعُ الآلامَ وتعيش في الأزمات طالما كانت بعيدةً عن أسس التربية القرآنية، ولكن عندما تتصادقُ الإنسانيَّةُ مع القرآن ستفهمُهُ وتُدرِكُ مراميه وتستسلِمُ له فتصل إلى شاطئ الأمن والطمأنينة، أي لن تجدَ القلوبُ ولا العقولُ غذاءَها ولا سعادَتها إلا عند توجيهات القرآن وأوامرِه.

لكل هذه الأسباب نقول: إن الزمن كلما شاخَ وتقدَّمَ في العمرِ ونضجَ وتكاملَ وقرُب من أشراط الساعة ومن "آخر الزمان"؛ لمعت حقائق القرآن كالنجوم اللامعة في كبدِ السماء بالنسبة للمحققين والباحثين، وتبينت سلامتُهُ ومتانتُهُ واتَّضَحَ عمقُ تعاليمه، وأصبح أكثر إقناعًا لقلوب الناس، فبعبارة أخرى: كلما تقدم الزمن تجدَّدَ شبابُ القرآن، وانفتحت أبواب جديدةٌ أمام العقلِ من دون تعطيلٍ للإرادة الإنسانية، وسيهتف عند ذلك الكثيرون قائلين: "لا إله إلا الله محمد رسول الله".



إطاعةُ أولي الأمر

سؤال: من هم أولو الأمر الذين أمرَ القرآن الكريم بطاعتهم؟ وما حدودُ طاعتنا لهم؟

الجواب: أجل، يأمر رب العزَّة ﷻ بإطاعةِ أولي الأمر فيقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٥٩/٤)، فالله تعالى يأمرنا بالانقياد إلى أوامر الله تعالى وإطاعته وعدم عصيانه وأن نطيعَ الرسول ﷺ، وقد جاءت كلمة "الرسول" مُحَلَّاةً بالألف واللام، أي أطيعوا الرسول المعلوم لديكم وهو محمد ﷺ، وهذا لا يمنعُ أو يُؤثِّرُ على حقيقةِ حبِّنا لباقي الأنبياءِ والرسل؛ إذ إننا قد تعلَّمنا الإيمان بهم وحبَّهم من رسولنا ﷺ، وعرفنا منازلهم الرفيعة بالمقياس الذي قدَّمهُ لنا رسولنا ﷺ.

لقد عرفنا منه المنزلة الرفيعة والعالية للسيد المسيح عليه السلام مع أن عقيدة التثليث والكنيسة شوَّهَتْ صورتَهُ إلى درجةٍ لم يعُدْ بعدها معروفًا بهويّته الحقيقية الناصعة، لقد عرفنا جميع الأنبياء منذ عهد آدم عليه السلام وحتى عيسى عليه السلام بوساطته، إذًا فلكي نعرف الآخرين علينا أن نعرفه هو ﷺ أولًا وأن نطيعه وأن ندور في فلكه المنير، عند ذلك ستتوضح كل الأمور وتنجلي.

*يا أيها المعصوم يا من فضله *** عم الورى باليُمن بالإعطاءِ*

*كل العوالم قد أتتك مدينةً *** وتقر أنك منقذُ الغبراءِ*

*يا رب فاجمعنا به يوم اللقا *** وأجبْ بما نتلوه كل دعاءِ*

﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي أطيعوا أولي الأمر منكم الذين يسيرون على النهج المضيء للرسول ﷺ، واتبعوا جميع القادة والزعماء؛ سواء أكانوا قادة وأمراء على بضعة أشخاص أم على الآلاف والملايين؛ شريطةَ سيرهم على الصراط الذي بيَّنَهُ الله تعالى ودلّ عليه الرسول ﷺ، وعَزْمِهم على المضيّ في هذا الطريق بكلِّ جدٍّ وإخلاص، ومع أنَّ الطاعةَ مقيَّدةٌ بأُطُرٍ ومقاييس معينة؛ إلا أن الطاعةَ المطلقةَ هي للذين يمشون على طريق الرسول ﷺ وسنَّتِه الشريفة.

تتحدَّث الآية عن إطاعة الله ورسوله وأولي الأمر أي عن ثلاث طاعات متصلة بعضها مع البعض الآخر، وما اكتسب النبي ﷺ كل عظمته ومنزلته الرفيعة إلا لكونه رسولًا لله تعالى، نعم إنه إنسان، ولكنه في سبيل وصولنا إلى الله تعالى يُعدّ وسيلة في مستوى الغاية، ونحن متعلقون بهذه الوسيلة عندما نمضي في طريقنا، وهذه الوسيلة الموجودة في يدِ الرسول ﷺ هي حبل الله المتين الذي إن تمسكنا به وصَلْنا إلى الله تعالى، لأن الطرفَ الآخر من الحبل في يدِ الله تعالى، والرسول ﷺ يقول وهو يَصِفُ لنا القرآن: "هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ (سورة الْجِنّ: ٧٢/١-٢)،

مَنْ قَالَ بِه صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِه أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِه عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْه هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم"(٣).

هذا هو النبي ﷺ الذي امتزجت روحه بأوامر الله تعالى وتعلمنا بفضله واجباتنا تجاه الله تعالى، فالنبي ليس إلهًا -حاشا لله- ولا يقعد على يمين الله تعالى مثلما يقول النصارى، ولكنه مرآة مصقولة تنعكس عليها تجليات الله تعالى، أي إنك لن تستطيع مشاهدة الطريق الموصل إلى الله تعالى إن لم تشاهد هذه المرآة، كما يقول الشاعر التركي الصوفي سليمان شلبي:

*جعلتُ ذاتَك مرآةً لذاتي *** وقرنتُ اسمك باسمي*

وكما أن هذا الطريق ناصِعُ البياضِ حتى الآن؛ فسيكون واضحًا مُنَوَّرًا فيما بعد أيضًا.

"وأولي الأمر منكم"؛ يعني كما أن الرسول ﷺ يحكم بحكم الله ويطلب من المؤمنين إطاعته على هذا الأساس كذلك يجب أن يكون من نُطْلِقُ صفةَ "أولي الأمر" عليهم في أثر الرسول ﷺ متبعًا طريقه ومنهجه.

فهذا هو الصديق الأكبر وعمر الفاروق وعثمان ذو النورين وعلي الكرار رضي الله عنهم.. هؤلاء لم يخالفوا الرسول ﷺ طرفةَ عين، وكانوا يُفضِّلون أن تنخَسِفَ بهم الأرض ولا يعصون الرسول ﷺ أدنى معصية أو يحيدون عن طريقه قيد أنملة، والمؤمنون مأمورون بإطاعة أمثال هؤلاء الأمراء والانقياد لهم، وبِقَدْرِ ما يُخالفُ أولي الأمر تعاليمَ الرسول ﷺ بقدرِ ما يفقدون حقَّ طاعةِ الناس لهم مهما

(٣) سنن الترمذي، فضائل القرآن، ١٤؛ الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ١/٧٤١.

كانت خدماتهم كبيرة، لذا لا تستوجب الإمارةُ الطاعةَ بشكلٍ مطلَقٍ، فإن كان الأمير -بجانبِ إمارَتِهِ- متبعًا للرسول ﷺ منقادًا له وَجَبَتْ طاعتُهُ، وكانت هذه الطاعة عبادة، فإن لم يتبع الأمراءُ هذه المقاييس المذكورة أعلاه، وكانت المصلحةُ الشرعيّة لخدمة الدينِ وإعلاءِ كلمة الله تستوجبُ الصلح والانقياد والحركة الإيجابية؛ كان على المؤمنين اجتنابُ أيِّ حركةٍ سلبيّة مهما كانت ضئيلةً وإن اجتمعت الدنيا عليهم.

وهناك أمر آخر: إن دائرةَ الطاعةِ واسعةٌ جدًّا ومتداخلة، فالرسول ﷺ يقول: "**إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ**"[٤]، أي يكون أحدُ الثلاثة أميرًا ويسمع الاثنان الباقيان توجيهاته ويطيعانه، فإن كانوا في سفرٍ فإنه يُسأَلُ عن جميعِ نشاطات السفر من قيامٍ وقعود ونوم وجلوسٍ ونشاطٍ ونزهة... إلخ، فدائرةُ الطاعة تبدأُ من هنا.

والصلاة تُعلِّمنا الطاعةَ لأن الإمام يركعُ فنركع، ويسجدُ فنسجدُ وراءَهُ، كما يتعلَّم الجنديُّ النظامَ كذلك تُعلِّمُنا الصلاةُ -إلى جانب غايتها الأساسية- النظامَ، ونحن نتعوَّدُ على الاستماع والإنصاتِ عندما نُصلِّي مع الجماعة.

إن المؤمنين الذين ارتبطت قلوبهم وعقولهم بالدعوة لا يمكن أن يتصرَّفوا في أيِّ شيءٍ يتعلَّق بالإسلام تصرُّفًا فرديًّا، بل يتمُّ تناولُهُ تناوُلًا جماعيًّا من زاوية المشورة، وإذا استوجبَ الأمرُ فإنَّ الموضوعَ يُنقَلُ إلى من يَثِقُون برجاحةِ عقلِه وتجربتِه، ثم يجري التصرُّفُ حسبما اتُّفِقَ عليه، والطاعةُ والانقيادُ واجبٌ هنا، والحقيقةُ أن إطاعةَ

(٤) سنن أبي داود، الجهاد، ٨٠.

المؤمنين لأولي الأمرِ الذين يقومون بتحقيقِ الشورى إنما هي إطاعةٌ لله تعالى.

أجل، فمن أجل الحقِّ ومكانته يجب أن نسمع ونطيعَ حتى لو كان الأميرُ عبدًا حبشيًّا: "**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**"(٥)، ولم يكن آنذاك وحسب التقاليد والأعراف السائدة أن يقوم سيد قرشي بإطاعة عبد أسود، ولكن رسول الله ﷺ كان قد جاء ليهدم جميع العادات الجاهلية، وهذا الحديث وضع في الوقت نفسه السؤال الآتي: هل يجب أن يكون الإمام من قريش؟ أم يجوز تنصيبُ عبدٍ حبشيٍّ إمامًا؟ إذًا فهذا الحديث يدلُّ على جواز تولية عبدٍ حبشيٍّ وكونه إمامًا للمسلمين.

إذًا فعلى المؤمنين أن يتشاوروا في كلِّ ما يتعلَّقُ بالخدمة الإيمانية والإسلامية وأن يَصِلوا في النهاية إلى حكم ونتيجةٍ ما، أو يرضوا بِحُكمِ شخصٍ موثوق بعقلِه وتجارُبه وإخلاصهِ، ثم يبدأُ فصلُ الطاعة والانقياد، فإن كان العكسُ وتصرّف كلُّ فردٍ حسب رأيه الشخصيّ فالنتيجةُ النهائيّةُ هي الفوضى، وبما أن القلوبَ لم تتَّحِدْ ولم تتَّفِقْ فإن الله تعالى سيحرم هؤلاء من الفضل الذي يُسبغه على الجماعة.

إن الفرد قد يستهدفُ أشياء معيّنة بِفَضْلِ كفاءاتِه ومزاياه، وقد يُحَقِّقُ اللهُ هدفَهُ ويعطيه ما يصبو إليه، ولكن هناك أفضال لا يُعطيها الله إلا للجماعة، فإذا كان الناس قد أفسدوا بِنْية الجماعة وشتَّتُوها، وبدأ كلُّ واحدٍ منهم يتصرَّفُ تصرُّفًا فرديًّا فإنهم سيُحْرَمون من النِّعَمِ

(٥) صحيح البخاري، الأحكام، ٤؛ سنن ابن ماجه، الجهاد، ٣٩.

والألطاف التي يرسلها الله تعالى للجماعة، فصلاةُ الاستسقاءِ، وصلاة الخسوف والكسوف وصلاة العيد والوقوف على جبل عرفات... كلُّ هذه فعاليات جماعية لا تتم إلا بجماعة، ولم تفرض هذه الفعاليات إلا بعد وصول المسلمين إلى مستوى تشكيلِ الجماعة.

ومع أن الصلاة فُرضت في مكة؛ إلا أن صلاة الجمعة فُرِضَتْ في المدينة، لأنه لم تتشكل في مكة جماعة، وبعد أن شكَّل المسلمون بِهجرتهم جماعةً؛ أصبحت صلاة الجمعة فريضةً.

ولقد وصلت المدينةُ إلى هذه المرحلة قبل مكة، صحيحٌ أن صلاةَ الجمعة لم تكن بعدُ فرضًا، ولكن أسعدَ بن زرارة ﵁ كان يجمعُ مسلمي المدينة يوم الجمعة ويُصلِّي بهم صلاة الجمعة، ذلك لأن الجوَّ في المدينة كان أكثر تلاؤمًا لنشاطات الجماعة من مكة.

وربما لم يشإ القدرُ أن يحرم أسعدَ بن زرارة ﵁ من هذا الفضل؛ لأنه لن يستطيع أن يُصلي الجمعة خلفَ سيدنا رسول الله ﷺ؛ إذ كان أسعد بن زرارة ﵁ قد ارتحل إلى الدار الآخرة قبل قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة، وسمع من قبره تلك الأناشيد التي قيلت في ثنية الوداع عند قدومه ﷺ، وكان البراء بن عازب ﵁ إذا ما ذُكر أسعد ابن زرارة يبكي، وإذا ما سُئل عن ذلك كان يحكي هذا.

الطاعةُ أمرٌ خاص بأحوال الجماعة، فما إن يبدأ الناس بالتصرُّف بشكلٍ جماعيٍّ حتى تكتسب الطاعة والانقياد أهمية كبيرة في كلّ ساحة صغيرةً كانت أو كبيرة.

يجب على المؤمن معرفة معنى الطاعة وتنفيذها، وقد اهتمّ الرسول ﷺ بهذا الأمر اهتمامًا كبيرًا وعمل كلَّ ما في وسعِه لتطويرِ هذا الإحساسِ وتنميتِه وسنكتفي هنا بإيراد بعض الأمثلة:

وذات مرة ورد عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا وَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا، فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: "**لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**"، وَقَالَ لِلْآخَرِينَ: "**لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**"[٦]. ذلك لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، إذًا فالقاعدة هنا أن الطاعة للأمير واجبة باستثناء معصية الخالق.

ولكي يقوّي الرسول ﷺ مفهوم الطاعة جعل على رأس الجيش الذي هيأه للمسير إلى "مؤتة" زيد بن حارثة رضي الله عنه وهو طليقُ إحدى زوجاتِه وابنُهُ بالتبنّي[٧]، بينما كان في الجيش أصحاب كبار من أمثال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الذي ضنَّ الزمانُ بأمثالِه، لقد كان يكبرُ أخاه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بثماني سنوات، وكان من أوائل المسلمين، هاجر إلى الحبشة وقرأ القرآن أمام النجاشي فكان تأثيره عليه كبيرًا.

لقد كان مؤثرًا في حديثه وكلامه وقد آن أوان استعمال سيفه، فهو مُبرّزٌ في هذا المجال أيضًا، وعلى الرغم من كل هذه المزايا فقد نصَّبَ الرسول ﷺ زيدَ بن حارثة أميرًا عليه، وتذكر كتبُ المغازي أنَّ جيشَ الأعداء في معركة مؤتة كان يزيدُ على مائتي ألف مقاتل،

(٦) صحيح البخاري، أخبار الآحاد، ١؛ صحيح مسلم، الإمارة، ٤٠.
(٧) كما هو معلوم فقد حرم الإسلام بعد ذلك التبني. (المترجم)

وما كان أمام هذا الجيش العرمرمِ سوى ثلاثة آلاف من المسلمين، إذًا فاحسبوا عدد الجنود الكفار الذين كان على كل جنديٍّ مسلم أن يُقاتلهم، يَصِفُ الذين كانوا حول جعفر ﵁ في أثناء القتال أنه لم يُحوِّلْ وجهَهُ والسيوفُ تنهالُ عليه من كلِّ جانب وتبترُ في كلِّ مرة عضوًا منه، ولقد كان الرسول ﷺ جالسًا في مسجد المدينة يشرح لأصحابه ما يحدث لجيش المسلمين بكل التفاصيلِ الدقيقةِ وكأنه يشاهد ما يحدث على شاشة معنوية، ثم أخبرهم أنه رأى جعفرًا في الجنة وقد أثابه الله جناحين يطير بهما حيث يشاء، وقال رسول الله ﷺ بعد استشهاد القادة الثلاثة: "**لَقَدْ رُفِعُوا لِي فِي الْجَنَّةِ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ عَلَى سُرَرٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَرَأَيْتُ فِي سَرِيرِ عَبْدِ اللهِ بنِ رَوَاحَةَ ازْوِرَارًا عَنْ سَرِيرِ صَاحِبَيْهِ، فَقُلْتُ: بِمَ هَذَا، فَقِيلَ لِي: مَضَيَا، وَتَرَدَّدَ عَبْدُ اللهِ بَعْضَ التَّرَدُّدِ وَمَضَى**"(٨)، إذًا فهذا هو جعفر ﵁ ومع ذلك لم يكن على رأس الجيش، بل كان الأمير عليه زيد بن حارثة ﵁، الذي كان في السابق عبدًا ثم حرره الإسلام، وكان الجميع يطيعونه دون تردد.

وعندما شاهد المسلمون ضخامة جيش العدو قال بعضهم: "نَكْتُبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ نُخبِرُهُ بِعَدَدِ عَدُوِّنَا، فَإِمَّا أَنْ يَمُدَّنَا بِالرِّجَالِ، وَإِمَّا أَنْ يَأْمُرَنَا بِأَمْرِهِ، فَنَمْضِيَ لَهُ، قَالَ: فَشَجَّعَ النَّاسَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَقَالَ: يَا قَوْمِ، وَاللهِ إِنَّ التي تكْرَهُونَ لَلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ، وَمَا نُقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا كَثرةٍ، مَا نُقَاتِلُهُمْ إلا بِهَذَا الدِّينِ الذي أَكْرَمَنَا اللهُ بِهِ، فَانْطَلِقُوا فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ، إِمَّا ظُهُورٌ وَإِمَّا شَهَادَةٌ، قَالَ فَقَالَ النَّاس: قَدْ وَاللهِ صَدَقَ ابْنُ رَوَاحَةَ، فَمَضَى النَّاسُ"(٩).

(٨) الطبراني: المعجم الكبير، ١٣/١٨٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٤/٢٨٠.

(٩) ابن كثير: البداية والنهاية، ٤/٢٧٧.

استشهد في مؤتة القواد الثلاثة حتى جاء دور خالد بن الوليد ﵁، الذي آلمه هذا السيل من دماء المسلمين، جاء دور هذا القائد الذي سيفتخر به المسلمون أبدَ الدهر، لم يكن قد مضى على إسلامه سوى بضعة أشهر حتى وجد نفسَه في حومة هذا الوغى، لأنه كان يتحرّق شوقًا للاشتراك في هذه المعركة والذودِ عن حياض الإسلامِ، ويذكر بعض كتب المغازي أن الرسول ﷺ لم يرضَ أول الأمر باشتراكه في هذه الحرب، ثم سمح له بذلك، والآن نحن نتساءل: ماذا استطاع خالد أن يتعلم من القرآن خلال هذه المدة القصيرة؟ وإلى أيِّ مدى تعرَّفَ على رسولنا ﷺ؟ إذًا فقد عرفه إلى درجة استطاع أن يضحي بمكانته الاجتماعية ويكون تحت إمرة شخصٍ كان عبدًا في السابق، ثم انجلى القدر فإذا هو في الصف الأول، فما إن استشهدَ القائد الأول حتى جاءَ إلى قيادة الجيش جعفرُ بن أبي طالب ثم الصحابي عبد الله بن رواحة الذي كان مضاءُ لسانه كمضاءِ سيفِهِ، ثم استشهدَ عبدُ الله بن رواحة ليأتي الدور إلى خالد بن الوليد الذي كان القدرُ الإلهي يمهِّدُ لظهورِه كقائدٍ كبيرٍ في المستقبل.

والآن لننظر إلى الموضوع من زاوية الروح الجماعية والطاعة:

قام الرسول ﷺ بتعليم الطاعة والانقياد عندما قام بتنصيب عتيقٍ أميرًا على الجيش ولا شكَّ أننا يجب ألا نقيم هذا الأمر بالمقاييس السائدة حاليًا، ذلك لأن العبد آنذاك كان يُعامل معاملة الحيوان، إذ لا يستطيع أن يجلسَ ويأكلَ مع سيِّده، لأنهم كانوا يعتبرونه أدنى مرتبة من أن يفعلَ ذلك.

وعندما يُنصِّبُ الرسول ﷺ شخصًا كان عبدًا في السابق على رأسِ جيشِ المسلمين فهو يُعلِّمهم بذلك أصولَ الطاعةِ والانقياد، وكان الرسولُ ﷺ يَمنحُ هذا الموضوع اهتمامًا كبيرًا إلى درجة أنه قام قُبيلَ وفاته بتنصيبِ الحِبِّ بن الحِبِّ أسامة بن زيد بن حارثة على رأسِ جيشٍ تقرَّرَ إرساله إلى البيزنطيين ليردعهم ويُقلِّمَ أظافرهم ويأخذَ بثأر أبيه زيد، لقد حدثَ هذا الأمرُ مع أن أسامة كان آنذاك شابًّا في العشرين من عمره، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما كانا مجرد جنديين في هذا الجيش، وكان النبي ﷺ يريد بعمله هذا هدمَ عادة أخرى من عادات الجاهلية ونشرَ روحِ الطاعة والانقياد، لأن أسامة كان ابنَ شخص مُعتَقٍ، "أي عبد سابق" وكان من الفقراء، وعندما أرادَ الرسول ﷺ تعليمَ صحابتِه طاعة مثل هذا الشاب الفقير وابن عبد إنما كان يرسخ مفهوم الطاعة الحقيقية ويوجه إليها الأنظار، فقد اهتمّ الرسول الكريم ﷺ طوال حياته السنية بموضوع الطاعة اهتمامًا كبيرًا.

ونحن نأمل من الكوادر التي جعلت الدعوةَ وخدمة الإسلام هدفها الوحيد في الحياة وتهيَّأت لِفَتْحِ عهدِ بعثٍ جديدٍ أن ينشَأ أربابُها في الجوِّ نفسه ويستوعبوا مفهومَ الطاعة جيّدًا، وإلا فالتشرذمُ والتفتُّتُ بالمرصاد، وأنواعٌ من البؤسِ والشقاءِ والخلافِ بالانتظارِ، وعدم الطاعة هو المصيرُ المحتوم.

هذا مع العلم أنه لم يبقَ في طوقِ إنسانِنا الحاليّ مجالٌ كبيرٌ للتحمُّلِ والصبر، لذا كان لزامًا على هذا الكادر أن يستقيمَ على الحق ويعبرَ نفقَ هذه الأزمة بأقصرِ وقتٍ ممكن لكي يستطيعَ -بالانقيادِ والطاعة- أن يبعثَ الأملَ في النفوسِ التي قاست الكثير حتى الآن.



الحكمة من القسم بمواقع النجوم

سؤال: ما الحكمة من القسم بمواقع النجوم في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (سورة الوَاقِعَةِ: ٥٦/٧٥)؟

الجواب: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة الوَاقِعَةِ: ٥٦/٧٥-٧٧).

آهٍ على ذلك الإنسان الذي قسا قلبه! إن الله ﷻ يعلم بعلمه الأزلي ما في الإنسان من قسوة وجفاء، ولذا غلّظ قوله بالأيمان في حديثه لنا.

على الإنسان أن يخجل ويستحيي من هذا، بل عليه أن يتفصَّدَ عرقًا، وأن ترتجِفَ شفتاه، وتتزلزلَ أوصالُهُ وهو يقرأُ مثل هذه الآيات؛ لأنّنا ألجأنا ربنا ﷻ على أن يبدأ حديثه بالقسم مؤكّدًا لنا مرّات ومرات بأن القرآن كتاب كريم؛ حتى نصدق ونذعن.

والأيمان كثيرة من هذا القبيل في القرآن الكريم، فكما أقسمَ الحقُّ ﷻ تارة بالنجوم أقسمَ تارةً أخرى بالشمس والقمر والسماء كلّها، بل إنه أقسم بِنِعَمِه على الأرض، فأقسم بالتين والزيتون والطور، كما أقسم بالليل والنهار، ولا ريب أن كلَّ هذه الأيمان تنطوي على عشراتٍ من الحِكَمِ والأسرارِ الخفيّة.

وفي آيةٍ أخرى يقسم الحقُّ ﷻ بالنجمِ فيقول: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (سورة النَّجْمِ: ٥٣/١)، ومن الممكن أن نفهمَ هذه الآية على النحوِ التالي:

أي "أُقسم بالنجم الذي يعرج إلى السماء، أو الذي يتقوَّس تمامًا ثم يعود"، ومن هنا جاء ذكر النجم في هذه السورة متناسبًا تمامًا مع الحديث عن معراج سيدنا رسول الله ﷺ، فإن كان الوضع هكذا فإن النجم الذي أقسم به ربنا ﷻ في هذه الآية -كما أشارت إحدى التفسيرات- هو رسول الله ﷺ، وكيف لا وهو الذي عرج أولًا من الخَلْقِ إلى الحقِّ ﷻ، ثم عادَ من الحقِّ إلى الخَلْقِ.

ومن التفسيرات المتعلقة بحقيقة "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى": أن النبي ﷺ لم يسكرْ أو يغبْ عن وعيِه إزاءَ الجنّة التي رآها أو الجماليّات التي كشفَ الله له عنها، بل عاد لِيُصَحِّحَ فسادَ العالم ويُعلِم الآخرين بالنِّعَمِ التي اختصّه الله بها، ويأخذ بأيدينا إلى المعالي.

وعلى ذلك فالقَسَمُ بنبيّنا محمّد ﷺ واعتبارُه نجمًا له مغزى عميق وجميل.

أجل، إن هذا النجم بأحدِ معانيه يعني النبيَّ ﷺ، فهو من اختصَّه الله تعالى في الأساس بمزايا وفضائل عظيمة، ولما عرج به إلى السماوات العُلى حظي بكثير من النعم الأخرى، ثم هوى إلى الأرض نزولًا مختلفًا على غير الصورة التي ذهب بها، وهذه حادثة لا مثيل لها في تاريخ البشر، وكذلك منحَهُ هذا الشرف مرة أخرى فقال: "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى"، وأقسم بجاهه ﷺ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (سورة الشَّمْسِ: ٩١/١)، يقسم ربنا ﷻ بالشمس، وبالضحى الذي يصاحب ظهور الشمس.

وفي قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ (سورة الضُّحَى: ٩٣/٢)، **أقسم** ﷻ **بالليل** من حيث إنه محل للراحة، وبالظلمة التي تغشى الليل، ثم بانقشاع تلك الظلمة وبزوغ النهار مرة أخرى؛ بمعنى أن الله تقدست أسماؤه يقسم بالفيوضات والألطاف الإلهية التي تجري في الكون في دوران دؤوب.

وفي موضع آخر يقول الحق ﷻ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ﴾ (سورة التِّين: ٩٥/١-٢)، والطور هو ذلك المكان المبارك الذي حظي فيه موسى عليه السلام بكلام الحق ﷻ وتجلياته، وهذا الشرف الذي ناله سيدنا موسى عليه السلام كان يحمل في طياته أُسُسَ انبعاثِ أمة من الناس.

ولقد تلقَّى موسى عليه السلام الأمرَ هنالك، فاستيقظَتْ تلك الأمة بهذه النفحاتِ على الحياةِ الحقيقيّة؛ ولذا استحق الطُّورُ أن يكونَ بقعةً مباركةً يُقْسِمُ الله تعالى عليها.

وكما ذكرنا آنفًا فكثيرًا ما وردَ في القرآن الكريم مثلُ هذه النوعية من الأيمان، ومن تلك الأيمان قَسَمُهُ ﷻ بمواقِعِ النجومِ كما جاء في الآية الأولى، ومما ذكره العلماء قديمًا وحديثًا حول الحكمة من القَسَمِ بالنجومِ ما يلي:

أولًا: النجوم مهمة للإنسان في كلِّ زمان؛ لأن العلاقة قائمةٌ ودائمةٌ بين الإنسان والنجوم، وأقلُّها هو تحديدُ الناسِ الجهات عن طريقها، ويؤكِّدُ ربُّنا ﷻ على هذه الحقيقة فيقول: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (سورة النَّحْلِ: ١٦/١٦).

وعلاوةً على تحديدِ الجهاتِ في البرِ والبحرِ فإن كلَّ نجمٍ أو مجموعةٍ من النجومِ توحي لنا بأمورٍ محاكيةٍ للإنسان كنجم القرآن تمامًا، وبلسانِ حالها وانتظامها وتناغمها تُحَرِّكُ قلوبَنا وتُرشدُها إلى حقائق خفيّة، وهذه صورة أخرى من الاهتداء بالنجوم، ولذا يقول الحق تعالى: "وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ"، وربما أقسم الحق ﷻ بمواقع النجوم بناءً على تلك العلاقة بين الناس والنجوم؛ لأنه إن لم تجر النجوم في أماكن معينة فليس من الممكن أن يستفيد الناس منها على هذا النحو.

ثانيًا: لا يمكن أن تتحقَّقَ عمليّة وصول الشمس والنظام الشمسيّ إلى موقعها الحالي واتخاذهما صورتهما الحالية إلا بتوافر مئاتٍ من الشروط، فعلى سبيل المثال إنَّ تَسَرُّبَ الهواءِ من الغلافِ الجوِّيِّ واختلالَ توازنِ ما بِه من غازاتٍ يؤدّي إلى اختلال البنية العامة للغلاف الجوِّيِّ على الفورِ، وإلى عدم إمكانيّة الحياة داخله.

في الواقع إن كلًّا من الهواء والكرة الأرضية يدفع بعضهما بعضًا، ومع ذلك يجتمعان كرهًا؛ بمعنى أنهما يذعنان ويستسلمان لأوامر الله ﷻ، ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: ١١/٤١)، وكلَّما دقَّقْنا النظرَ في هذه الأمورِ وسَبَرْنَا أغوارَها أُصِبْنا بالحيرةِ والذهولِ، واستنبطْنا منها أدلَّة على وجودِ الله ووحدانيَّتِه.

وعلى ذلك فالقَسَمُ بهذه النجوم ومواقعِها التي تُعَدّ دليلًا على وجود الله ووحدانيّته إنّما هو في غايةِ المنطقيّة وفي محلِّه بالضَّبطِ، وإننا إذا خرجنا عن النظام الشمسي تبدت لنا أنظمة أخرى عديدة

داخل درب التبانة، كلها قد استقر في مكانه المناسب، فلو اصطدمت ذرَّتان في مكان ما ببعضِهما لوقعَتْ كارثةٌ لا تُطاق، وإن التفكير في أن تؤدي تلك الأجرام العظيمة إلى مثل هذه الكارثة بسبب اختلال التوازن في فضاء الكون أمر يسوق الإنسان إلى الخوف والفزع، وبينما كان ينبغي أن تؤدي هذه الكثرة والتداخل إلى انعدام التوازن نجدُ النجومَ تجري في انتظام مذهلٍ بقدرة الله تعالى، إننا نحاولُ أن نرجع هذا التناغمَ والانتظامَ بين النجوم بنظريَّةِ الدفع والجذبِ، بيد أن وراءَ هذا التناغم قدرة الله سبحانه الذي لا حدَّ لقدرتِهِ، والتي تُعرَض على أنظارنا على صورة القَسَمِ بمواقع النجوم في قوله: "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم".

ثالثًا: وهذه الآية تنقلُنا إلى مسألةٍ أخرى ألا وهي: أن النجومَ استقرَّتْ إلى حدٍّ كبيرٍ في مكانها اللائقِ بها، وإن أجرينا دراساتٍ حول نظامٍ واحدٍ توفَّرت لدينا أفكارٌ سليمةٌ عن الأنظمة الأخرى، حتى إننا قد نتمكن من عقد اتصالٍ مع تلك الأنظمة وإنشاء مدن بها.

أجل، إن تيسَّرَ لنا فهمُ نظامٍ واحدٍ سيتيسَّرُ لنا اكتسابُ معلوماتٍ عن الأنظمة الأخرى تلقائيًّا؛ لأن استقرارَ هذه الأنظمة في مثل هذه الأمكنةِ المناسبة لها تمامًا قد جنَّبَها كلية العشوائية والفوضى، وكلها يجري في غاية النظام والانتظام.

ومن الملاحظ أن ربنا ﷻ قد كشفَ لنا في سورة الرحمن عن رحمانيته بهذا التوازن والانتظام الرائعين، فالرحمن هو الاسم الذي يلي لفظ الجلالة، وقد استخدمه الحق تعالى كاسمٍ خاص بين أسمائه الحسنى بمعنى الرزاق، والرحمنُ في "بسم الله الرحمن الرحيم" يلي

اسم الجلالة مباشرةً، واقترن بلفظ الجلالة كصفة له داخل البسملة فحسب في مائة وأربعة عشر موضعًا في القرآن الكريم، وتستهلُّ سورة الرحمن بذكر اسم الله الرحمن، وعند تعدادِ النِّعَمِ كان اسم الرحمن أوَّلَ ما عرضَ لنا.

يقول ربنا ﷻ بداية ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (سورة الرَّحْمَنِ: ١/٥٥)، ثم يعبر بقوله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (سورة الرَّحْمَنِ: ٢/٥٥) عن مظاهر الرحمة الإلهية وتجلياتها، فهل هناك أعظم من هذا التجلي؟

أجل، لو لم تُنِر الأطياف النورانية للقرآن الكريم أبصارَنا وتُنوِّرْ دنيانا بالرسائل التي يبثُّها هذا الكتاب الكريم لظلَّ الكونُ بالنسبة لنا مأتمًا عامًّا ولتراءت لنا جميع الموجودات جثثًا هامدةً تبعثُ الخوف والفزع في صدورنا، ولَمَا استطعنا أن نتلمَّسَ الماهية الحقيقيّة للأشياء ونفهمها فهمًا تامًّا.

لكنَّنا أدركْنا معنى وحكمة كلِّ شيءٍ بفضلِ ظلِّ الأطيافِ النورانية للقرآن الكريم، وشَعَرْنَا بأننا أهمُّ أنموذجٍ في هذا الوجود.

إننا فَهِمْنا بنورِ القرآن أمورًا تعذَّرَ على الآخرين فهمها عن طريق العلم، فتخلَّصْنا من الحيرة والعجب، ولما دَرَسْنا الوجودَ من خلال النفوذ إلى روح القرآن أدركنا أمورًا لا يعرف الآخرون حتى مسمّياتها.

أجل، لقد حَدَسْنا وجودَ أنفاقٍ نورانية تمتدُّ إلى العوالم الأخرى حتى داخل الثقوب السوداء، وحيثما نظرنا بنور القرآن ألفينا النورَ يعمُّ كلَّ مكان.

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (سورة الرَّحْمَنِ: ٥٥/٣-٤):

إن الله تعالى الرحمن وفقًا لفحوى هذه الآية يشير إلى رحمانيته، فلو كنا بُكمًا أو تعذَّرَ علينا أن نكون ترجمانًا للسان هذه الكائنات التي تنطق بغزارة وتتكلَّم بطلاقة، أو إن لم نستطِعْ أن نفهم البيان الإلهي ونشرحه لبعضنا؛ يعني إن لم نتمكَّن من أن نرى ذلك النور الذي استضاء به الكون من خلال البيان الإلهي الصادر عن صفة الكلام ما استطَعْنا أن ندرك شيئًا من المعاني العميقة والنقوشِ الدقيقة التي يتزين بها الكون.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (سورة الرَّحْمَنِ: ٥٥/٥):

لقد وضعت الشمس والقمر في منازل مناسبة وفقًا لحسابات دقيقة قويمة، حتى إن أشعة الشمس إذا ما دنت من غلافنا الجوي واصطدمت به تحولت إلى أشعة لطيفة أنعشت أبصارنا، مما يدل على أن وراء ذلك قدرة إلهية عظيمة ربطت كلَّ شيءٍ بخطة حمايةٍ مُحكمَةٍ، وهذه الحماية تعني من زاوية أخرى أن الله تعالى يظهر لنا رحمانيَّتَهُ، فلو لم تضع الرحمة الإلهية نظامًا هكذا وفق حسابات دقيقة كاملة لاصطدمت الأجرامُ السماوية ببعضها ولصرنا هباءً منثورًا بين تلك الأجرام.

أجل، قد تسقط أحيانًا شهب من السماء لكنها لم تتسبَّبْ لِأحدِنا في أيِّ مشكلة قطّ، فما جَرَحَتْ رأسًا ولا فقأَتْ عينًا، وهذا يعني أن هذه الشُّهُبَ المتصادمةَ تصطَدِمُ بدرعِ حماية الله فَتَتَفَتَّتُ، إن شئتم اجعلوا السببَ الغلافَ الجويَّ أو الأكوامَ الغازية المتكاثفة، قولوا ما شئتم فكل هذه الأسباب عبارة عن تجسيد عناية الحق ﷻ،

لقد وضع الله تعالى كل شيء بحسابات دقيقة في نظامٍ وتناغمٍ كاملين، ويتراءى لنا مثل هذا المعنى في قوله تعالى: "فلا أُقسم بمواقع النجوم".

رابعًا: إن النجم القطبي ومكانته بين النجوم وهدايته لنا، والنظام الشمسيّ وموقعه داخل درب التبانة، ودرب التبانة وموطنه الرائع بين الأجرام السماوية وموقعه المذهل بالنسبة للأنظمة الأخرى؛ المتواضع بالنسبة لغيره، ثم ذلك التناسب بين هذه الأنظمة والأنظمة الأخرى، وابتعاد النجوم كلها عن بعضها بمسافات معيّنة كما حدَّدَها العلم، واستقرار الأقمار التي تدور حول الشمس في منازل خاصّة وفقًا لحسابات معينة؛ كل ذلك يشير إلى أن كل شيء في الكون قد انتظمَ في تناغمٍ رائعٍ أشبه بالشِّعرِ، وربما تشير آية "فلا أقسم بمواقع النجوم" إلى هذه الأشياء كلها.

خامسًا: لقد أُجريت دراسات مختلفة في الشرق والغرب عن مواقع النجوم، فالعلماء الروس مثلًا يقولون: إنها المواقع التي تحطّ فيها النجوم، أما في الغرب فيقولون زيادة على ذلك: إنها إما الثقوب البيضاء أو الثقوب السوداء.

في الواقع علاوةً على المسائل التي يحاول العلم الوصولَ إلى حلٍّ فيها نجد أن هناك العديد من الأسرار التي ما زالت تنتظر الحل، حتى عندما نعتقد أننا قد أوضَحْنا مسألةً ما إذ بنا نجِدُ أمامنا فجأةً مسألتَين أو أكثر تنتظِرُ التفسيرَ والبيان، فعلى سبيلِ المثالِ هناك نوعٌ من التضادِّ بين الغلافِ الجوِّي للكرة الأرضية والكرة الأرضيّة، ويدَّعِي الفلكيُّون أن هذا التضادّ عاملٌ يُحافِظُ على التوازُنِ في العالم والفضاءِ

بل في الكون بأكملِهِ، فالثقوبُ البيضاءُ والثقوب السوداء هما عنصران متضادّان، وهما مهمّان جدًّا للحفاظ على التوازن العام في الكون.

ويرى المفسِّرون الحداثيُّون أن آيةَ مواقع النجوم تشير إلى الثقوب البيضاء والثقوب السوداء، فالثقوب البيضاءُ مصدرٌ ثريٌّ وعظيمٌ للضوء والطاقة، وها قد أصبحت تُرى وتُحدّدُ في أيامنا، ويقول رجالُ العِلْمِ عن هذه الثقوب: إنها كحقولٍ نشأَتْ وترعرَعَتْ في باطنِها النجومُ والأنظمةُ الأخرى.

أجل، إنها تمتلك طاقةً هائلةً، فلو غابَت حتى مجرّةُ "دربِ التبانة"؛ فمن الممكنِ أن تُشكِّلَ ثقوبٌ بيضاء منها مدارًا لمجرّةِ "دربِ تبانة" جديدٍ بحولٍ من الله وقوَّتِه.

لقد استقرَّتْ هذه الثقوبُ إلى هذا الحدِّ داخلَ الكون في تناغمٍ استطاعَتْ من خلاله أن تؤدِّي أعظمَ وظائِفِها المنوطة بها على أكملِ وأدقِّ وجهٍ.

أجل، إن مواقعَ النجومِ هي من العوامل التي تؤثِّرُ ظاهرًا تأثيرًا بالغًا في نظام الكون، ويقول العلماء الروسُ إن هذه المواقع هي الأماكن التي نَشَأَتْ وأينَعَتْ فيها النجوم الصغيرة، وقولهم هذا له اعتباره من جهة ما؛ لأن هذا يعني أن إشارة القرآن الكريم إلى مواقع النجوم في هذه الدنيا العجيبة تقريرٌ وتأكيدٌ على أن عِلْمَ القرآن الكريم بالماضي والمستقبَلِ يُضاهي عِلْمَهُ بالحاضِر.

سادسًا: أما الثقوبُ السوداء فهي تلك النجوم التي تتشكل من ذرَّات وإلكترونيات، فإذا ما نفدَتْ طاقة الإلكترونيات خَمَدَتْ تلك

النجوم، فإن تتابعَ ذلك الخمودُ تضاءلت تلك النجوم العظيمة، فإن تضاءَلَتْ مثل الشمس أو أقلّ منها نشأت الثقوبُ السوداءُ.

وفي الواقع إن هذه النجوم يتضاءلُ حجمُها رغم أنها لا تفقدُ شيئًا من وزنها، وتتحوَّلُ إلى ثقوبٍ سوداء عظيمة، ومع ذلك لا تُرى، غير أن الضوءَ يتلاشى عند النفوذ منها، مما يعني أنها تبتلِعُهُ، الأمرَ الذي يدلُّنا على وجودها، وعند ذلك تُسْرِعُ وتيرةُ الزمان.

وعندما تتلاشى تلك الأشياءُ التي دَخَلَتْ دوامة هذه الثقوب تتمثّل أمامنا بعضُ الأسرار الخفية، فمثلًا هذا النظام العظيم مثل الشمس إذا ما دنا إلى ثقبٍ من هذه الثقوب ابتُلع وغاب عن الأنظار، ومن ثم يقولُ بعضُ الفلكيّين بأن الثقوبَ السوداء هي مواقع النجوم.

سابعًا: وقد يرد لفظُ النجم في القرآن الكريم بمعنى الأنبياء العظام، فمثلًا يقول الحقُّ ﷻ في سورة الطارق: ﴿**النَّجْمُ الثَّاقِبُ**﴾ (سورة الطَّارِقِ: ٨٦/٣)؛ أي النجم الذي يثقبُ القلوبَ الصلبةَ ويفتحُ الأبواب المغلقة وينفذ إليها، وعلى ذلك فهذا النجم هو سيدنا رسول الله محمد ﷺ، فكلُّ نبيٍّ هو -من ناحيةٍ ما- كنجمٍ من حيث مهمة النبوّة التي كُلِّفَ بها في عصرِهِ، فمن اتَّبَعَهم ارتقى إلى سماءِ السعادة، ارتقى وحظي بالوصال مع الحقِّ ﷻ.

وعندما يُقسم الحقُّ ﷻ بمواقع النجوم يلفت الانتباه إلى مقام سيدنا إبراهيم وسيدنا نوح وسيدنا موسى وسيدنا عيسى وغيرهم من الأنبياء، وإلى المقامِ الأعظم لنبيِّنا صلوات ربي وسلامه عليه، وهذه المسألةُ من الأهمّيّة بمكانٍ من حيث التفسير الإشاري.

ثامنًا: أريد هنا أن أتعمَّقَ في الموضوعِ أكثر، وأُنَبِّهَ إلى مسألةٍ أخرى؛ فكلمةُ "النجم" تُطْلَقُ أيضًا على آياتِ القرآن الكريم، يقولُ المفسِّرُون: "لقد نَزَلتْ آياتُ القرآنِ الكريمِ منجّمة"، ومن ثَمَّ فهم يرون أن لِآياتِ القرآن مواقعَ كمواقع النجوم، لكننا نقولُ باديءَ ذي بَدءٍ بأنَّ موقعَ القرآنِ الكريمِ في العِلمِ الإلهيِّ يفوقُ كلَّ التصوُّراتِ، ونحن لا نستطيعُ أن نرى ما في صفةِ كلامِ الله من قوَّةٍ وقدرةٍ وإحاطة، وعلى ذلك أقسمَ ربُّنا ﷻ مباشرةً على مكانة القرآن بمواقع النجوم.

وعلى ذلك ليس هناك فرقٌ بين ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (سورة ق: ١/٥٠) والقسم بمواقع النجوم، فهذا كهذا، علاوةً على ذلك فَلِلْقرآن مكانةٌ في اللوحِ المحفوظ؛ لأن القرآن كانَ في اللوح المحفوظ حتى ليلة القدر، وما استطاعَ أحدٌ أن يطَّلِعَ عليه إلا مَن امتدَّتْ أبصارُهم إلى هنالك، ووفقًا لذلك فإن مواقعَ النجومِ تعني مواقع نجومِ القرآنِ الكريم التي نشأَتْ بحولٍ من الله وقوَّتِه فشرَحَت وأوضَحَتْ كتابَ الكون، بمعنى أن القرآنَ يُعتبر أيضًا مجموعةً أخرى من النجوم، توضِّح وتشرحُ النجوم في الكون.

يتبين من خلال ذلك أن ثمة تشابهًا وشموليَّةً بين القرآن والكون، وبما أن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (سورة القَدْر: ١/٩٧)؛ فهذا يعني أن القرآن الكريم كان مكانه في اللوح المحفوظ، ولم يستطع أن يطَّلِعَ عليه هنالك ويشاهده كلّية إلا كلُّ وليٍّ تمكَّنَ من مشاهدة حقيقةِ اللوح المحفوظِ وامتدَّ نظرُهُ إلى هنالك.

وبناءً على ذلك يمكن أن يُقالَ: إن القَسَمَ بمواقعِ النجومِ يعني القسمَ بالموقِعِ الشريفِ للقرآن الكريم.

تاسعًا: إن للقرآن الكريم موقعًا آخر أيضًا وهو أمانةُ سرِّ صدر جبريل الأمين عليه السلام، ذلك الذي استحقَّ مقامَ الأمانة بوصف الله له في قرآنه ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/١٩٣)، ووفقًا لذلك يُحمَلُ القسم بالنجوم على القَسَمِ بِصَدْرِ جبريل عليه السلام ومن هم على شاكلتِه.

عاشرًا: وقد يُقصَدُ بمواقعِ النجومِ أيضًا الصدورُ النقيَّة للنبي ﷺ وأمّتِه.

حادي عشر: ويمكن أن تكون المواقع التي أقسم الله تعالى بها هي تلك الصدور النقية التي تصدق بالقرآن وتعتبره كلَّ شيء، وعند قراءتها له تشعر في أرواحها بأن الله يخاطبها هي لا غيرها، اللّهم طهِّر قلوبنا وصدورَنا كما طهَّرْتَ قلوبَ السابقين وصدورَهم، واجعَلْنا يا ربَّنا من الصدورِ التي تُقسِمُ بها.

لقد أقسمَ ربُّنا تبارك وتعالى بمواقِعِ النجومِ قَسَمًا يضمُّ في طيَّاتِه كلَّ هذه المعاني التي نعرفُها إلى جانب كلِّ ما لا نستطيع معرفَتَهُ، وأعلنَ سبحانه وتعالى بنفسِه عن عِظَمِ وجلالِ هذا القسم.

وإننا نؤمنُ بالأسرارِ التي يتعذَّرُ علينا معرفة كنهِها قدرَ إيماننا على الأقلّ بما نعرفهُ من أسرار، ونُصَدِّقُ يقينيًّا وبكلِّ جوارِحِنا بقوله سبحانه: ﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ (سورة الوَاقِعَةِ: ٥٦/٧٦).



التوبة النصوح

سؤال: ما "التوبةُ النصوح"؟

الجواب: جاء في الآية الكريمة المتعلِّقة بالتوبة النصوح خطابٌ إلى المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (سورة التَّحْرِيمِ: ٦٦/٨)، هناك ثلاثُ كلماتٍ يجب الوقوف عندها في هذه الآية وهي الإيمان، التوبة، النصوح.

الكلمة الأولى هي الإيمان، والإيمان هو قبولُ الإسلامِ كلِّه والإقرارُ به لسانًا والتصديقُ به جنانًا، فإن لم يتم الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به لا يكون الإنسان مؤمنًا، لأنَّ ما نُعوِّلُ عليه إنّما هو المعنى الشرعي للإيمان، ومع ذلك فإن تناوَلْنا المعنى اللغويَّ له عَرَفْنا أن كلَّ من يؤمن بالله تعالى يدخلُ في أمانه. أجل، فالإيمانُ وحده هو ما يُخلِّصُ الإنسانَ من حوادثِ الدنيا ومشاكِلِها الكبيرة بحجم الجبال، وهو أيضًا ما يُخلِّصُه من قبضةِ عذاب الآخرة وويلاتها التي لا تُعَدُّ مصائبُ الدنيا بجانبها شيئًا يذكر.

الكلمة الثانية هي التوبة، والتوبة تعني تجديدَ الإنسان لنفسِه وإصلاحًا داخليًا له، أي إعادةَ التوازنِ للقلبِ الذي فقدَ توازُنَهُ نتيجةَ الإنكار والتصرُّفات المنحرِفة، أي هروبَ الفردِ من الحق إلى الحق، وبتعبيرٍ أدق هروبَه من غضبِ الحقِّ إلى لُطفِهِ، ومن حسابه إلى رحمتِه وعنايتِهِ، واللجوءَ إليه، ويمكن تعريفُ التوبة أيضًا بأنها

محاسبةُ الإنسان لنفسِه نتيجة شعورِه بالإثم؛ بمعنى أن النفسَ توجه الحياة كما يحلو لها دون شعور بالمسؤولية، وفي مقابل هذا تقف الإرادة حائلًا كالجبالِ العاتية أمام الآثام التي تشتهيها النفسُ ولا تأذنُ لها بالمرور.

فإذا كان الإثم يُشبه التدحرجَ إلى هاويةٍ دون توازنٍ؛ كانت التوبةُ هنا هي لَمْلَمة النفسِ والخلاص من هذا التدحرج بقفزةٍ إلى الخارج، وبتعبير آخر فإن كان الإثم هو إصابة الوجدان والروح بجرحٍ مؤقَّتٍ نتيجة عدم المراقبةِ والمحاسبة فإن التوبةَ هي شعورٌ بالألم المحيطِ بالقلب، والقيام بمحاسبة النفس ومراقبتها واكتساب الحواس قوّة جديدة وطاقة جديدة، ولما كان الإثم نتيجة لِتَحَكُّمِ وغلبة الشيطان وأهواء النفس على الإنسان كانت التوبة هي دفاعَ الحواس ضد الشيطان، وهي محاولة إعادة التوازن والتناغم إلى الروح.

وبينما يقوم الإثم بعمليّة تآكلٍ وتعريةٍ للروح كانت التوبة وقوفًا ضدَّ هذه العملية بعملية تعميرٍ مضادَّةٍ بالكلمة الطيبة، لذا فما أجلّ وما أعظم التوبة التي تُحَرِّكُ القلبَ من قَبْلِ أن يأتي اليوم الذي تندَهِشُ فيه القلوبُ والأبصار، فيا ليتنا كنَّا موفّقين في سدّ كلِّ ثغرةٍ يفتحُها الإثم بأنين التوبة وبكائِها.

يولَدُ الإنسان طاهرًا من كلِّ ذنب واعوجاج، والذين ينحرفون عن فطرتهم وعن الطريق القويم يكونون قد قَذَفوا بأنفسِهم إلى تربةٍ لا تُنْبِت، لذا فمصيرُهم المحتوم هو التفسُّخُ هناك، لأن الآثامَ تُعَدُّ عوامل تفسُّخٍ للإنسان، وهناك آية حول رجوعِ الإنسان إلى ربِّه تعالى بعد اقترافه الإثم، قال تعالى:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ (سورة الزُّمَر: ٥٤/٣٩)، والإنابة هي العودة والرجوع، إذًا فالتوبة هي الرجوعُ إلى الأصل النقيّ بعد التلوُّثِ بالإثم، والحديث الشريف يقول: "**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** (سورة الْمُطَفِّفِينَ: ١٤/٨٣)"(١٠).

أي إن فكرةَ اقترافِ الإثمِ تكونُ قد بدأت بالتوسُّع انهيارًا في دماغِهِ، تمامًا مثل الشخص الذي بدأ ينزل سلّمًا، فهو ما إن ينزل درجة حتى يتهيأ للدرجة الثانية، وما إن ينزل الثانية حتى يتهيأ للثالثة، وهكذا فما إن يعتاد الشخص على اقتراف الإثم حتى يفقد الحياء فيسهل عليه اقترافُ آثامٍ وموبقات عديدة فيستمرُّ في النزولِ والهبوطِ إلى أسفلِ سافلين، لذا قال سعيد النورسي رحمه الله "إن في كلِّ إثمٍ وخطيئةٍ طريقًا مؤدِّيًا إلى الكفر فإن لم يمح ذلك الإثم فورًا بالاستغفار يتحول إلى دودة معنوية، بل إلى حية معنوية تلدغ القلب وتؤذيه"(١١)، والتوبةُ هي سدُّ الطريق أمام مثل هذا الهبوطِ وتغييرُ الوجهة للصعودِ إلى الطريق المؤدِّي إلى الله تعالى، وبذلُ الجهد في هذا السبيل.

التوبةُ هي رجوعُ الإنسان إلى رَبِّه مرة أخرى بعد ضلالِه وانحرافِه عن الطريق، ولذا نرى أن الرسول ﷺ يقول في حديثه الذي يورده البخاري ومسلم: "**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِه حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِه بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ**

(١٠) **سنن الترمذي**، تفسير القرآن، ٧٨.
(١١) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة الثانية، ص ١١.

وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ"[١٢].

ولا شكّ أننا لا نستطيع إسناد كلمة "الفرح" الواردة في الحديث بمعنى الفرح المعروف لدينا إلى الله تعالى، فهذه الكلمة تفيدُ هنا معنى آخر يليق بصفة "الغِنَى المطلقِ" لله ﷻ، ونعجز نحن طبعًا عن إدراكِ هذا المعنى، ولكنَّنا نفهمُ أن الله تعالى يُبْدِي رضاءَهُ لتوبةِ عبدِهِ، وهذا هو المهمّ.

هناك وجهتان للتوبة: الأولى متوجِّهة لنا، والثانية متوجِّهة لله تعالى، ولهذا المعنى يُشيرُ الرسولُ ﷺ عندما يقول: "**وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**"[١٣] فتوبتُنا متوجّهة نحو الله تعالى، وتوبةُ الله متوجّهةٌ برحمتِه نحونا حيث يفتح بابه من جديد لنا.

إننا عندما ننحرفُ عن الطريق تنغلقُ جميع النوافذ وتنسدّ جميع المنافذ بيننا وبين الله مؤقّتًا، ثم نندم ونتحسَّرُ قائلين: "لماذا عملنا هذا؟ لماذا انحرَفْنا إلى طريق مضادٍّ لِفطرتنا؟"؛ وبينما نكون منغمرين في مشاعر الندم إذا بنا نحسُّ بأن النوافذ والمنافذَ قد انفتحَتْ لنا من جديد، فالخطوة الأولى كانت توبتَنا وبدايتُها النيةُ والندامةُ التي تقضُّ مضجعنا، أما الثانية فهي توبة الله علينا حيث فتحَ أمامنا الأبوابَ والمنافذَ قائلًا: يا عبادي! أنا لم أنسَكُم ولم أترككم... وما دمتم

(١٢) صحيح البخاري، الدعوات، ٤؛ صحيح مسلم، التوبة، ٧ (واللفظ لمسلم).
(١٣) صحيح البخاري، الرقاق، ١٠؛ صحيح مسلم، الكسوف، ١١٦.

تذكرونني فإنني أتقبَّلُ توبتَكم وإن تكرَّرَ منكم نكثُ العهد مرات ومرات. أجل، فهو أرحم الراحمين، لذا فمهما عَمِلْنا من سوء، علينا ألا ننسى الالتجاءَ إليه قائلين "يا أرحم الراحمين ارحمنا... يا غفورُ يا غفّار اغفرْ لنا ذنوبَنا وتجاوَزْ عن سيِّئاتنا...".

والكلمة الثالثة هي "النصوح" وهي اسم فاعل على وزن "فعول" وتفيد المبالغة، ومعناها المبالغة في نصح النفس وفعل الخير، وتأتي من جذر "النصيحة"، والنصيحة هي إرادة الشخص خيرَ الآخرين والتفكيرُ الحَسَنُ والرؤيةُ الحسنة، وعندما نقول: "الدينُ النصيحة" نقصدُ التوجُّهَ لخيرِ الآخرين ومحبّة الخير لهم، والأخذ بأيديهم لمنع انحرافهم، لذا كانت الدعوة إلى الله وإلى رسوله من موجبات هذا الأمر، لذا نُطلِقُ اليومَ على الكادرِ النورانيِّ الذي يدعو إلى الله اسمَ "جيش القدسيِّين" بتعبير السيد المسيح عليه السلام، وهؤلاء الجنود إن انفطرت السماء فوقهم، وتزلْزَلَت الأرض وانشقَّتْ تحت أقدامهم فلن يتخلَّوا أبدًا عن خدمة الإسلام، بل يستمرُّون كالأبطال في الدعوة وإن كان القبض على الدين قبضًا على جمرة من النار.

أجل، إن الدعوة إلى الله وإلى الرسول وإلى القرآن وإلى الدين الإسلامي وبعثَ الاطمئنان في القلوب الخالية منه وبعثَ فكرة الآخرة وجمالها في القلوب التي نسيت الآخرة ويئسَتْ منها، وإيقادَ الشوق لرؤية جمال الله تعالى في الآخرة والتي تعدلُ دقيقةٌ واحدة منها آلافَ الأعوام من حياة الجنة... كلُّ هذا الأمر يمكن تلخيصُهُ بكلمةِ "حبِّ الخير" التي تنطوي عليها كلمةُ "النصيحة" الواردة

في قولِ الرسول ﷺ: "**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**"(١٤)، وكما ذكرنا فإن كلمة "النصوح" تعني المبالغة في حبِّ الخير.

وعلى الإنسان أن يحبَّ الخيرَ أوَّلًا لِنَفْسِهِ، وأن يحفظَ أولًا نفسه من جميع الشرور والآثام، وحفظُ النفسِ ركنٌ من الأركان الخمسة للحقوق، لذا على الإنسان أن يحفظَ نفسَهُ من الخمرِ ومن الزنا ومن الكفرِ ومن الضلالة، وكلُّ واحدٍ من هذه له علاقة بأحدِ "الأصول الخمسة" أي على الإنسان أن يحفظَ نفسَهُ من أن يكون حَطَبًا لجهنّم، فإن عاش كَحَطَبٍ حُشِرَ كَحَطَبٍ، ومصيرُ الحطبِ معروفٌ، والقرآن الكريم يقول ﴿**فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**﴾ (سورة الْجِنّ: ١٥/٧٢)؛ لذا فعلى كلِّ إنسان أن يكون ذا رغبةٍ قوية في إرادة الخيرِ لنفسِهِ، ولا يتمّ هذا إلا إذا كان حسَّاسًا ضدَّ جميع الآثام، أما درجةُ إرادةِ الخير هذه فيجب أن تكون بحيث "**يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ** -بعد أن نجّاه الله منه ومن الضلال- **كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**"(١٥)

ومع كل هذا فقد تزلّ قدمُ الإنسان، وفي هذه الحالة ليس أمامه إلا العودة إلى عقلِه وضميرِه والقول: "إنني لم أَصِلْ إلى هذا الوضعِ إلا لابتعادي عن الله، إذًا فلا خلاصَ لي إلا بالرجوعِ إليه"، يقول هذا ثم يجتهدُ في تقويةِ صِلَتِه بالله تعالى، وهذا الجهدُ يُشَكِّلُ جانبًا من التوبة النصوح.

والجانب الآخر منها هو ألا يعودَ الإنسان إلى آثامه السابقة، لأن من يطلبُ الخيرَ لنفسِه لا يرجع إلى ما كان عليه مطلقًا، فكما يتمنَّى

(١٤) صحيح مسلم، الإيمان، ٩٥؛ سنن أبي داود، الأدب، ٧٢.
(١٥) صحيح البخاري، الإيمان، ٨.

الإنسانُ لأولادِه الخيرَ على الدوام ويرغبُ أن يكونَ مستقبلُهم زاهرًا، كذلك يجبُ أن يريدَ الخير لنفسِه على الدوام، لذا عليه أن يحاولَ ألا يدخلَ إلى الإثم منذ البداية، وأن يعدّ ابتعادَهُ عن الله تعالى جرمًا كبيرًا وهـوَّةً واسـعةً يصعـبُ سـدُّها، إن فعل هذا كانت توبتُـهُ توبةً نصوحًا، والله تعالـى يقـول: ﴿**تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا**﴾ (سورة التَّحْرِيمِ: ٨/٦٦) أي يقول للمؤمنين: إنكم بإيمانكم تَقِفُون على أرض آمنة، وبهذا الإيمان استطعتم التفريق بين الأسود والأبيض وبين الخير والشر، لقد آمنتم بالله ووثقتم به واستندتم إليه، فإن زللتم يومًا أو انحَرَفْتُم عن الطريقِ فلا تقعُوا في اليأسِ أبدًا، لأن الله تعالى يغفرُ كلَّ شـيء عدا الشـرك: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَـاءُ**﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٤/٤٨). لـذا يجـب ألا تبقوا في الموضـع الذي سـقطتم فيه، بل عليكم أن تتوجَّهـوا إلـى الله تعالـى مباشـرةً وتندمـوا علـى آثامكـم وتثوبـوا إلى رشدكم؛ وهذه هي التوبة النصوح على ما أعتقد.

وللتوبة النصوح شروط منها:

١- إن كان الذنـب متعلقًـا بحـقٍّ مـن حقوق العبـاد، فيجب إعادةُ الحقِّ إلى صاحبه أولًا والاعتذار إليه وطلب العفوِ منه.

٢- عقد العزمِ على عدم العودة إلى الذنب مرة أخرى.

٣- الإسـراعُ فـي التوبـة إلـى الله عن الذنـب الذي اقترفَـهُ في التوِّ واللحظـة حتى لا يعطي فرصةً لنفسِـه للتفكيـر في اقترافِ ذنبٍ آخر؛ أي يجـب قـدرَ الإمـكانِ ألا تبقى الذنـوب دون تَوْبةٍ ولو لمدّة خمسِ دقائق.

والبعدُ الآخرُ للتوبةِ هو أن الذنبَ يجبُ أن يُحْدِثَ ألمًا في الروح ونفورًا واشمئزازًا في الضمير؛ لأنَّ الإنسان إن اعتادَ على اقترافِ الذنوبِ ولم يشعر بألمٍ تجاهها، فإنه إن تابَ توبةً بلسانِه فقط فلا يُعَدّ هذا توبةً بل تكونُ عبارةً عن حركاتٍ آليّةٍ وعن تلفُّظِ بعضِ العبارات الخالية من الفائدة، لأن التوبةَ عبارةٌ عن ألمٍ محضٍ يحسُّهُ الضمير بحيث يجعل الإنسان يتلوَّى منه، أما التلفّظ بالتوبة باللسان فيأتي بعد هذا الإحساس بالندم وبالألم، أي إن التوبة ليست إلا ترنّمًا بالندم والألم، ولكن بشرط أن نتعلَّمَ كيفيَّتَهُ مما وردَ في الأثر فنقول: "أستغفر الله العظيم الكريم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوبُ إليه، توبة عبد ظالم لنفسِه لا يملك لنفسه موتًا ولا حياة ولا نشورًا"[١٦]، وفي حديث عن رسول الله ﷺ أن على الذي ينوي التوبة أن يركعَ ركعتين، ثم يضع جبهته على الأرض قائلًا من كلِّ قلبه: "**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**"[١٧] أو أدعية مثل هذه الأدعية، أي القيام بالتعبير عن ندمه بمثل هذه الأدعية.

وهناك دعاء مأثورٌ عن الرسول ﷺ يُطلَقُ عليه "سيد الاستغفار" يدعى به صباحًا ومساءً وهو: "**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ**

(١٦) أورده ابن رجب الحنبلي في "جامع العلوم والحكم" موقوفًا على عمر، ١١٧٠/٣.

(١٧) البزار: المسند، ٤٩/١٣؛ النسائي: السنن الكبرى، ٢١٢/٩؛ الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ٧٣٠/١؛ البيهقي: شعب الإيمان، ٢١٢/٢.

لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ"[١٨]، وقد أضاف بعض السلف "يا غفار، يا غفور" بعد كلمة "أنت" الواردة في الدعاء، ومع أن هذه الإضافة غير واردة في دعاء الرسول ﷺ إلا أن طلبَ الشفاعةِ بإضافة اسمين من أسماء الله الحسنى شيءٌ جميل.

أجل، إن التوبة هي شعور القلب بالندم، وترديدُنا لهذه الأدعية وغيرها لا يجعلُ التوبةَ مقبولةً إلا إذا اقترنَ الاستغفارُ بهذا الشعورِ بالندم، لذا فإن قلنا بلساننا "أستغفر الله، أستغفر الله العظيم الكريم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه" من دون إحساسٍ وشعورٍ مرافقٍ لهذه الكلمات وغير صادرٍ من أعماقِ نفوسِنا فإن استغفارَنا يكون عبثًا، فعلى الإنسان في الأقلِّ التعبير عن ذنوبه أمام الله تعالى تعبيرًا صادقًا نابعًا من ضميره، لأننا عندما نُجري عمليّةَ التوبةِ لا نقومُ بعملٍ هازل ولا بإجراء مراسيم شكليّة ميتة ولا بفعالية فولكلورية تقليديّة، بل نقوم بإبداءِ شعورٍ صادقٍ بالنَّدَمِ أمام الله ﷻ.

وأخيرًا نود الإشارة إلى أن شعائر تجديد النكاح والإيمان التي يقوم بها البعض في المساجد لا أساس لها ولا تُجدي الكلماتُ الواردةُ فيها المؤمنَ نفعًا، فموضوعٌ مهمٌّ كموضوعِ النكاح القائم على قواعد جدّيّة لا يفيد فيه أن نقول "إني أفكر في القيام بتجديدِ نكاحي وإيماني"، كما أن هذه الجملة معرّضة للنقد من ناحية اللغة أيضًا، لأنه لا يقولُ صراحةً إنه يريد التجديد، بل يقول إنه يفكِّرُ في هذا، وربما قام به في المستقبل، وهذا -أعاذنا الله- تعبيرٌ خطيرٌ جدًّا، لأن الإنسانَ إن كان قد تلفَّظَ بكلمةِ الكفرِ عن وعيٍ أو دون وعيٍ

(١٨) صحيح البخاري، الدعوات، ٢؛ سنن أبي داود، الأدب، ١١٤؛ سنن الترمذي، الدعوات، ١٥.

فعليه أن يجدِّدَ إيمانه على جناحِ السرعةِ ودون أيّ تأخير، والحلُّ الوحيد لهذا هو التلفُّظُ بكلمةِ الشهادةِ نابعةً من أعماقِ قلبِه فيقول: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله"، وهذا لا يتحمّل التأخير، ولا فائدة من إشغال المسلمين أو التسرية عنهم بما أسلفناهُ من أمورٍ غير جدية، فلنُبَادِرْ جميعًا إلى التوبة الجدّية، ولتهتزّ قلوبُنا لكلِّ خطإٍ أو زلة، ولنَتَوَجَّهْ إلى الله ﷻ، ولنفعلْ كلَّ هذا ضمن الإطارِ الذي رَسَمَهُ لنا رسولنا الكريم ﷺ.



القلب السليم

سؤال: ما "القلب السليم"؟

الجواب: كلمة "سليم" من الفعل "سَلِمَ"، وتجتمع مع كلمة "الإسلام" في نفس الجذر، والمعنى اللغوي للقلب السليم هو القلبُ الخالي من المرض ومن أيِّ عارض، أما المعنى الخاصّ له فهو القلب الذي لا يعرف سوى الإسلام.

ولكي يُصبحَ الإنسانُ ذا قلبٍ سليمٍ؛ عليه تطبيق أخلاق المؤمن الواردة في القرآن الكريم، وهذا تعريفٌ عام ويتضمَّنُ كلَّ شيء، فقد ورد في الحديث عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَتْ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ الله ﷻ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (سورة القَلَم: ٦٨/٤)"[١٩]، وقد نزلَ القرآنُ لكي يُنَظِّمَ الرسول ﷺ حياته على ضوئه أولًا، ومن ثم تقوم الأمَّة باتباعِ إمامها وتُنَظِّمُ حياتها وفكرها وتصوُّراتها حسب ما ترى من نبيها، ثم إننا نرى أن القلبَ السليمَ هو القلبُ السالمُ عن كلِّ ما يضرُّ الناس، ذلك لأنه وردَ في الحديث الشريف: "**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِه وَيَدِهِ**"[٢٠]، وهذا تعريفٌ خاصّ، لكنه في غايةِ الروعة، فيجب على المسلمِ ألا يمدّ لسانه ولا يدَه لإيذاءِ أيِّ شخص.

(١٩) مسند الإمام أحمد، ١٤٨/٤١.

(٢٠) صحيح البخاري، الإيمان، ٣؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٦٥.

وقد ورد تعبير "القلب السليم" في القرآن الكريم في موضِعين وكلاهما متعلقان بإبراهيم ﵇، كان إبراهيم ﵇ متألمًا جدًّا من وضعِ قومه وانحرافهم وضلالهم ولا سيما من وضع أبيه "آزر" وكان اهتمامه بأبيه شيئًا طبيعيًّا وفطريًّا، ذلك لأن كل إنسان يحمل في فطرته حبًّا واهتمامًا بعائلته وأقربائه، ويزداد حبُّهُ كلما كان الشخص قريبًا إليه، ولا يوجد هناك ابن صالح يرضى الضلالة والانحراف لأبيه، بل يتألم من ذلك ألمًا كبيرًا، ولا سيما إن كان يحمل روحًا شفّافةً وحساسةً كروح أبي الأنبياءِ خليلِ الله إبراهيم ﵇، لذا كان إبراهيم ﷺ يتلوى ألمًا بسبب أبيه.

كان إبراهيم ﷺ يدعو قومه وأباه إلى دين التوحيد، ولكنهم كانوا يعاندون ولا يستجيبون، بحجة أنهم رأوا آباءَهم للأصنام عابدين، وكان هذا العذرُ يرِد على الدوام على لسان كلِّ قومٍ وفي كل عهد عندما يريدون التهرُّب من الحقِّ والحقيقة، ولذا لم يجد إبراهيم أمام هذا العناد إلا أن يرفع يديه إلى ربه متضرّعًا قائلًا: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۞ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۞ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۞ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۞ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۞ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/٨٣-٨٩).

كان إبراهيم ﵇ صاحب قلب سليم، والآية الكريمة ﴿**وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (سورة الصَّافَّاتِ: ٣٧/٨٣-٨٤)؛ تُثبتُ هذا المعنى، ولقد أثبتَ القرآنُ الكريمُ في موضِعٍ آخر بأنَّ يوم القيامةِ هو يومٌ لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنون ﴿**إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ**

سَلِيمٍ﴾، أي إن القلب الكافر لا يمكن أن يصل إلى شاطئ الأمن والسلامة في ذلك اليوم، فلو كان ابنُ الكافر نبيًّا في مقام إبراهيم عليه السلام فلن ينفع أباهُ بشيء، ومع أن إبراهيم عليه السلام هو خليل الله وأبو الأنبياء، حتى إن سيد الرسل ﷺ كان يفخرُ بأنه يُشبهه. أجل، ما كان أبوه حنيفًا مسلمًا، ومع أن إبراهيم عليه السلام ليحظى بمكانةٍ رفيعة عند الله إلّا أنه ما كان بإمكانه أن ينفعَ أباه أبدًا.

فإذا ما نَظَرنا إلى موضوع "القلب السليم" من هذه الزاوية نكون قد فهمنا معناه بشكل أفضل، فالقلبُ السليمُ يجبُ أن يكون سالمًا من الكفر ومن الشِّرك ومن الشكِّ والريبة والتردُّد، وإن القلبَ المملوءَ كفرًا مَهْما تصرَّفَ صاحبُهُ بشكلٍ إنساني لن يكون قلبًا سليمًا، يقول كثيرٌ من الناس اليوم: "إن قلبي طاهر لأنني أُحِبُّ الناس كثيرًا وأسعى إلى مساعدتهم"، ولكن هذا ادِّعاءٌ فارغٌ؛ لأنَّ القلبَ إذا استوطنه الإلحادُ والإنكارُ فقد عزَّ أن يعودَ سالمًا وسليمًا، إذ إنّه قد امتلأ بإنكارِ صاحبِ الكون ومالكه عز وجل.

إن حبَّ الناسِ وحبَّ الإنسانية شيءٌ جميلٌ ومهمّ، إلّا أنه يجبُ فهمُ وإدراك الوجه الحقيقيّ للإنسانية أولًا، ثم يجب أن يكون هذا الإدراك دائمًا وغيرَ منقطع، ومثل هذا الإدراك مرتبطٌ بالإيمان، فبدون الإيمان تكونُ كلُّ صورِ الخيرِ والجمالِ والفضيلةِ إما كذبًا أو شيئًا مؤقَّتًا؛ لذا فهي دون قيمة.

إن قام شخص بتقديمِ خدماتٍ جليلة لوطنِهِ، بل حتى لو خدمَ الإنسانية جمعاء، ثمَّ ادَّعى أنه لا يعترفُ بقوانين البلد ولا بِنُظُمِه فإنه سرعانَ ما يتعرض للعقاب دون الأخذ بعينِ الاعتبارِ خدماته السابقة،

وهكذا فالإنسان الذي يُنكر مالكَ الكون وصاحبه ولا يعترف به فإنه يؤخذ بالنواصي والأقدام ويعاقب، ولا يفيده أي عملٍ أو خدمة قام بها من قبل.

فقد قام أبو طالب برعاية رسولنا ﷺ ثم بحمايته قرابةَ ثمانية وأربعين عامًا، ولكنه -ومع كل هذا- عندما لم يؤمن لم يحصل على الأمان الإلهي.. ولما جَاءَ أبو بكرٍ رضي الله عنه بِأَبِيهِ أبي قُحَافَةَ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيخًا أَعمَى يَومَ فَتحِ مَكَّةَ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**أَلَا تَرَكْتَ الشَّيْخَ حَتَّى نَأْتِيَهُ**؟" قَالَ: أَرَدْتُ يَا رَسولَ اللهِ أَنْ يَأْجُرَهُ اللهُ، أَمَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَنَا كُنتُ أَشَدَّ فَرَحًا بِإِسْلامِ أَبِي طَالِبٍ مِنِّي بِإِسلامِ أَبِي، أَلْتَمِسُ بِذَلِكَ قُرَّةَ عَيْنِكَ، فقَالَ ﷺ: "**صَدَقْتَ**"(٢١)، وذلك لأنَّ أبا بكر كان يعرف مدى رغبة الرسول ﷺ في هذا الأمر، إذ لم ينس موقفه معه وحمايته من المشركين، وقوله له: "اذهبْ يا ابن أخي! فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا"(٢٢)، وقوله:

واللهِ لَنْ يَصِلوا إليكَ بجَمعهِمْ ... حَتى أُوَسَّدَ في التُّراب دَفينا
فاصْدَعْ بأَمرِكَ ما عليكَ غَضاضةٌ ... وابشرْ وَقَرَّ بذاكَ مِنْكَ عُيونا(٢٣).

ثم إن أبا طالب كان قد سلم عليًّا الكرار رضي الله عنه وجعفرًا الطيار رضي الله عنه "بطلَ مؤتة" إلى الرسول ﷺ، أي سلّمهما إلى آمَنِ وأفضلِ يدٍ عرفتها البشريّة، ولكن هل أفادت كلّ هذه الخدمات أبا طالب؟ إن كان ماتَ على الإيمان فسيفيدُه هذا وإلا فلا.

(٢١) البزار: **المسند**، ٢٩٦/١٢؛ الطبراني: **المعجم الكبير**، ٤٠/٩؛ البيهقي: **السنن الكبرى**، ١١١/٧.

(٢٢) ابن هشام: **السيرة النبويّة**، ٢٦٦/١.

(٢٣) البيهقي: **دلائل النبوّة**، ١٨٨/٢.

والقلب السليم بهذا المعنى مهم جدًّا، فقد يؤدي الإنسان أعمالَ برٍّ كثيرة وقد يتصرَّف بشهامةٍ ومروءةٍ ويعطي ويبذل بكرم، ولكن يجب أولًا التأكّد من سلامة القلب وخلوّه من الكفر والشِّرْك.

ويجب ثانيًا أن يُعمَّرَ القلبُ بالإسلامِ ويتزيَّنَ بالأخلاقِ القرآنية، وإلا لم يكن سليمًا.. وسلامةُ القلب تُقاسُ بمدى التخلُّقِ بأخلاقِ الرسول ﷺ، لأنه هو مظهرُ تجلِّياتِ خُلُقِ القرآن والقلبِ السليم، وإلا فلا يَخْدَع أحدٌ نفسَه، ندعو الله تعالى أن يوفقنا إلى اتباع خلق رسوله الكريم ﷺ والتخلّق بأخلاقه.

وإننا على قناعةٍ بأنَّ المؤمنين الذين يخدمون الإسلام اليوم يؤدون عباداتهم وطاعاتهم قدرَ ما يستطيعون، ويُحاولون إعمارَ قلوبهم بذلك، وفي الوقتِ نفسِه كثيرًا ما يُضحون بفيوضاتهم المادية والمعنوية وبلذةِ العيشِ الرغيدِ يحدوهم الأملُ والشوقُ لإحياءِ الآخرين وإسعادهم في الدارين، وإن اجتماعهم على مائدة واحدة ليُعبّر عن محاولتهم تقويةَ العزائم لأداءِ خدمة أفضل، ومن يُنصت لكلامهم يرى أن قلوبهم تنبض بغاية واحدة وهي "إعلاء كلمة الله".. وعند ذلك يتأكد بأنهم هم الأشخاص الذين جاءت البشائر حولهم؛ لأنهم مؤمنون حقيقيون، وهم ضمان انبعاث أجيالنا في المستقبل، وهم أصحاب القلوب السالمة والسليمة.

وإن موضوع القلب السالم والسليم لفي غايةِ الأهمّيّة، ذلك لأن عدة آيات من القرآن وضعت القلب السليم في مقابل المال والبنين ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/٨٨-٨٩).

لا تظنن أنهم في الآخرة يطلبون منك ذهبا أو فضة

إنهم لا يطلبون إلا القلب السليم في هذا اليوم العصيب

إن وضعَك في الآخرة متوقِّفٌ على الأجوبةِ المعطاةِ لكثيرٍ من الأسئلة:

هل عشت بشكلٍ جيّدٍ وعلى الطريقِ الصحيح؟ وانطلاقًا من ذلك: فهل أنهيتَ حياتَك وأنتَ على المسارِ السليم؟ وهل ستُبعَثُ بَعثًا صحيحًا؟ أتستطيع أن تَجِدَ طريقك إلى "لواء الحمد"؟ أتستطيع الوصول إلى "حوض الكوثر"؟ هل تستطيع أن تجعلَ الرسول ﷺ يراك من بعيدٍ ويعرفُك؟ ذلك لأن رسول الله ﷺ صرّح بأنه سيتعرف يوم القيامة على أمته ويميّزُها من بين سائر الأمم، وعندما قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: "**نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ**"[٢٤]، ذلك لأن الرسول ﷺ يعرف مَن ﴿**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ (سورة الفَتْحِ: ٤٨/٢٩)، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ، عَنْ نُعَيْمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّهُ رَأَى أَبَا هُرَيْرَةَ يَتَوَضَّأُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ حَتَّى كَادَ يَبْلُغُ الْمَنْكِبَيْنِ ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ حَتَّى رَفَعَ إِلَى السَّاقَيْنِ، ثُمَّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "**إِنَّ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ**"[٢٥].

وهذا من تجليات ومظاهرِ أصحابِ القلوبِ السليمة.

---

(٢٤) صحيح مسلم، الطهارة، ٣٦؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٣٦.

(٢٥) صحيح البخاري، الوضوء، ٣؛ صحيح مسلم، الطهارة، ٣٥ (واللفظ لمسلم).



معنى كلمة «العدل»

سؤال: ما الذي يجب أن نفهمه من مدلول كلمة "العدل"؟

الجواب: العدل هو التوسُّطُ بين الإفراطِ والتفريطِ، أي هو طريق متوازن بين الإفراط وعدم المبالاة.

والعدل هو استخدام جزءٍ من القابليّات الكامنة في ماهيّة الإنسان في الجهة التي حدَّدها الخالق ﷻ لِتكونَ وسيلةً لِخيرٍ جمٍّ. أجل، فإن وُجِّهَت القوى والقابليات العديدة للإنسان كالشهوة والغضب والوهم والعقل توجيهًا جيِّدًا وسُيِّرت في مسارها الصحيح ظهرَ العدل، أما إن تمَّ الميلُ نحو الإفراطِ أو التفريط فظهورُ الانحرافاتِ محقَّقٌ.

لنتناول الشهوةَ مثلًا فهذه الغريزة في معناها العام هي الشعورُ بالرغبة إلى الأشياءِ التي تؤمِّن استمرارَ حياةِ الفردِ والحفاظ على النوع الإنساني، ومن العواملِ التي يستطيعُ الإنسان أن يحفظَ بها صحَّته ووجودَهُ الجسماني تناولُ الطعام والشراب وما سواهما من الأمور التي تُعَدُّ من جوانب هذه الغريزة، فإذا ما نَظَرْنا إلى هذه الغريزةِ خارجَ هذا الإطار فإما أن نراها عائقًا في الطريقِ الموصِلِ إلى الكمالِ الإنساني ونتجنَّبها تمامًا كما يفعل القساوسة في الكنيسة، وهذا من التفريط وعدم المبالاة، أو أن ننظر إليها بتلك النظرة المنحطَّة التي تُبيح كلَّ العلاقات وتراها مشروعةً دون التزامٍ بقيدٍ أو شرط، وهذا من الإفراط وتجاوز الحدود الذي نراهُ في أيامنا.

والغضب هكذا أيضًا، فيه إفراطٌ وتفريطٌ، إفراط عند من يغضبُ ويثورُ لِأَتْفَه الأمور، وتفريطٌ عند من لا يُحرك ساكنًا وإن أُهينت مقدساتُه وانتُهكت أعراضه ودُنِّس شرفه، أما العدلُ فهو الغضب والثوران أمام الكفر والظلم والجور، وفي المقابل اللجوء إلى الصبر والمسامحة واللين في المواضع التي يمكن أن يؤدي فيها الصبر واللين إلى خير عميم.

والشيء نفسه يحدث في الوهم أيضًا، فتوهُّم ما يستحيل وقوعُهُ والخوفُ منه والقلق عليه إنَّما هو إفراطٌ يُحوِّل الحياة إلى جحيم، أما عدمُ الخوف وعدمُ القلق مما يجب الابتعادُ عنه والخوفُ منه فهو تفريطٌ، فالأول تُسيطر عليه فكرة الخوف من كل شيءٍ في الكون وإسنادُ الألوهية لكلِّ شيءٍ، وهذا ما يُشاهَدُ في منطقة نهر "الغانج"، إذ إنَّ فيها أصنامًا وأوثانًا عديدةً كان الخوفُ والقلقُ وراءَ وجودها، أما الآخر فهو عدم الخوف من أيِّ شيء في الأرض ولا في السماء وهو نوع من الجنون يجرّ صاحبه ومن معه إلى الظلمات، أما العدل فهو اتخاذ التدابير والاحتياطات في الأمور المهمّة ورعايتها، وعدم إعطاء أهمية أكثر مما تستحقّ في بعض الأمور الباعثة على القلق.

ويمكن سردُ الملاحظات المشابهة بالنسبة للعقل أيضًا، فإن إغفالَ المشاهدة ونتاجات الحواس والاعتمادَ على العقلِ فقط إفراطٌ، أما إهمالُ العقل تمامًا والانغماسُ في "فلسفةٍ وضعيَّةٍ *(Positivism)*" مفرطةٍ أو الاعتماد على الضمير فحسبُ وإنكارُ كلِّ شيءٍ وراءه فهو تفريطٌ، ففي الحالة الأولى نَجِدُ مواربات علماء المنطق السابقين

وجدليَّات المادّيين الحاليّين، وفي الثانية نجد وضعيَّة الفيلسوف "أوغست كونت" (١٧٩٨-١٨٥٧م) والروحانية المسيحية.

أما العدلُ في التفكيرِ والعقلِ فهو الوصولُ إلى تراكيبَ جديدةٍ من خلال الاستفادة من نتاجات الحواس والمشاهدات، ومحاولةُ فهم الأشياء التي لا تدخلُ في إطار الحواس والمشاهدة.

أما استقامة العقل فلا تتحقق إلا تحت الأطياف النيّرة للوحي، وعقل يولّي ظهره للنسمات الإلهية محكوم عليه بأن يكون فرعونًا من صنعِ غرورِ فلسفةِ "أرسطو"، أو شخصًا عاجزًا محصورًا بين جدران الكنيسةِ كذبابةِ الشتاءِ.

وكما أن العدل أساسٌ في الحواسِّ التي نملكُها؛ فهو أساسٌ أيضًا في جميع الأمور التي كُلِّفْنا بها، ومن جملةِ هذه الأمورِ الاعتدال في العقيدة، وفي المقدمة التصديقُ بوجودِ الله واتِّصافه بجميع صفات الكمالِ وتنزيهُهُ عن أيِّ نقص، وكما أن إنكارَ وجودِه وعدمَ الاعتراف بصفات كمالِه يُعَدُّ إلحادًا وتعطيلًا؛ فكذلك يُعَدُّ الاعتقادُ بأن الله "جسمٌ وجوهرٌ ومؤلَّفٌ من أعضاء ويشغلُ حيّزًا في المكان" تشبيهًا وكفرًا، أما الاعتقاد بأن الله موجود ويتصف بجميع صفات الكمال وهو منزَّهٌ عن الجسمِ والجوهرِ والأعضاءِ والآلات، وهو فوق الزمان والمكان ومستغنٍ عنهما فهو عدلٌ وطريقٌ وسطٌ بين الانحرافَين السابقين.

ويمكن تناول المسائل الأخرى للعقيدة على نفس المنهج، فمثلًا يعدّ من الجبرِ القولُ بـ"أن الإنسان لا يملك قدرة ولا مشيئة ولا إرادة"، كما يعدّ من قبيل الإراديّة المفرطَةِ القول بـ"أن الإنسان

هو صانعُ وخالقُ كلِّ ما يصدُرُ عنه من أمور"، والقول الوسط هو قبول الإرادة الإنسانيّة كالشرط العادي ولكن على أساس أن الله تعالى خالق كلِّ شيء، فهذا هو العدل.

إننا نشاهدُ موضوعَ العدلِ في الحياةِ العمليّة أيضًا، فالعدلُ هنا قبلَ كلِّ شيءٍ هو تناولُ جميعِ شؤوننا بوجهٍ عام في إطارٍ من التوازن بين الروح والجسد، وبين الدنيا والعقبى، فإن كانت الجسمانيّة بعيدة عن الحياةِ القلبيّة وعن الآخرة فهي مادِّيَّةٌ مُفْرِطَةٌ، أما الحياةُ الروحيّة القائمةُ على إنكارِ الجسد فهي تفريط، أما التوازنُ بين هذين الأمرين فهو الطريق المستقيم.

فإن كانت اليهودية تمثل أحد هذين الأمرين أو الأساسين؛ فإن النصرانية تمثِّلُ الأمرَ أو الأساسَ الآخر، فمثلًا نرى في الدين اليهودي إن قُتل إنسان عمدًا فيجب قتلُ القاتلِ حتمًا[٢٦]، أما في المسيحية فيجب العفو عن القاتل[٢٧]، هنا نجدُ إفراطًا في أحدهما وتفريطًا في الآخر، أما العدلُ فهو تطبيق القصاص مع الاحتفاظ ببابِ العفوِ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيه شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْه بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة البَقَرة: ١٧٨/٢)[٢٨]، ومن الممكن إظهار ذلك في الحياة العملية والنظرية.

(٢٦) انظر: العهد القديم، الخروج الباب ٢١، الآية ١٣-١٤؛ اللاديون الباب ٢٤، الآية ١٧-٢٢.

(٢٧) انظر: العهد الجديد، إنجيل متى الباب ٥، الآية ٣٤-٤١؛ إنجيل لوقا الباب ٦، الآية ٢٧-٣٦.

(٢٨) انظر أيضًا: سورة المائدة: ٤٥/٥، سورة الإسراء: ٣٣/٧.

أمـا العدالة الاجتماعية التـي كثيرًا ما طُرِحَت وأصبحت موضوع السـاعة في أيامنا الحالية فهي جزءٌ فقط من مفهوم العدالة المنعكِس علـى الجانـب الاجتماعي، فكما لا يمكن تصوُّرُ صدورِ إجحافٍ من أناس مستقيمين في الفكر والحياة العملية؛ كذلك لا يمكن أبدًا توقُّـع حدوثِ أيِّ إجحافٍ اجتماعيٍّ وأيُّ بُعد عن العدالة الاجتماعية بينهم.

وربمـا يتسـاءل بعضهـم عن مفهومنـا للعدالـة الاجتماعية، ولكن لا يمكننـا طـرحُ هذا الموضوع على صورةِ سـؤال وجواب، ولا نرى حاليًّا فائدة في تحليل هذه المسألة.



الصديقيّة والشهادة

سؤال: لماذا كانت مرتبة الصديقيين أعلى من مرتبة الشهداء؟

الجواب: الصدّيق هو الذي يتحلّى بصفتي الصِّدقِ والتصديق، أما الشهيدُ فهو الشخص الحاضر والشاهد، ولعل هذه الكلمة أُطلقت على الشهيد لكونه في حضور الله تعالى يعيش حياةً قريبةً من الحياة الدنيوية، وكلتا المرتبتين من المراتب العليا عند الله تعالى.

لقد تسابقَ المؤمنون منذ عصور مع بعضهم البعض من أجل هاتين المرتبتين، ووصل الكثيرون إلى مرتبة الشهادة ولا سيما في عهدِ الصحابة، وقد استشهد ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة العظام، بينما وصل الرابع إلى الدرجة العظمى لمرتبة الصديقية، والآن لنذكر هنا الأمر النسبي في هذا الموضوع، ثم نبحثُ عن خصائص هاتين المرتبتين، هذه الخصائص التي توقِدُ الأشواق في القلوب.

كلُّ إنسانٍ له نصيبٌ في الصدقِ وفي مرتبةِ الصدِّيقيّة حسب مستواه، وهناك أنواعٌ عديدة من الموت تُكسِبُ الإنسانَ مرتبةَ الشهادة حسب العديد من الأحاديث النبوية، ولكن لكلٍّ من هاتين المرتبتين درجة عليا ومنزلة قصوى تُشكِّلُ الحدود النهائية لهما،

أي لا يمكن تجاوزها، لأنه لا يوجد وراءها سوى مرتبة النبوّة، مثلما توجد درجات في الشجرة بدءًا من البذرة وانتهاءً إلى الثمرة، كما أن هنالك درجات مختلفة للإيمان، ومرتبة الصديقية والشهادة تشكلان قفزات كبيرة بين هذه الدرجات، ولهما أبعاد مهمة أخرى.

وكلُّ مَن أقرَّ وقَبِلَ الإسلامَ بلسانِه وصدَّقَ به بقلبِه يكونُ داخلًا من باب الصديقية بوجهٍ من الوجوه بعلَّةِ توفُّرِ تصديقٍ قلبي هنا، ومجرَّد الدخول من عتبة هذا الباب يُكسِبُ الإنسانَ سعادةً كبيرةً، لذا فقد ورد في حديث متَّفقٍ عليه أن لله ملائكةً طوّافين بمجالس الذكر، والذكر هنا لا ينحصر في تسبيح الله، بل هو كل مجلس يتم فيه مذاكرة مسائل الألوهية والربوبية ومسائل التفكُّر والتأمُّل في صنع الله تعالى، بل إنَّ مثل هذا المجلس ليَذخَرُ بالذِّكْرِ والفِكرِ والشُّكر، لذا يجب فهم موضوع الذكر بشكلٍ واسعٍ وشاملٍ، وقد ورد في حديث نبوي شريف:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "**إِنَّ لِلهِ ﷻ مَلَائِكَةً سَيَّارَةً، فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتَّى يَمْلَؤُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ ﷻ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟**

فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الْأَرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ.

قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟

قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ.

قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟

قَالُوا: لَا، أَيْ رَبِّ.

قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟!

قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ.

قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟

قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ.

قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟

قَالُوا: لَا.

قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟!

قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ.

قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا.

قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ.

قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ"[٢٩].

وهكذا فالإنسان الذي دخل في الإسلام بكلمة التوحيد يندرج ضمن هؤلاء القوم مهما كانت درجتُه ومرتبتُه، ومجرَّدُ هذا الدخولِ هو درجةٌ من درجات الصديقيّة، لأننا نرى هنا نوعًا من الإخلاص

(٢٩) صحيح البخاري، الدعوات، ٦٦؛ صحيح مسلم، الذكر والدعاء، ٢٥.

والارتبـاط وإن كان مـن درجـة عامّيـة، ولكـن هناك أيضًـا درجة عليا ودرجـة قصـوى لهـذه المرتبـة يشـغلُها أبو بكـر الصديـق ﷺ، وهناك حادثـة تُـروى عـن سـببِ إطـلاقِ هـذه الصفة عليـه: إذ إنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ عندمـا قـصَّ خَبَـرَ مَـا رَأَى، وَأَنَّهُ في ظرفِ ليلـةٍ وضحاها جَاءَ بَيْتَ الْمَقْـدِسِ وَصَلَّـى فِيـه وعـادَ إلـى مكّـة؛ انقسـمَ النـاسُ مـا بَيْـنِ مُصَفِّقٍ وَمُصَفِّرٍ تَكْذِيبًـا لَهُ وَاسْـتِبْعَادًا لِخَبَـرِهِ، وَطَارَ الْخَبَرُ بِمَكَّـةَ وَجَاءَ النَّاسُ إِلَـى أَبِي بَكْرٍ ﷺ فَأَخْبَـرُوهُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيْه.

فَقَالُوا: وَاللهِ إِنَّهُ لَيَقُولُهُ.

فَقَالَ: إِنْ كَانَ قَالَهُ فَلَقَدْ صَدَقَ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً أَفَلَا أُصَدِّقُهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ(٣٠).

كان أبـو بكـر ﷺ أعظـمَ مصـدِّقٍ علـى الإطلاقِ لِأَكْبَـرِ دعوى في التاريخِ، وارتقى في الصِّدِّيقيّة إلى ذروةِ سنامِها حتى لامَس حدودَها النهائيـة التـي لا يوجـد وراءها شـيءٌ سـوى مرتبة النبوّة، وكلُّ إنسـانٍ يأخـذ مكانـه حسـب مرتبـة إيمانـه وراء أبي بكر ﷺ، وهـذا لا يتمُّ إلا بالانتقـال مـن "علـم اليقيـن" إلى "عين اليقيـن" ثم إلى "حق اليقين"، ومـن وسـائل هذا الانتقال التفكُّرُ في الآيـات التكوينيّة وتأمُّلها بقلبٍ حاضر.

وكمـا ذكرنـا سـابقًا فإن للشـهادة أيضًـا مراتب، فإن تهدَّمَـتْ بنايةٌ ومـاتَ تحتهـا بعـض الناس فـإن المؤمنَ منهـم يُعَدُّ شـهيدًا، ومـع أنه

(٣٠) الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٣/٦٥؛ عبد الرزاق: **المصنّف**، ٥/٣٢١؛ ابن كثير: **البداية والنهاية**، ٣/١٣٧-١٤٠.

"شهيد آخرة" أي: لا يعامَلُ في الدنيا معاملة شهيد؛ إلا أنه يُعَدُّ في الآخرة شهيدًا ويدخل ضمن الذين لهم حقُّ الشفاعة، ومن ذلك المبطونُ والمطعونُ والغريقُ والحريق وأشباهها.

وكما ورد في الأحاديث فإن من مات غريقًا دخل بين هؤلاء الشهداء، وهذا يدلُّ على أن بعضَ الحوادِثِ ترفعُ الإنسان إلى بعض مراتب الشهادة، غير أن هناك ذروة هذه المرتبة وهي للذين يُضَحُّون بأنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الله، وهم مَن تُطلَقُ عليهم صفةُ "شهيد الدنيا والآخرة"، وهناك روايات عديدة تذكر بأن من يعمل صباح مساء في سبيل إعلاء كلمة الله ويدعو الله تعالى مخلصًا أن يرزقه الشهادة يحوز على مرتبة الشهيد وإن ماتَ على فراشه.

وأنا أظن أن عمرَ بن الخطاب ﷺ هو الذي بلغَ أرقى مرتبة في الشهادة إلى جانب مرتبة الفاروقية، فهو المتربِّعُ على عرشِ هذه المرتبة، وقد طلبَ الشهادة طوال عمرِه وذرفَ الدموعَ خوفًا وخشيةً من عدم الوصول إليها، ولقد كانت هذه الخشية واضحةً في خُطَبِه المنبريّة التي ابتدأها بعدَ وفاةِ أبي بكر ﷺ، ولقد كانت كلُّ خطبةٍ من خُطَبِه ﷺ حدثًا مهمًّا، حتى إن عبد الله بن عباس ﷺ (حبرَ الأمة الذي دعا له الرسول ﷺ قائلًا: "**اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**"[٣١]) كان يشد الرحال من مكة إلى المدينة متحملًا عناء السفر لسماع خطبة واحدة لعمر بن الخطاب ﷺ، وكانت معظمُ هذه الخطب تُكتَبُ من قِبَلِ بعضِ المستمعين، لذا ففي أيدينا اليوم خُطَبٌ عديدةٌ له يستنْبِطُ منها العلماء والفقهاءُ أمورًا كثيرة.

(٣١) مسند الإمام أحمد، ٤/٢٢٥.

عن قيس بن أبي حازم قال: خطبَ عمر بن الخطاب ﷺ الناس ذات يوم على منبر المدينة فقال في خطبتِه: إن في جنات عدن قصرًا له خمسمائة باب على كل باب خمسة آلاف من الحور العين لا يدخله إلا نبي، ثم نظرَ إلى قبر الرسول ﷺ فقال: هنيئًا لك يا صاحب القبر، ثم قال: أو صديق، ثم التفت إلى قبرِ أبي بكر ﷺ فقال: هنيئًا لك يا أبا بكر، ثم قال: أو شهيد، ثم أقبل: على نفسه فقال: وأنى لك الشهادة يا عمر! ثم قال: "إنّ الذي أخرجني من مكّة إلى هجرة المدينة لقادِرٌ أن يسوق إليّ الشّهادة"(٣٢).

أجل، نحن أيضًا نطلب الشهادة لأنفسنا، ذلك لأن الله تعالى عندما يعطي بكرمه الواسع لا يعطي حسب اللياقة بل حسب الحاجة، ولأننا محتاجون وندقُّ بابَ كَرَمِه بفقرنا وحاجتنا فإنه لن يرجعنا خائبين، لأنه لم يرجع أحدًا دقّ بابه خائبًا. أجل، لقد طلب عمر ﷺ الشهادةَ بشوقٍ، فأعطاه الله هذه الشهادة في أبهى حِلَلِها وأعلى مراتبها، وسَاقَهَا إِليه على يدِ شَرِّ خَلقهِ، مَجوسيٍّ عبدٍ مملوكٍ للمُغِيرَةِ، كان الوقت فجرًا، وكان عمر ﷺ واقفًا في المحراب، وعندما همَّ بالسجود انغرسَ الخنجرُ الخائنُ في صدره، والآن لنضع هذه الحادثة في صورتها الكاملة:

بدايةً رغبة قوية وشوق.. ثم صلاة من نوعٍ ومستوى صلاةِ عمر ﷺ الذي كان كثيرًا ما يجهشُ بالبكاء فيها حتى ما يستبينُ أحدٌ ما يقرأ، أو تنحلّ عرى ساقيه فيتهاوى إلى الأرض في الصلاة، فكِّروا في سجدة في مثل هذه الصلاة.. ولا تنسوا أن أقربَ ما يكون العبد

(٣٢) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ١٦٣/٩؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٤٠٤/٤٤.

من ربّه وهو ساجد، في هذه اللحظة التي تجمَّعَتْ واكتملت فيها جميع الشروط التي تهيِّئُ الإنسان إلى أعلى ذروة؛ فإنَّ ضربةَ خنجرٍ كفيلةٌ أن تسموَ بالمطعونِ إلى ذروة الشهادة، إنَّ الله تعالى قد قال: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (سورة العَلَق: ١٩/٩٦)، وكان عمر قد سجد، ثم اقترب إلى الحدِّ الذي تستطيعُهُ طاقةُ إنسانٍ غير نبي، لأن خطوة أخرى وراء هذا الحد تُدْخِلُ صاحبَها إلى ساحة النبوة، وإلى هذا يشير النبي ﷺ عندما قال: "**لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ**"(٣٣).

تحت هذه الذروة لمرتبة الشهادة تندرِجُ مراتب كثيرة، فالذين استشهدوا في "بدر" وفي "أحد" وفي "مؤتة" وفي "جناق قلعة" وفي طرابلس أو في أفغانستان أو الفلسطينيون الذين يستشهدون اليوم في كفاحهم ضد الظلم... كل شهيد من هؤلاء الشهداء يشغل مرتبة من مراتب الشهادة هذه.

كما استشهد من الخلفاء الراشدين العظام عثمان وعلي رضي الله عنهما إذ استشهدَ أحدهما وهو يقرأ القرآن، واستشهد الآخر وهو في طريقه إلى المسجد، ويمكن تقييم الفرق بينهما بالوضع الأخير لكل منهم، لذا فإن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بوضعه الخاص كان عظيمًا إلى درجة لا يمكن قياس أحد به، فهو الذي كان يمثل أهلَ البيت، وبهذا الفضل الخاص كان أكبرهم جميعًا، ولكن إن أخذنا الفضل العام بنظر الاعتبار كان أبو بكر رضي الله عنه هو الأول وكان عمر رضي الله عنه هو الثاني.

ومع أنني لا أملك دليلًا موثوقًا على قيام الشهيد بالشفاعة للشهداء، وعلى قيام الصديق بالشفاعة للصديقين إلا أن قلبي يحدثني

(٣٣) **سنن الترمذي**، المناقب، ٥١؛ **مسند الإمام أحمد**، ٦٢٤/٢٨.

بأن هذا كائن، ثم يقوم هؤلاء بالشفاعة لأقربائهم ثم لمعارفهم، أما الذين يملكون هاتين المرتبتين معًا فالمأمول أن يشفع لهم الرسول ﷺ مباشرة.

أما الحديثُ عن الأسرار التي تكتنفُ هذه المراتب فيتجاوزُ طاقةَ شخصٍ مثلي، ذلك لأنه لا يمكن لمثلي أن يشرحَ حال هؤلاء الذين وصلوا إلى ذروة هذه المرتبة، ولا يمكن للآخرين فهم حالهم، لا أقول بأن كلَّ مرتبة من مراتب الصديقيّة أفضل من كل مرتبة من مراتب الشهادة، فالتفاضل بينهما إنما يكون في ذروة كل منهما، ففي ذروة الأولى يوجد أبو بكر رضي الله عنه، وفي ذروة الثانية يوجد عمر رضي الله عنه.

وحتى لا يُساء فهم المسألة هنا نقول: إن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه -وفق مفهومنا- شهيد وصديق، ولكن من حيث الشهادة فالأفضلية لسيدنا عمر رضي الله عنه، ومن حيث الصديقية فالامتياز يكون لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وكذلك الحال بالنسبة لسيدنا عمر رضي الله عنه، فهو من حيث الصديقية يأتي بعد أبي بكر رضي الله عنه، أما من حيث الشهادة فيسبق أبا بكر، أما بالنسبة للأفضلية المطلقة فكما ذكرنا آنفًا فإن أبا بكر رضي الله عنه يأتي في الذروة بعد الأنبياء عليهم السلام.



الحَجر الأسعد

سؤال: هل يمكن أن تزودنا بمعلومات مفصَّلَةٍ عن الحجر الأسعد؟

الجواب: الحجر الأسعد حجر ميمون، كما كلّ أمر تكتنفُه حكمة الله تعالى، فالكعبة بناءٌ نتوجَّه إليه في كلِّ صلاة، غير أن أساسَ توجُّهِنا إنّما هو إلى الله ﷻ استنادًا إلى الآية التي تقول: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**﴾ (سورة البَقَرة: ٢/١١٥)؛ بمعنى أننا نتوجَّهُ لِنَيلِ مرضاةِ الله ﷻ.

وهبَ الله تعالى بعضَ الأماكنِ قدسيَّةً خاصّةً، فمثلًا المسجد الأقصى والمسجد الحرام والروضة الشريفة كلها أماكن مقدَّسة، كما أن ترابَ وأحجار المدينة المنورة التي احتضَنَت النبيَّ ﷺ مقدسةٌ أيضًا، فكم من مريضٍ استعمل هذا التراب بنيّة الشفاء فشفاه الله، والشهود على هذا الأمر آلافٌ، وعلى ذلك فالمدينة المنورة مقدَّسةٌ لوجودِ الرسول ﷺ فيها.

إن مالك الملك هو الله، يتصرَّفُ في ملكِهِ كيف يشاء، وكما رفع الله قدرَ الإنسان على جميع الحيوانات فقد قدّم سيِّدَ الكونين محمدًا ﷺ على الجميع حتى على الملائكة ورفع قدره عليهم، وهو يفعل

ما يريد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/٢٦).

فالله ﷻ هو من رفع قدر حجرٍ بعينِه دون حجر، واعترف المؤمنون بقدسيّة هذا الحجر، فما علينا إلا أن نوقّرَ ما شرَّفه الله، لا أن نعرفَ الأسرارَ والأنوار التي عكسها الله عليه.

كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا خَطَبَ يَسْتَنِدُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ من سَوَارِي المسجِدِ، فَلَمَّا صُنِعَ الْمِنْبَرُ وَاسْتَوَى عَلَيْهِ، اضْطَرَبَتْ تِلْكَ السَّارِيَةُ وحنَّت كَحَنِينِ النَّاقَةِ حَتَّى سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ، حَتَّى نَزَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ فَاعْتَنَقَهَا فَسَكَتَتْ[٣٤]، فلقد صار هذا الجذعُ مباركًا باستلام رسول الله له، واستحق أن يكون شجرةً من أشجار الجنة، وكذلك كلبُ أصحاب الكهف كافأهُ الله لحسنِ صحبته لأهل الكهف، وكما جاء في بعض الأحاديث ستفتح له أبواب الجنة ويدخلها بالأصالةِ عن نوعه.

أما بالنسبة للحجر الأسعد فوفقًا لما جاء في بعض الروايات التي نُقلت إلينا فهو ذلك الحجر الذي جاء به الخليل إبراهيم عليه السلام من جبل أبي قبيس عندما أرادَ أن يبنيَ الكعبة واستخدمه كسِقالةٍ يصعدُ عليها، وبِه استطاعَ أن يرفعَ قواعدَ البيت[٣٥].. فهذا حجرٌ وَطَأَهُ الخليلُ إبراهيمُ بِقَدَمَيهِ، وأعزَّهُ الله بالقدسيَّةِ التي وهَبَها لهُ.

(٣٤) صحيح البخاري، الجمعة، ٢٤؛ سنن النسائي، الجمعة، ١٧ (واللفظ له).
(٣٥) انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ١/٦٥.

وهنـاك روايـات تقـول بأنه حجرٌ من الجنّة، وقـد يكون نَيْزَكًا نزلَ من السماء، أو حجرًا سماويًا، وقد حظي هذا الحجر بهذه القيمة لأنه وصَلَنـا من عالم علـوي خاص بالملائكة، وأيًّا كانت طريقة الوصول فلا يؤثِّرُ ذلك في وضعه الحالي، وأيًّا كان فهو حجرٌ مقدَّسٌ بالنسـبة لنا، وما سـمَّيناه حجرًا إلا لأنّه تعذَّر علينا أن نعبّر عنه بكلمة أخرى، ولو أن هناك كلمةً مناسـبةً للتعبيرِ عن ماهيَّتِه بشـكلٍ أفضل لذكرناها، فالأدب يقتضي منا ذلك.

وبمـرور الزمـن تفتَّـتَ هـذا الحجرُ إلـى قِطَعٍ نَقَلَ بعـضُ الحكّام المسلمين جزءًا منها إلى بلدان متعدِّدَةٍ، أما الجزءُ المتبقِّي منها فيقـع الآن في ركنٍ من أركان الكعبة المشـرّفة، وسـتظل إن شـاء الله مكانها إلى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومن عليها.

وهـذا الحجـر ينطوي على أسـرار عدة، وتكتَنِفُـهُ كثيرٌ من الحِكَم الرقيقـةِ التـي لا سـبيلَ إلـى معرفتِهـا، وقد بيَّنَ النبـيُّ ﷺ في حديثٍ له أنَّ هذا الحجرَ سَيَشْهَدُ علينا يوم القيامة(٣٦) كيف هذا؟ قد لا نستطيـع في الوقت الراهن أن نثبت هذه المسـألة بالتحليلات العلمية، ولربما يرجـع ذلـك إلـى أن التقنيـة الحديثة ليسـت كافيةً لفهـم ذلك، إلا أن هنـاك عجائـب نشـاهدها الآن تؤيِّـدُ رأيَنـا فـي هـذا الصَّـدَدِ؛ فمثلًا إن كان الكلام الصادرُ من الإنسـان الذي تكوّن من مواد جامدة أعجوبة من الأعاجيب فشـهادة الحجر الأسـود أعجوبةٌ أيضًا. أجل، إن كلامَ الإنسانِ أعجوبةٌ من حيث الأساس، غير أن الإلف والعادة قد أنسانَا تلـك الأعجوبـة التـي خصَّ الله بها الإنسـان، وإذا كان للإنسـانِ الذي

(٣٦) انظر: صحيح ابن خزيمة: ٤/٢٢٠؛ صحيح ابن حبان: ٩/٢٦.

هو من خلقِ الله ذاكرةٌ قويّة يمكِنُها الاحتفاظُ بكمٍّ هائلٍ من المعلومات، فمن الطبيعيّ للغايةِ أن يقومَ الحجرُ الأسعدُ -الذي هو من خلْقِ الله- بالشهادة أيضًا.

فقد يمكن لهذا الحجر أن يسجل صُوَرَ وأصواتَ كلّ من استلموه على هيئةِ آلافٍ من شرائط الفيديو، وهذه الصورُ والأصواتُ تغدو شاهدةً علينا يوم القيامة.

وماهية هذا الأمر -أيًّا كانت وعلى أي شاكلةٍ كانت- ليسَتْ مهمّة بالنسبة لنا، فلو وضعت قطعة خشبية هناك ونالت القدسية نفسها التي وُهِبَتْ للحَجَرِ الأسعدِ لاستلَمْناها كذلك بكل توقيرٍ واحترام، ولتعاملنا معها كما نتعامل مع هذا الحجرِ؛ لأننا نتعبَّدُ بامتثالِ الأمرِ الإلهي، وإننا إذ نفعل ذلك لا نلتمس من الحجر شيئًا، بل نُحيلُ النتيجةَ إلى الله، وكلُّ ما نرجوه هو من رحمته الواسعة وقدرتِه وعلمِه المحيطِ.

وكان سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ عندما يقبّل الحجر الأسعد يقول: "وَاللهِ، إِنِّي لَأُقَبِّلُكَ، وَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، وَأَنَّكَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبَّلَكَ مَا قَبَّلْتُكَ"(٣٧)، ولقد استدرَكَ الحاكم على هذا الحديثِ الصحيحِ في مستَدْرَكه فروى أنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عندما سَمِعَ مقولة عمر للحجرِ قال: بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ، وذلك بِكِتَابِ الله ﷻ، فقَالَ عمر: وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللهِ؟ قَالَ: قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى**﴾

(٣٧) صحيح البخاري، الحج، ٥٠؛ صحيح مسلم، الحج، ٢٤٨، ٢٥٠.

(سورة الأعْرَافِ: ٧/١٧٢)، فلقد خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَمَسَحَ عَلَى ظَهْرِه فقَرَّرَهُمْ بِأَنَّهُ الرَّبُّ، وَأَنَّهُمُ الْعَبِيدُ، وَأَخَذَ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ، وَكَتَبَ ذَلِكَ فِي رَقٍّ، وَكَانَ لِهَذَا الْحَجَرِ عَيْنَانِ وَلِسَانٌ، فَقَالَ لَهُ افْتَحْ فَاكَ؛ فَفَتَحَ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ ذَلِكَ الرَّقَّ وَقَالَ: اشْهَدْ لِمَنْ وَافَاكَ بِالْمُوافَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنِّي أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: **"يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، وَلَهُ لِسَانٌ ذَلْقٌ، يَشْهَدُ لِمَنْ يَسْتَلِمُهُ بِالتَّوْحِيدِ"** فَهُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَعِيشَ فِي قَوْمٍ لَسْتَ فِيهِمْ يَا أَبَا حَسَنٍ[٣٨].

والله أعلم بالصواب.

(٣٨) الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ١/٦٢٨.



ما هو الأدب؟

سؤال: ما هو الأدب؟ وما معنى أن يكون الإنسانُ مؤدَّبًا؟ وكيف ومع مَن يجب أن نتأدَّب؟

الجواب: الأدب يعني الاحترام والتوقير، ويأتي أحيانًا بمعنى التربية أيضًا.

والأدبُ هو سجيّة أخرى تنالُها الروحُ بفضلِ المبادئ الدينيّة، وبمعنى أوسع هو استقرار يتحقَّقُ للروحِ بامتزاجِها مع الدين، لكن ليسَ كلّ دِين يجعل الإنسانَ مؤدّبًا مهذّبًا، الإسلام فقط هو ما يجعله كذلك، ونحن إذا ما ذكرنا الدين فإننا نعني بذلك دين الإسلام.

والأدبُ في الوقت ذاته عنوانٌ للوصول إلى مرتبة الإحسان؛ يعني القيام بالتكاليف التي أُمرنا بها مستشعرين مراقبةَ الله لنا، والتعامل مع الآخرين وكأننا نرى ربنا، وهذا أيضًا هو شعور الإحسان في مراتب الأدب.

والأدب بالمعنى الأخصّ هو اتّباع النبي ﷺ في أفعاله وتصرُّفاته فضلًا عن الفرضِ والواجبِ، والعمل على توفيقِ وتناسُبِ حياتِنا مع معطياتِ حياته صلوات ربي وسلامه عليه.

وقديمًا قال الأجدادُ حول الأدبِ كلماتٍ نفيسة كحبَّات الجوهر:

الأدب هو لباس دائم للإنسان

ومن لا أدب له يشبه العريان

الأدبُ تاجٌ من نور الله الوضَّاءِ

فتقلَّدْ تاجَ الأدب تأمنْ من كلِّ بلاء

فأهلُ العِلْمِ لا يستغنون عن الأَدَبِ أبدًا

فليَس سَيِّئُ الأدَبِ بعالِمٍ وإن درَس من العلوم عددًا.

وارتباطُ العلم بالأدب لأنه وكما قال يونس أمره:

العلم هو أن تعرف

أن تعرف نفسك

فإن لا تعرفها

فالعفاء على ما قَرأْتَ.

إن سيدَنا رسولَ الله ﷺ هو من بلـغَ ذروةَ الكمالِ في الأدب، ولا فـرقَ فـي أن نتناول هذه المسـألة بمعنـى التربية أو بمعنى القدرة على الـكلام والخطـاب عنـده ﷺ، فالنتيجـة واحـدة؛ فرسـول الله ﷺ يتربَّـعُ على الذروةِ دائمًا.

ذات يوم يسـأله سـيدنا أبو بكر ﵁: من الذي أدّبك يا رسـول الله؟ فيجيبه ﷺ قائلًا: **"أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي"**[٣٩].

(٣٩) القاضي عياض: **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، ٢/٧١٦.

ثم يسـألون زوجه السـيدة عائشـة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ ابنة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأمنا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بل وإلى أبد الآبدين: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِيـنَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، قَالَـتْ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَـا تَقْـرَأُ الْقُـرْآنَ، قَـوْلَ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّــكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٦٨/٤)"(٤٠).

وعلـى ذلـك فإن النبي ﷺ الـذي رباه ربه يتبوَّأ أعلى نقطة في أفق الأدب، بمعنـى أن مـن يريـد أن يتعلَّـمَ الأدب عليـه أن ينظـر إليـه ﷺ؛ فهو المرآة العظيمة التي تُجسِّـدُ الأدبَ انعكاسًـا، وأن يشـاهدَ الأدبَ في تلك المرآة بما يتوافق مـع قامتِه.

لقـد خلقه الله على أدبٍ يتأسَّـى به الخلـقُ أجمعون، وأدّبه وربّاه، وإلا فكيـف كان يُطيـق حمـل عـبءٍ كبيـرٍ مثـل النبـوة، فـإن لـم يحظَ رسول الله ﷺ بهذه التربية، أو لو افتَرَضْنا المستحيلَ فقلْنا: لو ارتكبَ أخطـاءً مثلنـا، فإن هذه الأخطاءَ لن تنحصرَ عليه وحده، بل سـيتعدى أدنـى خطإٍ منـه إلـى ملاييـن مـن النـاس، ولـذا ربّاه ربُّـهُ تربيـةً خاصّةً وجعلَه أسوةً وقدوةً لنا.

وقد كان النبي ﷺ متحليًا بذلك الأدب قبل البعثة، شارك النبي ﷺ فعليًّا في بناء الكعبة قبل بعثته، كان هذا دأبه ﷺ طوال عمره يسعى في أعمال الخير ويحض الناس عليها، عن جَابِر بْن عَبْدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا بُنِيَـتِ الكَعْبَـةُ، ذَهَـبَ النَّبِـيُّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلاَنِ الحِجَـارَةَ، فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِـيِّ ﷺ: اجْعَـلْ إِزَارَكَ عَلَـى رَقَبَتِـكَ يَقِيـكَ مِـنَ الحِجَـارَةِ، فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ وَطَمَحَـتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّـمَاءِ، ثُـمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: "**إِزَارِي إِزَارِي**"

(٤٠) مسند الإمام أحمد، ١٤٨/٤١.

فَشَدَّ عَلَيْه إِزَارَهُ[٤١]، ومن يومها لم يكشِفْ رسولُ الله ﷺ عن موضعٍ لا تليقُ رؤيتُهُ.. وهكذا كان رسول الله ﷺ في حفظِ الله ورعايته حتى في مرحلة ما قبلَ النبوة.

ويتحدث رسول الله ﷺ عن مظاهر حفظِ الله له من نزعات الشباب ودواعيه قبلَ النبوَّة؛ فيقول ﷺ: "**مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا يَهُمُّ بِه أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللهُ مِنْهُمَا، قُلْتُ لَيْلَةً لِفَتًى كَانَ مَعِي مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي غَنَمٍ لِأَهْلِنَا نَرْعَاهَا: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِه اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ، قَالَ: نَعَمْ، فَخَرَجْتُ، فَلَمَّا جِئْتُ أَدْنَى دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ غِنَاءً، وَصَوْتَ دُفُوفٍ، وَمَزَامِيرَ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: فُلَانٌ تَزَوَّجَ فُلَانَةَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَهَوْتُ بِذَلِكَ الْغِنَاءِ، وَبِذَلِكَ الصَّوْتِ حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَنِمْتُ فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ فَعَلْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجْتُ، فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لِي: مِثْلُ مَا قِيلَ لِي، فَسَمِعْتُ كَمَا سَمِعْتُ، حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ لِي: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَوَاللهِ، مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى أَكْرَمَنِي اللهُ بِنُبُوَّتِهِ**"[٤٢].

تشير كل هذه الأحداث التي وقعت قبل بعثته ﷺ إلى أن ربنا ﷻ لم يهيّئ الفرصة لرسوله الله ﷺ لارتكاب أيّ ذنبٍ طيلةَ حياتِهِ، وهذه طبيعة استثنائيّة خاصّة برسولنا ﷺ.

(٤١) صحيح البخاري، المناقب، ٨٥.
(٤٢) صحيح ابن حبان، ١٤/١٦٩.

وكيف لا، وهو الذي شُقّ صدره في طفولته (وإنني أستحيي أن أقول طفلًا على رسول الله وهو الذي كان يتحلى بالكمال منذ ولادته)، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ "أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ"(٤٣).

أجل، لقد انتُزِعَتْ من صدر نبينا ﷺ تلك النقطةُ السوداء الكائنة لدى كل إنسان والتي هي هدف للعديد من سهام إبليس المتنوِّعة، فلم يستطع إبليس اللعين الذي يوسوس لنا ويجري مجرى الدم في عروقنا أن يقتربَ من دائرتِه أو يحوم حولها، فقد كان ﷺ بشرًا وليس كالبشر.

وكما صرفه الله ﷻ عن ارتكاب الذنوب قبل بعثتِه صرفه أيضًا عنها فيما بعد، فعاش حياةً طاهرةً صافيةً، ورحل عن الدنيا مثل اليوم الذي ولدته فيه أمه، ولقد كان مثالًا للأدَبِ تجسَّدَ فيه أحسنَ تجسيد.

لقد أحاط الأدب بحياته كلها، فكيفما وحيثما تحرَّكَ كان الأدبُ يلازمه، فمثلًا: أحيانًا ما كان رسول الله ﷺ يغضبُ ويحتدُّ، فيُصبِحُ كالبحرِ الهائجِ الذي ترتفعُ أمواجُه إلى عنان السماء؛ ورغم ذلك كان غضبُه في ذلك الموقف أدبًا؛ لأنه موقف وقع فيه ظلمٌ على إنسان ما، وهو صلوات ربي وسلامه عليه ألد أعداء الظلم، كان يزمجر غضبًا لا يهدأ حتى يؤدِّي الحقَّ إلى صاحبه، كان في تلك اللحظة يُشبهُ الأُسودَ التي ترجُّ الغابات بصيحاتها، ومع ذلك لم يُرْوَ

(٤٣) صحيح مسلم، الإيمان، ٢٦١.

عنه أنه ﷺ امتعضَ وجهه أو غَضِبَ لنفسه قطّ، وفعله في هذه الحالة كان أدبًا يستلزم هذا الفعل.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: "كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْه بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ به حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْه فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ"[٤٤].. يا لحلمه الكبير وصفحه العظيم!

وهناك مواقف عدة يغضب فيها حتى النخبة من الناس ويُعذَرون في غضبهم هذا، ورغم ذلك كان ﷺ في هذه المواقف يشعُّ كالشمس بأدبٍ جمٍّ، ومن أكثر الأمثلة اللافتة للنَّظَرِ في هذا الصدد:

كان رسول الله ﷺ قبل غزوة أحد يفضِّلُ البقاء في المدينة والدفاعَ عنها بسبب رؤيا رآها قبل الخروج إلى أحد، ورؤياه ﷺ وحيٌ، فقد كان يرى مثل هذه الرؤى في الستة أشهر الأولى من بعثته صلوات ربي وسلامه عليه، وكان ما يراه في منامه يتحقق يقظةً كفَلَقِ الصبح، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ به رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ"[٤٥].

قبل الخروج إلى أحد رأى رسول الله ﷺ رؤيا قام بتأويلها مستنبطًا منها أن أحد أقرب أقاربه سيستشهد في هذه المعركة، وأن الخروج سيتمخَّضُ عنه تصدُّعٌ بين صحابته.

(٤٤) صحيح البخاري، الأدب، ٦٨؛ صحيح مسلم، الكسوف، ١٢٨.
(٤٥) صحيح البخاري، بدء الوحي، ٣؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٢٥٢.

أصرَّ على عدم الخروج من المدينة بدايةً، لكن الصحابة ﷺ كان يحدوهم الانفعال والشوقُ إلى قتال الأعداء حتى إن صِدْقَهم وتشبُّعَهم بفكرةِ خدمةِ الإسلامِ حالَ دون استيعابِ مسألةِ الدِّقَّةِ في امتثالِ الأمر. أجل، لا يمكن التعبير عن صنيعهم هذا بأيِّ شكل آخر، فانطلقوا في الطريق مسرعين مقدمين على الموت، لا سيما وأن منهم من كانَ يغلي كالمِرجَلِ همًّا وغمًّا بسببِ عدم مشاركته في غزوة بدر مثل أنس بن النضر، فأضحوا كالسيف الذي انسل من غمده، وأصروا على الخروج متوسِّلين متضرِّعين.

وهنا أيضًا نشاهد أدبًا فريدًا من الآداب الاجتماعيّة لسيدنا رسول الله ﷺ؛ حيث جلس ﷺ مع صحابته واستشارَهم، ولم يصرّ على رأيه ما دام هناك رأيٌ تُرجِّحُهُ الشورى، وهذا أدبٌ وظَرَفٌ من القائد، لو أصرَّ فلا ريبَ أنهم سيُطيعونه، إلا أنَّ مخالفتَهم له ولو قدر أنملة قد يُفضي إلى هلاكهم، وعلى ذلك راعى النبي ﷺ هذه المسألةَ الدقيقةَ؛ لأنه في الوقت ذاته هو صرحُ الشفقة، ولذا حرص على ألا يتعرَّضَ أصحابُه ﷺ للخسران بمخالفتهم له، ومن ثم نزلَ على القرارِ الذي ارتأَتْهُ المشورة الجماعيّة، وبعد أن لبِسَ لأمَةَ الحربِ وتجهَّزَ للخروجِ راجعَ الصحابةُ أنفسَهم وأرادوا أن يرجعوا إلى رأي رسولِ الله ﷺ، ولكن بعد فوات الأوان فَقَالوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، شَأْنَكَ إِذًا، فَقَالَ: "**إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ**"[٤٦].

سار المسلمون إلى أحد، وصفَّ النبيُّ ﷺ الجيشَ بنفسِهِ، ونظَّمه أيَّما تنظيم؛ إذ إنّه ﷺ أركانُ حربِ هذه المعركة، فما أن دارت رحى

(٤٦) مسند الإمام أحمد، ٢٣/١٠٠.

المعركة حتى بدأت صفوف العدو بالاضطراب، وشرَعَت جحافلهم بالفرار، غير أن المسلمين خالفوا الإستراتيجية التي وضعها رسول الله؛ بمعنى أنهم لم يراعوا تمامًا مسألةَ الامتثال لأمر رسول الله، فقد شدَّدَ النبي ﷺ على الرماة قائلًا "**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**"[٤٧]، فلم يستطع الرماة أن يستوعبوا هذه المسألة، وربما قالوا في أنفسهم: "إن أمر رسول الله ينحصر في المدة التي تتخللها حربه مع المشركين، وهم الآن أي الأعداء يبحثون عن مفرٍّ، ومن ثم فوجودُنا هنا عبث، فلنذهب ونُعاوِنْ أصحابَنا".

والنتيجة معروفة لدى الجميع؛ فقد قُطِّع تسعةٌ وستُّون شخصًا كما يُقَطَّعُ اللحمُ على جذعِ الشجرة ووقعوا شهداء، وكان من بينهم سيِّدُ الشهداءِ حمزة ﷺ، في الواقع ما نجا أحدٌ من ضربةٍ بسيفٍ أو طعنةٍ برمحٍ، وظلَّ بعضُهم يُعاني طوال عمره من الجروح التي أثخَنته، لكن المصيبة الأدهى هي انكسارُ كرامة الإسلام، وهذا كان أعظم الجروح بالنسبة للمسلمين.

حقيقةً إن ما حدَثَ قد يُغضِب أيَّ إنسانٍ في وضعِ قائدِ الجماعة، ومن الطبيعيّ أن يغضَبَ ويتضجَّرَ رسولُ الله ﷺ مما فعلَهُ الرماةُ، ولكن الله تعالى لم يهيِّئْ له الجوَّ لاحتماليّة وقوع هذا الغضبِ منه في المستقبل، وحفظه ورعاه وخاطبه قائلًا: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ**

(٤٧) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ١٦٢.

لَهُمْ وَشَـاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٥٩).

كان إنسـانًا مهذبًا حتى إن ربنـا ﷻ لم يخاطبه بقوله: لا تكن فظًّا أو غليظَ القلـب، ولكـن قال له: "وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ" بمعنى أنـك لسـت كذلك.. ولو افترضنا المحـالَ وكنتَ هكذا؛ لانْفضُّوا من حولك، ولذا عامِلْهم بأدبِكَ العالي، وأَلِنْ جانِبَكَ معهم.

وهكذا كان الحق ﷻ يحول دون وقوعِ أيِّ ذنبٍ منه ﷺ، ويصرف حبيبَهُ عـن الذنـوب، والسـؤالُ هنـا: لأجـل مَـنْ يفعل الحقُّ هـذا؟ إنّه لِأَجْلِ ذلك الإنسـان الذي سَـيُمَثِّلُ أمَّةً في المسـتقبل، وكان ﷺ أيضًا يراعي الدقَّةَ في امتثاله لأمر القرآن حتى زالت وتلاشت عنه الأفكار السيئة التي يمكن أن تراوده في المستقبل.

ولـم ينتـه الأمـرُ بذلك، بل قالَ لـه: "فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ"؛ لأنـه ينبغـي لهم أن يتجنَّبـوا الأمورَ التي تُقَلِّلُ مـن قدرِهم وعَظَمَتِهم، ولذا قال الله لنبيِّه: "وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ".

فضلًا عن ذلك وقـعَ في أنفسِهم أنهم مجرمون لمخالفتِهم أمرَك، وطالمـا يشـعرون بذلـك سـيعتبرون أنفسَـهم مجرمين، ولـذا فادْعهم وشاوِرْهم في الأمر من جديد وكأن شيئًا لم يحدث.

وهكـذا نـرى ربَّنَـا ﷻ يوجِّـهُ نبيَّه ﷺ إلى اتِّخاذ هذا الأسـلوب في أحـرجِ الأوقات وفي مرحلةٍ تسـتدعي الصيـاحَ والصراخَ، حتى يمنعَهُ من اقترافِ ذنبٍ يمكنُ أن يحدثَ في المستقبَلِ ويعلِّمَهُ أعلى وأرقى درجات الأدب، وعلى مثل ذلك الأدبِ تأدَّبَ رسول الله ﷺ.

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا"، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: "**يَا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**" قَالَ قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ أَنَسٌ: "وَاللهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ، مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا"[٤٨].. فلقد تخلَّقَ ﷺ بأخلاق الله، وأمر أمته أن تتخلق بالأخلاق نفسها.

ثمة مصدران رئيسان ستتعلم من خلالهما هذا هما: الكتاب، والسنة التي تتضمن أفعال الرسول وأقواله وتقريراته.

فلو أن الأدبَ هو حياته السنية النورانيّة -التي هي أعظم تَرِكَةٍ لنا منه- وما فيها من فرضٍ وواجبٍ وسنَّةٍ ومباحٍ؛ فمن الضروري أن نتأدَّبَ بأدبه ﷺ، ولا ريب أن التأدُّبَ بالفَرْضِ فرضٌ والتأدب بالواجب واجبٌ والتأدُّبَ بالسنة سنةٌ والتأدُّبَ بالمباح مباحٌ؛ لأن الله ﷻ قد أرسلَه إلينا ليعلِّمَنَا الحياة، وبالفعل تعلَّمْنا منه ﷺ أَدَبَ المأكَلِ والمشرَبِ وقضاءَ حاجيّاتِنا الفطريّة، ومن الممكنِ دراسةُ أحاديثِه ﷺ من الناحيةِ الطبِّيَّةِ، إلا أن هذا موضوعٌ مختلِفٌ ومستقلٌّ، وحتى لا نشتِّتَ الموضوعَ لن نتطرَّقَ إلى هذه الناحية من المسألة، أما المسألةُ التي لا بُدَّ من التوقُّفِ عندها هنا فهي الآداب التي علَّمَنَاها النبي ﷺ.

(٤٨) **صحيح مسلم**، الفضائل، ٥٤؛ **سنن أبي داود**، الأدب، ١.

فإن راعينا هذا الأدبَ حقَّ الرعاية ونظمْنا حياتنا الفردية والأسرية والاجتماعية وفقًا لهذا الأدب فإننا نكون بذلك إلى جانبِ تطبيقِنا القرآن في حياتنا قد أجَبْنا على شقٍّ من السؤال القائلِ: كيف نتأدَّب؟ ومع من يجب علينا أن نتأدَّبَ؟

فالصحابة كانوا محترمين للغاية ومؤدّبين جدًّا مع سيدنا رسول الله ﷺ، حتى إنّهم عندما كانوا يجلسون لسماعِه يجلسونَ وكأنَّ على رؤوسهم الطير، كانوا يسمعونه في دقّة واهتمامٍ وكأنّهم لا يُريدون أن تفوتهم أيُّ كلمةٍ تخرج من فمِه الشريف ﷺ، وكانت كلما زادت معرفتُهم به ترسَّخَ احترامهم النابعُ من هذا الحبِّ، واكتسب توقيرهم له عمقًا وفقًا لمستوى التعرُّفِ به.

كان لا يجرؤ معظمُهم على سؤاله مباشرةً، بل كانوا يتمنَّون أن تواتيهم الفرصةُ فيغترفوا من فيضِ حديثه وهم يسمعون جوابَهُ ﷺ على سؤالٍ يطرحُه رجل غريبٌ أتاه من الخارج؛ كانوا يترقّبون هذه الفرصة بفارغِ الصبر، قليلٌ منهم من حدّثَ النبي ﷺ بكلماتٍ دون تلعثُم، وهذا لا ينبعُ من ضغطِه ﷺ عليهم، بل ربما من وقارٍ وجدّيةٍ ومهابةٍ تتعلّق بشخصيتِه المباركة ﷺ.

ولما رأى عروة بن مسعود تعظيمَ وتوقيرَ الصحابة لرسول الله ﷺ أثناء صلح الحديبية تعجَّبَ وتحيَّرَ، ثم رجع إلى قومه في مكة وقال لهم: "أَيْ قَوْمِ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ،

وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْه النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ"(٤٩).

وهكذا نرى بين هؤلاء الصحابة الكرام قلوبًا تفيض احترامًا وتوقيرًا لسيدنا رسول الله ﷺ، بل كانوا يقفون على بابه وكأنهم خدام له.

وإنَّ الداهيَةَ الدبلوماسيّ والسياسيَّ العالميَّ عمرَو بن العاص رضي الله عنه لما حضرَتْه الوفاةُ أخرجَ شيئًا في خوفٍ واضطرابٍ، وقال: ضعوه تحت لساني، فلما سألوه ما هذا؟ قال: هذه شعرات مباركةٌ من لحيةِ رسول الله ﷺ، إذ إنّه كان على يقينٍ بأن الله سيُخفِّف من حسابه إكرامًا لهذه الشعرات.

وخالدُ بن الوليد رضي الله عنه؛ ذلك القائدُ العظيم الذي لم يُهزم قطّ، والذي أعز الله به الإسلام، وكما يقول العقاد: "الداهية الكبير الذي لا مثيل له" لما وقعت العمامة من فوق رأسه وتدحرجَتْ على الأرض في إحدى المعارك ترجَّلَ عن فرسِه وجَعَلَ يَسْتَحِثُّ فِي طَلَبِهَا فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: "إِنَّ فِيهَا شَيْئًا مِنْ شَعْرِ نَاصِيَةِ رَسُولِ الله ﷺ، وَإِنَّهَا مَا كَانَتْ مَعِيَ فِي مَوْقِفٍ إِلَّا نُصِرْتُ بِهَا"(٥٠). نعم، لقد نفذَ النبي ﷺ بهذه الدرجةِ إلى أرواحهم.

كانوا يقومون له ﷺ عند مجيئه، ولا يجلسون إلا بعد جلوسِهِ، لا ريبَ أنه لم يطالبهم بذلك، ناهيك عن الطلبِ؛ بل إنّه حذَّرَهم من ذلك، كما جاء عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا فَقُمْنَا إِلَيْه فَقَالَ: "**لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ، يُعَظِّمُ**

(٤٩) صحيح البخاري، الشروط، ١٦.
(٥٠) ابن كثير: البداية والنهاية، ١١٣/٧.

بَعْضُهَا بَعْضًا"[٥١]، غير أن الصحابة كانوا يقومون له كل مرة طَوعًا وحبًّا، ويعتبرون هذا واجبًا.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَدْ لُطِمَ وَجْهُهُ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الأَنْصَارِ لَطَمَ فِي وَجْهِي، قَالَ: "ادْعُوهُ" فَدَعَوْهُ، قَالَ: "لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟" قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي مَرَرْتُ بِاليَهُودِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، فَقُلْتُ: وَعَلَى مُحَمَّدٍ، وَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ فَلَطَمْتُهُ، قَالَ: "**لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**"[٥٢].

وعندما خاطبه الحق ﷻ قائلًا: "وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ" قال: "**مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**"[٥٣] حتى لا تراود أحدًا فكرةٌ لا تليق بمقامِ أيِّ نبيٍّ من الأنبياء.

هكذا كان أدبه وتوقيره للأنبياء جميعًا، ولا يعلم قيمة الجوهر إلا الصائغ، فإذا أردنا أن نعرف أو نتعرف على سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام فعلينا أن نسأل في ذلك النبي ﷺ؛ حتى نتلقَّى منه الجوابَ الشافي، والعكس صحيح، من أجل ذلك أخذ سيدنا عيسى عليه السلام يُبَشِّرُ بسيدنا محمد ﷺ قبل قدومِه بقرابةِ خمسة قرون، كما جاء في إنجيل يوحنا: "رئيس هذا العالم يأتي"[٥٤]؛ لأن هؤلاء هم أدرى الناس

---

(٥١) **سنن أبي داود**، الأدب، ١٥٢؛ **مسند الإمام أحمد**، ٥١٥/٣٦.
(٥٢) **صحيح البخاري**، الديات، ٣٤.
(٥٣) **صحيح البخاري**، أحاديث الأنبياء، ٤٥؛ **سنن أبي داود**، السنة، ١٤.
(٥٤) انظر: **الكتاب المقدس**، يوحنا، باب ١٤، ١٥، ١٦، ٢٦، ٣٠.

بعظمتِه وكرامته، ورغم ذلك كان النبي ﷺ يخفضُ جناحَ التواضُعِ، كما سرَدْنا آنفًا فيما يتعلَّقُ بالتفاضل بينه وبين الأنبياء.

أجل، كل هذا كان أدبًا منه ﷺ، وهكذا كان تواضعه، وكلما أظهر النبي ﷺ تواضعَه رفعَ الله مقامَهُ ودرجتَهُ، فارتقى وارتقى حتى بلغ المقام المحمود، وأريد هنا أن أنبِّهَ إلى مسألةٍ معيَّنةٍ؛ ألا وهي أن المقامَ المحمودَ في معناه العام يُعَدُّ أعلى المقامات التي يمدُّ فيها الإنسانُ يدَهُ بالشفاعة إلى الغير.

في الواقع كانوا يدعونه منذ البداية بـ"محمد، أحمد". أجل، من المعروف بدايةً أنه صاحب هذا المقام، وكان من علمِ الله تعالى أنّه سيحظى بهذا المقام، ولذا جعله ينالُ هذه الأسماء بالنظر إلى ما سيكون.

في الواقع هذه درجةٌ خاصّةٌ به ﷺ لم يتبوَّأْها أحدٌ من الأنبياء، فكلُّ نبيٍّ تكلَّمَ مع الله بواسطة أو بغير واسطة؛ إلا أنه لم يُشَرَّفْ أحدٌ من الأنبياء بالمعراج الذي هيَّأَهُ اللهُ لرسولِه ﷺ وفضَّلَهُ به على غيرِه من الأنبياءِ.

أجل، إن سيدنا رسول الله ﷺ هو النبي الوحيد الذي اجتمعت فيه الفضائل، وامتازَ على غيره ببعض الخصائص مثل: سماع ضجيج السماء والأرض، ورؤية الجنة والنار، وهكذا فنحن أمة نبي شُرِّفَ بمثلِ هذا المعراجِ الذي رجع منه بهدية ناضرة من قِبَل رب العالمين، وهذه الهدية هي الصلاة، والصلاة معراج المؤمن، تفضل الله بها علينا بأكمل وجهٍ وأروعِ شكلٍ.

إننا نتحدث هنا عن صرح الأدب؛ يعني عن أدب رسول الله ﷺ، أما عن السبب الذي جعل مجرى الحديث يتوجَّهُ إلى هذه الوجهة فهو الإجابة على سؤال "كيف؟" رغم أنه لا داعي مطلقًا للتفكير عن الكيفية في هذه المسألة، فالجواب واضح وموجَزٌ للغاية: "علينا أن نعامل الناس كيفما كان رسول الله ﷺ يعاملهم وعلى النحو الذي أمرنا به".

ومن ثمّ فمن الأدبِ أن يُطيعَ الإنسانُ ويوقِّرَ الأكبرَ منه ومرشدَه ومعلِّمَهُ وقائدَه ورئيسَه في العمل ما دام هؤلاء يتحرَّون ميزانَ الحقّ، وبشرط ألا يتجاوز في رفع شأنهم، بيد أنه من الخطإ أن نُفكِّرَ في الأدب من جانبٍ واحد، فعلى الكبار والرؤساء أيضًا أن يتعاملوا بأدبٍ مع الصغار والمرؤوسين، وإنما يتأتّى الأدب الحقيقي بقيام كِلا الطرفين بوظيفة الأدبِ الملقاة على عاتقهما.

كان النبي ﷺ يُشارك أصحابه بفعالية في الأعمال التي يجب أن يصاحبهم فيها، كما كان يساعد أهل بيته في أعمال المنزل، لكنه لم يفرض على إنسان قطّ القيامَ بعملٍ دونما اختيار منه، ولم يكلِّفْ أحدًا بعملٍ من أعماله الخاصة رغم أن الصحابة كانوا يتسابقون فيما بينهم للقيام بأيِّ عمل خاصٍّ به ﷺ، إلا أن المبادرة الأولى كثيرًا ما تكون منه ﷺ.

فمثلًا: رُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: علي ذبحها، وقال آخر: علي سلخها، وقال آخر علي طبخها، فقال ﷺ: "وعليّ جمع الحطب"، فقالوا: نحن نكفيك،

فقال: "**قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تَكْفُونِي وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَتَمَيَّزَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللهَ يَكْرَهُ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرَاهُ مُتَمَيِّزًا بَيْنَ أَصْحَابِهِ**"، وقام وجمع الحطبَ(٥٥).

ولا يخفى على الجميع مشاركته ﷺ أصحابَهَ في حفر الخندق، وحمله الحجارة عند بناء المسجد، هكذا كانت سلوكياته وتصرُّفاته، وهكذا ربّى أصحابه، من أجل ذلك كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ يتحرَّون العدلَ في كلِّ شيء، ولا ينحرفون عنه قيدَ أنملة، ولا ريب في ذلك فمن علمهم هذا هو معلمهم ومرشدهم سيدنا محمد ﷺ.

ولما سمع عمر ﷺ أن عمرو بن العاص ﷺ لم يستطع أن يراعي تلك الدقة البالغة في هذه المسألة قالَ له قولتَهُ الشهيرةَ: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟"(٥٦).

لقد استطاعَ هؤلاء أن يُحقِّقُوا هذا التوازنَ بما تعلَّموه من رسول الله ﷺ، وهذا يعني أن أمام إنسان اليومِ والغدِ رائدًا للأدَبِ ﷺ، عليهم أن يتبعوه ويتمثَّلوا بأدبِهِ، ومراعاة هذا الأدبِ يَعِد بخلاص الفردِ والمجتمع.

وإنني لحزين لأنني لم أستطعْ أن أعرضَ هذا الموضوع بكلِّ تفصيلاتِهِ، بل ومن المستحيل عرض ذلك، ولكنني أفكِّرُ لو طالت بنا الحياة أن أتناولَ هذه المسألةَ في مؤلَّفٍ مستقِلٍّ، وما فعلناه هنا هو الإشارة بإيجاز إلى هذا الموضوع ليس إلا.

علاوة على ذلك فقد زودَتْنا مئاتُ المجلدات بمعلومات مستفيضةٍ عن أدبِه ﷺ في ملبسِه ومأكلِه ومشربِه ونومِه ويقظتِه وحياتِه

(٥٥) الصفدي: **الوافي بالوفيّات**، ٧٢/١؛ المقريزي: **إمتاع الأسماع**، ١٨٨/٢.

(٥٦) أبو القاسم المصري: **فتوح مصر والمغرب**، ١٩٥/١.

اليوميّة، وإنني في هذا الجانب أُحيلُكم إلى هذه المؤلفات الرائعة، غير أنني أُريدُ أن أنبِّهَ هنا إلى نقطةٍ أخيرة وهي: أن حياة النبي ﷺ كانت جزءًا لا ينفكُّ عن الفطرة، عاشَ الحياة على طبيعتِها بأكملِ وجهٍ، والحقُّ أن الحياة النموذجيّة التي يحياها كلُّ إنسان بكلِّ رضا هي هذه الحياة الطبيعية الفطرية، وبهذه الحياة تنجو جميع الإنسانية، وكما قلتُ آنفًا: الأدبُ هو نظامٌ وانتظامٌ وتناغمٌ يحيطُ الحياةَ بكلِّ جوانِبِها، وقد ضربَ لنا رسولُ الله ﷺ أروعَ الأمثلة في هذا الميدان.



أضرار الفحش

سؤال: ما أضرار الفحش؟

الجواب: أضرار الفحش كثيرة تفوقُ الحصرَ والعَدَّ، والفحشُ يعني انهماكَ الإنسانِ في المتعِ والملذَّاتِ غير المشروعة، فليس من الفُحْشِ الاستمتاعُ بالملذّات الدنيويّة في حدود دائرة الشرع.

أجل، "إن دائرةَ الحلالِ واسعةٌ فسيحةٌ، تكفي للراحة والسعادة والسرور، فلا داعيَ لِلْوُلوج في الحرام"(٥٧).

يُذكَرُ أن النبيَّ ﷺ لم يتلفَّظْ بكلامٍ بذيءٍ قطّ، وما دنا من دائرة الفُحش حتى قبل بعثته؛ لأن العصمة هي إحدى صفات الأنبياء، والعصمةُ تحول دون ارتكاب الذنوب والنظر إلى الحرام والميل إليه، فلو أن النبيَّ ﷺ اقترفَ واحدةً من هذه الأمور ولو لمرة واحدة ما أمهله أعداؤه الذين يخططون للنَّيلِ منه كلما أتيحت لهم الفرصة، ولاستغلوا هذا الأمر استغلالًا جيدًا ولاتخذوه مبرِّرًا للنَّيلِ منه والقضاء على دعوته، منهم من قال: إنه ساحرٌ وشاعرٌ وكاهنٌ ويتيمٌ وفقيرٌ، ومنهم من قال: إنه يريد أن يفعل هذا أو ذاك، ولكن ما تجرأ أحد على أن يقول إنه قد اقترفَ -حاشاه- شيئًا من الحرام، ما استطاعوا ولن يستطيعوا أبدًا؛ لأن مثل هذه الافتراءات لن يصدقها أحد.

(٥٧) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة السادسة، ص ٢٥.

لقد عاش ﷺ عفيفًا، وما صدر من فمه كلام بذيءٌ، ولا تناهى إلى مسامعه كلامٌ فاحش، بل إنه ﷺ كان يرفضُ أن يُقالَ في حضرته أيُّ كلمةٍ نابية، فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ﷺ، أَنَّ عَائِشَةَ، ﷺ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ"** فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ"**[٥٨]، فيُمكننا أن نقول: ما جرى الكلامُ البذيءُ يومًا على لسانِهِ، وما خطر ببالِه.

وكيف يخطر على باله ذلك وهو الذي قال ﷺ: **"إِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ"**[٥٩].

لكن مع الأسف راجَ الفحشُ كثيرًا وانتشر في عصرنا الراهن، وغدا بجميع جوانبِه وأحواله ووحداته ومؤسَّساته مُكرّسًا لخدمة الشيطان، غير أن هناك قوانين ودساتير وضعها الإسلام ضدَّ الفُحش، طالما حافظَ عليها المؤمنون ما وقعوا في دوامة الفحش، وما جرفتهم تياراته.

أما من لم يُراعوا ما وضعه الإسلام من قوانين ودساتير فلا بدَّ أن ينجرفوا كجذوعِ الشجر مع تيّار الفحش وينساقوا إليه.

وإن أهم مسالة أخشى فيها على نفسي وإخواني المؤمنين، أن ينفذ الشيطان إلى داخلهم ويسوقهم إلى طريق الفحش.

(٥٨) صحيح البخاري، الأدب، ٣٤؛ صحيح مسلم، الآداب، ١٠.
(٥٩) سنن الترمذي، البر والصلة، ٦٢.

إن أهل الدنيا والضلالة يسعون الآن سعيًا حثيثًا لإغواء المسلمين البسطاء والشباب الغرّ الذي ما زال يحبو على الطريق، يحاولون على الدوام الإيقاعَ بهؤلاء الشباب وفتنتَهم بالمال تارةً وبالمنصب تارةً أخرى أو بجرّهم إلى المجونِ والخلاعةِ كوسيلةٍ لإسقاطهم في مستنقع الفُحش والحرام (والعياذ بالله).

يمكننا أن نرتِّبَ الأسُسَ التي وَضَعَهَا الإسلامُ في هذا الموضوع على النحوِ التالي:

أولًا: الإسلامُ ينظرُ إلى الغرائزِ الإنسانيّة على أنها فطرةٌ كامنةٌ وحقيقةٌ قائمة، فمثلًا يَعْتَبِرُ كلَّ المشاعر الإنسانية مثل الغضبِ والطَّمع والعناد على أنها حقيقة بذاتها، لكن إن اُسْتُغِلَّتْ هذه الغرائزُ والمشاعرُ في مكانها الصحيح أفضَتْ إلى حصولِ الخيرِ واليُمنِ والبركة، أما إن أُسِيءَ استغلالها جرَّت الإنسان إلى الشرور والآثام، وعلى نفس الشاكلة يعتبر الإسلام شهوة الإنسان حقيقة كامنة فيه؛ لأن الشهوة عطيّة إلهيّةٌ ومنحةٌ يمنحُها الله لخليفتِه على الأرضِ وهو الإنسان ضمانًا لحياته الشخصية ودوامًا للنسل، فلو أحسنّا استغلال هذه المكافأة لتكاثرت أمة محمد ﷺ.

يقول ﷺ: "**تَنَاكَحُوا تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"[٦٠]، والنبي ﷺ في هذا الحديث لا يفتخر بكثرة الذين يُفْطِرون في الحانة ويُعيّدون عند النُّصُبِ، ويصومون في الخمارة، بل يتباهى بمن يصلي صلاتنا ويتَّجِهُ إلى قِبْلَتِنا ويقولُ بقولِنا ويُحِبُّ ربَّنا.

(٦٠) عبد الرزاق: المصنف، ١٧٣/٦.

وعلى ذلك يمكننا أن نقولَ بكلّ أريحيّة: إنَّ عاطفةَ الشهوة عاطفةٌ مُقدَّسةٌ، فبهذه العاطفة وُلِدَ أعظمُ المصطَفين وأرقاهم وأصبحوا مصدرَ فخرِنا، وعلى رأسِ هؤلاء سيدنا محمد ﷺ.

وقد تعاملَ الإسلامُ مع هذه القضية تعاملَهُ مع كافة القضايا، فوضعَ لها مقياسًا وشملها بالتوازن، ووفَّرَ كلَّ الإمكانيات والوسائل لتحقيقِ هذا الأمر، ويأتي على رأس تلك الوسائل الزواج، فالزواج واجبٌ على من يستطيعه، ومن لم يستطعه أوصاه نبينا ﷺ بالصوم، يقول ﷺ: "**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**"[٦١]، غير أنه لا بدَّ من تحقُّقِ شروط الصوم جميعها، حتى يتمكن الإنسان من أداء الوظيفة التي تحول بينه وبين الفُحش.

فمثلًا لو ظلّ الإنسان صائمًا طوال اليوم، ثم ملأ بطنه أكثر مما ينبغي في المساء، وفعل الشيء نفسه في السحور وكأنه يتسابق بطعامه مع ما أكله في الإفطار فلا ريب أنه لن ينال النتيجة المرجوة من الصوم؛ لأن الغاية من الصوم هي كسرُ الشهوة، فإن زادت الوحدات الحَرارية فيما يتناوله الإنسانُ من أطعمةٍ فلن تنكسِرَ شهوتُهُ بل تزيد وتحتد، ومن ثمّ يستحيل على من يأكل ويشرب على هذا النحو أن تلحقَه منفعةٌ من الصوم.

في الواقع على الإنسان أن يراعي مأكلَهُ ومشربه حتى في الأوقات العادية، فالإقلالُ من الطعام والشراب والنوم مبدأٌ إسلاميٌّ ثابتٌ لا يتغيّر، ولقد أوصانا النبي ﷺ بذلك في قوله: "**مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ**

(٦١) صحيح البخاري، النكاح، ٢؛ صحيح مسلم، النكاح، ١، ٣.

وِعَـاءً شَـرًّا مِـنْ بَطْـنٍ، بِحَسْـبِ ابْـنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَـهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ"(٦٢)، فإن كان الحال هكذا فنحن مضطرُّون إلى مراعاةِ المقاييس نفسها في الصوم أيضًا.

هناك من الناس من يصوم دون مراعاةٍ لمتطلَّبات الصوم، ويقول إنه لم يحصل على النتيجة المرجوة من الصوم، فمثل هذا الشخص يفتري على الصوم؛ لأن الصومَ نافعٌ بالتأكيد، وما هو إلا كاذبٌ مفترٍ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**اسْقِهِ عَسَلًا**" فَسَقَاهُ، ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: إِنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقَالَ لَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ فَقَالَ ﷺ: "**اسْقِهِ عَسَلًا**" فَقَالَ: لَقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**صَدَقَ اللهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ**" فَسَقَاهُ فَبَرَأَ"(٦٣).

ثمة حكمة في حدوث هذا وفي قول ذلك، فربما كان يشوب الرجلَ خللٌ في عقيدته واعتقاده.

أجل، إن صحّحَ الإنسان نيته ولو شرب سمًّا لا يضره ذلك ما دام يتحلى بفطرة سليمة، ومن الأهمية بمكان أن يزدان الإنسان ببعض الخصائص مثل التركيز والاعتقاد التام والتوكل.. من أجل ذلك اعتبرَ النبي ﷺ الصومَ وِجَاءً ووقايةً لنا من الشرور والآثام، فإن لم نكبحْ جِماحَ شهواتنا فنحن الكاذبون، أما رسول الله ﷺ فهو الصادق المصدوق.

(٦٢) سنن الترمذي، الزهد، ٤٨؛ سنن ابن ماجه، الأطعمة، ٥٠.
(٦٣) صحيح البخاري، الطب، ٣؛ صحيح مسلم، الآداب، ٩١ (واللفظ لمسلم).

ومـع هـذا فهناك أشـخاص خلقهـم الله على طبيعـة خاصة، ولذا يعانون من شـهوة مفرطة، وقد يكون لهؤلاء رغبة شـديدة في الزواج تـكاد تدفعهـم إلـى الجنـون، ومـن المحتمـل أن الصوم ليس بوسـعه وحـده أن يكبـح شـهواتهم، ومـن ثم ينبغـي أن نزوِّج مثـل هؤلاء في الحال وإن كانوا فقراء ويعانون ضيق المعيشة؛ حتى لا نضطرّهم إلى ارتكابِ المعاصي.

وبينما الإسلام يوصي الشباب بالصوم أو بالزواج نجده من ناحية أخرى يقف حائلًا دون انتشار الأمراض التي تنخر أساس المجتمـع والتي تسـمى بالأنشـطة الهدامـة، ويمنعها جميعهـا ويفرض عقوبات عليها، ولا يكتفي بذلك بل لو أن هناك شابًّا شكّل سببًا لغواية الناس وفتنتهـم فإنّـه يُفضّـل إقامته فـي مكان آخر يمنعه من التسـبُّبِ بالفتنة، وبسـبب هـذا الأمـر نفى النبي ﷺ امرأةً عـن المدينة، كما أمر عمر رضي الله عنه شابًّا بالرحيل عن المدينة.

فلمـا سـأله الشـاب المنفي: مـا ذنبي يا أميـر المؤمنيـن؟؛ ردَّ عليه عمـر قائـلًا: لا ذنـب لـك، إنمـا أفعـل ذلـك حفاظًـا على سـلامة أمن الناس[٦٤].

ومن ثمّ لا بد من القضاء على كل العوامل التي تثير العين والأذن وتحفز الأعضاء الأخرى؛ حتى ننأى بأنفسنا عن الفحش والتفحش.

وإنَّ الإنسـان فـي هذا العصر لَيُواجه خطـرًا مُحدِقًا لفتَ النبي ﷺ أنظارنا إليه بقوله:

(٦٤) انظر: ابن شُبَة: **تاريخ المدينة**، ٧٦٢/٢؛ الخرائطي: **اعتلال القلوب**، ٣٩٢/٢.

"**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**"(٦٥)، وفي رواية أخرى يقول "**مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي فِتْنَةً أَخْوَفَ عَلَيْهَا مِنَ النِّسَاءِ وَالْخَمْرِ**"(٦٦).

أجل، لقد قَضَتْ فِتْنَةُ النساء على كثيرٍ من الأمم السابقة وأهلكَتْهم، وجعلَتْهم أثرًا بعد عين، فقد اندثرت روما وبيزنطة تحت نير شهواتها وغرائزها، وحدث الشيء نفسه مع أندلُسِنا الجميلةِ أيضًا... وأظنُّ أن معظمَ من يرى الرسوم المخجِلَةَ في حمامات قصر الحمراء يسلِّمُ بذلك.

أجل، رسوم خُطَّتْ هنا وهنالك باسم الفن، تُجْلي بوضوح مدى السقوط والتدني الذي آلت إليه الأخلاق في ذلك العصر، إن ربنا ﷻ -حاشاه- لا يظلمُ أحدًا، فالظالم سيفُ الله ينتقمُ الله به، وكما قيل: "الظالم سيف الله في الأرض، ينتقم به ثم ينتقم منه".

عندما سلّط الله عليهم "فيرنانديو" كانوا قد انسحقوا واندحروا منذ زمن بعيدٍ تحت نِير غرائزهم، وعندما سلَّطَ الله علينا اليونان والبلغار وغيرهما من الظالمين والكافرين عقد البعض في عدد من المناطق المتدينة مجالسَ للهوِ والمجون، بيد أن أهالي تلك المناطق قاموا بعد ذلك بالتمرد على قانون ارتداء القبّعة الذي يُعدُّ هيِّنًا بالنسبة لما كانوا يفعلونه، فما معنى تلك المجالس والملاهي في ذلك الوقت؟

ولماذا لم يتمردوا على ذلك الانحطاط الأخلاقي؟ أو يُعرِبوا عن رفضهم له؟ لأجلِ ذلك فقد سلَّطَ الله عليهم الظالمين بمرور الوقت،

(٦٥) صحيح البخاري، النكاح، ١٨.
(٦٦) المحاملي: **الأمالي**، ١/١٧٦.

وكأنه يُشيرُ عبرَ رسائلَ واضحة إلى كلِّ من انحرف عن الطريق أن: استقيمُوا واستوُوا.

أجل، إنَّ الفحشَ مرضٌ فظيعٌ أبادَ كثيرًا من الأمم السابقة، ويَعِدُ اللاحقين بالفناءِ كذلك، فقد لَقِيَ السلاجقةُ والعباسيُّون حتى الدولة العلية العثمانيّة حتفَهم بين براثن ذلك الوباء العضال، ولا أحد يدري الآن مَن الذين سيُدمِّرهم هذا المرض الخبيث!

انتشرت الآن بعضُ الأفكار الخاطئة المُخجِلة، ولولا انسياقُ بعضِ السُّذَّجِ وانخداعُهم بها لم أكنْ لأعرضَها، ترى هذه الأفكارُ أنه لا بدَّ من اجتماع الرجال والنساء في مكان واحد واختلاطهما، وبذلك سيألفون بعضهم البعض، وستتلاشى حينذاك كل الأخطار الممكنة.

وهذا ادِّعاءٌ خطيرٌ للغاية، بل كذبٌ محضٌ؛ لدرجةِ أنه قد ساق أكثر من نصفِ شبابِنا إلى اقترافِ الذنوب وارتكاب الجرائم، وقد أثبتَتْ الإحصائيّات والدراسات العلمية أن (٦٠٪) من شبابنا يشربون الخمر، ومن المعروف أن الخمرَ يُثيرُ الشهوةَ ويؤدِّي رويدًا رويدًا إلى الفحش، ولم يجرُؤْ أحدٌ حتى الآن على إجراء بحثٍ جدِّيّ في هذه المسألة، ولو حدث لاستبان أمامنا بوضوحٍ أن مراكزَ القوَّة ذات الصلة بالخارج والتي تمارس أنشطتها الهدّامة في مجتمعنا قد خطَت بواسطة الفُحشِ أولى خطواتِها لإيقاعِ شبابِنا في شِباكِها.

إن الخمر والفحش أنيميا تسري في دمِ شبابنا. أجل، إن الفحش الذي يُصطاد به الشباب سرًّا وعلانيةً ينتشر انتشارَ سرطانِ الدم تمامًا، وإنَّ هذه الادعاءات غير المنطقيّة وغير المتوازنة التي يروِّجُ لها

هـؤلاء لتدمير مجتمعنـا، والتي هي محاولةُ إطفاءِ الشـهوة عن طريق إثـارة شـهوات الآخريـن؛ ما هي إلا ضـربٌ من التناقـض، فهي تمامًا كمن يحاولُ إرواءَ ظمإِ الناس بماءِ البحر؛ لأن الإنسـان كلّما شـرب منه احترق جوفه وازداد عطشه واشتدت حاجته إلى شرب الماء.

فضلًا عن ذلك فإن كل تَعَـرٍّ لا يوافق المعايير الإسلامية لا يُثير الشـهوات إزاءَ النسـاء فقـط بـل يمتـدُّ الأمـر إلـى الرجـال، فكثيـرٌ من الشباب الذين وقعوا تحت وطأةِ شهواتهم كلّ يوم وتكاثرت عندهم هرمونـات الذكـورة كلمـا رأوا الأجسـاد العاريـة وسـمعوا الكلمـات النابية وظلُّوا يُفَكِّرون في صُوَرِ العُري التي لم يستطيعوا أن يمحوها من أذهانهم ما زالوا ينساقون مـع الأسف صوبَ الانحراف الجنسيِّ نظـرًا لوجـود ثغـرات فـي قوانيننـا تغـض الطـرف عـن هـذه الأمـور المستهجنة، إلى أن أصبحوا وصمة عار على جبين مجتمعنا.

وقـد وفـدَ علينـا كثير من أمثال هذه الشـرور من أوروبا، وربما لا تنتشر هذه الأوبئة في أوروبا فجأة كما في بلادنا لأن أوروبا بلدٌ باردٌ، لكـن توافـد هذه الأمراض علـى البلدان الحارَّة جعل المسـألة مدعاة للتفكير، وربما من الممكن مناقشة هذه المسألة لاحقًا.

نعودُ فنقول: فإن قال العلماء بمثل هذا الادعاء الشـهوانيِّ الآنِفِ الذكر والذي لا يقرّه أيُّ دين أو كتاب سماوي أو منطق سليم فينبغي لنـا أن نجلـس ونبكـي على حالنـا، وإن تفوَّهَ بهذا معلِّمٌ في المدرسـة فهـذا يعنـي أننـا نُقَدّم يدَ العـون لأعداء بلدنا وأنشـطتهم الهدامة؛ لأن هؤلاء يستغلون ضعف بعض شبابنا إلى النساء ويزيّنون لهم الفحش والتفحـش، ومـن ثـم علينـا جميعًـا حكومـةً وشـعبًا أن نكافِـحَ هـذه

الأنشطة الهدامة التي سيطرت على مجتمعنا وجعلَتها يومًا بعد يوم تخدم أعمالها الدنيئة، ندعو الله رب العالمين أن يرزقَ أمَّتنا وقادتنا عقلًا وبصيرةً تُنيرُ لهم الآفاق من حولهم.

ومع الأسف أسرعَ القائلون بهذا الادّعاء من وتيرة هذا النشاط خاصةً في أيامنا حتى لا تسيطر على الشباب الهواجس الأيديولوجية، بيد أنهم لا يعرفون أن المنافقين في شرق العالم عندما أعلنوا عن الشيوعية لأول مرة ملؤوا الحمامات بالرجال والنساء معًا، ومن ثم فمن يظنون أن بإمكانهم إبعاد الشباب عن الوقوع في الفحش بتوجيههم إلى طريق غير مشروعة يستغلها الشيوعيون والفوضويون سلاحًا لهم يكونون قد ارتكبوا خطأً فادحًا مركّبًا، وإننا نرجو أن يتراجعوا عن هذه الفكرة الخاطئة.

ولا بد للمسلمين أن يُراعوا هذه المسألة في حياتهم الخاصة؛ لأن هذه الأمور المحرمة تُسيطِرُ وتستولي على القلب بمرور الوقت؛ استنادًا إلى سِرِّ الآية الكريمة ﴿**بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾ (سورة الْمُطَفِّفِينَ: ١٤/٨٣)، وحينذاك نصبح بلا أذن تسمع ولا قلب يخشع، ومن المستحيل أن يكون لدى الإنسان عشقٌ وانفعالٌ دينيٌّ بعدما أعْتَمَت الذنوبُ قلبه.

معنى ذلك أن ثمة وظيفتين للتصدِّي لِلْفُحْشِ؛ إحداهما تقع على عاتقِ الفرد، وهي الزواجُ، فإن لم يستطع فعليه بالصوم أو اللجوء إلى مقومات أخرى تقيه من التردي في الفحش، أما الثانية فتقع على عاتق الشعب والحكومة، وذلك عن طريق تجميدِ كلِّ صنوف الأنشطة الهدامة التي تُحفِّزُ المجتمع على الفحش،

بـل وتجفيـف منابعهـا، فالنشـاط الهـدام هو أعتـى قوة غاشـمة تعملُ على تقويض المجتمـع، وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إليها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النُّورِ: ١٩/٢٤).

إننا مضطرون إلى مكافحة تلك القوى المظلمة بما يتناسـب مع مبادئها، ولا ننس أن خلاصنا وخلاص أمتنا منوطٌ بذلك.



لماذا ينتهي كل شيء بالموت؟

سؤال: لماذا يستند كل شيء إلى الموت؟ فحياة الأحياء مثلًا تستند إلى موت النباتات، وحياة الإنسان تستند إلى موت الحيوانات.

الجواب: من صفات الخالق الذي بيده كلُّ شيء خلقُ أجمل الموجودات من أبسط الأشياء وأدناها مرتبةً، وقيامُه بتجديدٍ مستمرٍ لكل الأشياء دون إسراف، وتوجيهُها نحو التكامل؛ ففي جميعِ هذا الوجودِ نلحظُ شروقًا يتبعُ كلَّ غروبٍ، تمامًا مثلما يتعاقبُ الليل والنهار في دنيانا هذه، فالضوء يتركُ مكانه للظَّلام، والظلام يترك مكانه للضوء، وهكذا يتم الحصول على ثمرات جديدة ونضرة ضمن هذا النظام الذي يدهش الألباب، مثل علاقة الشمس بكرتنا الأرضية ومجيء الحياة إثرَ الموت.

والآن لنتأمَّل قليلًا هذه الأمور، ولكن علينا قبلَ كلِّ شيء أن نتعرف على الموت، ليس الموت نهايةً طبيعيَّةً للأشياء، ولا انقراضًا أو فناءً أو عَدَمًا أبديًّا، بل هو تغيير مكان، وتغيير حالٍ، وتغييرُ أبعاد وإجازةٌ وانتهاءٌ من أعباءِ وظيفةٍ، ووصولٌ إلى الراحة وإلى الرحمة؛ وهو -من بعضِ الوجوه- رجوعُ كلِّ شيءٍ إلى أصلِه وجوهرِه وحقيقتِهِ، لذا فالموتُ جذَّاب جاذبية الحياة، ومُفرِحٌ فرَحَ الوصال مع الأحباب والأصدقاء، وهو نعمةٌ كبيرةٌ لأنه يوصل إلى الحياة الخالدة.

لذا فالمادِّيُّون الذين لم يروا هذه الحقيقة للموت قاموا على الدوام بتصويرِه تصويرًا مفزعًا ونظموا حوله قصائد الرثاءِ المحزِنة، واستمرَّت حال هؤلاء البؤساء الذين لم يدركوا حقيقة الموت على هذا النمط منذ الأمس البعيد حتى الآن.

والموت باعتِبارِه فراقًا يصحُّ عَدُّهُ من حيث العقل والإنسانية حادثةً مؤثِّرةً ومحزنةً؛ لذا فكما لا يمكن إنكارُ التأثير أو الأثرِ للموتِ؛ كذلك لا يمكن إسكاتُ صوت القلب، ولا سيَّما لدى الأشخاص من ذوي القلوبِ الرقيقةِ والأرواحِ الحساسة، فالموتُ يُحدِثُ عند هؤلاء -وإن كان بشكلٍ مؤقَّتٍ- عواصفَ مدهشة، لذا فإن عقيدة البعث بعد الموت بالنسبة لهؤلاء تُشبِهُ إهداءَ منصِب سَلْطَنَةٍ لِمُتَسَوِّلٍ فقيرٍ، أو إهداءَ حياةٍ خالدةٍ لمحكومٍ عليه بالإعدام، أي إن هذه العقيدةَ تستطيعُ مسحَ كلِّ آثارِ حزنِ هؤلاء، وإهداءَ السعادةِ الكبرى لهم.

وبينما يبدو الموت لِمَنْ لم يُدرِكْ حقيقتَه واقتصرَ على مشاهدة وجهِه الظاهريِّ المخيفِ على أنَّه جلّادٌ ومشنقةٌ، وبئرٌ دون قاع، ودهليزٌ مُظلم؛ فإنَّ مَن أدرَكَ حقيقته لا يراهُ إلا خروجًا من سجن مرير إلى مكان فسيح، وتبديلَ مكان وسياحةً إلى عالمٍ يلقى فيه أصدقائه وأحبائه.

فأما الذين يعدّون الموت بدايةً لوجود ثانٍ وأبدي فإنّهم كلما هبّ نسيمُ الموت عليهم بَانَ وظهر ربيع الجنة أمام ناظريهم، وأما إن خطرَ خاطرُ الموت على بال الملحِدِ المحرومِ من جمال هذه العقيدة فإنه يرتاع منه ارتياعَ مَن قُذِفَ في جهنّم، وقد يُهَوِّنُ هذا الألمُ بعضَ الشيءِ لو كان الموضوع مقتصِرًا عليه، ولكنه يضيف

إلـى ألمـه ألـم كل من يفرح لفرحـه ويتألـم لألمه ويحمـل هذه الآلام كلهـا فـي روحه فينقصم ظهره، والإنسـان المؤمـن يرى في موت كلِّ شـيء رخصـةً وإجـازةً من مشـاقِّ الدنيـا وآلامِها، ودوامَ وجـودٍ لهذه الأشياء بهويّتها المثالية وماهيَّتها العلمية في عوالم أخرى، واكتسابَها ماهيةً أسمى وأرقى.

أجـل، مـا الموتُ إلا تفتُّحُ بُرعمٍ على الوجود الأبدي، وليس إلّا ترخيصًا من مشقّات الحياة الدنيوية، لذا فهو نعمةٌ كبرى وهديةٌ إلهيّة ثمينـة، وبمـا أن كلَّ كمـالٍ وتـرقٍّ؛ وبعبارة أخرى كل فضل وإحسـانٍ مرتبطٌ بالمرورِ من بعضِ أجهزةِ التصفية والتنقية ومن بعض الأوعية التـي تعطيـه شـكلًا خاصًّـا؛ كذلـك فـإن جميـعَ الموجـوداتِ تتسـلَّقُ نحـو الأعالـي بهـذه الطرق من الإذابـة والتصفية، وكمثـالٍ على ذلك فـإنَّ معـدنَ الذهـبِ وجوهَرَ الحديـدِ لا يَصِلان إلى مسـتوى هويَّتِهما الحقيقيّـة إلّا بعـد إذابتهمـا، أي بعـد مرورِهما بنوعٍ مـن الموت، وإلّا فإنهما إن لـم يمرَّا بهذه العملية فإنهما يظهران بمظهر التراب والحجر، أي بمظهر مخالف لحقيقتهما ولهويتهما.

وعندمـا نقيـس الأشـياء الأخـرى بالذهب والحديد نـرى أن لكلِّ شيءٍ نقطةَ غروب ونقطةَ ذوبان ونفاد ومظهرًا يوحي بالعدم والفناء، ولكنه في الحقيقة ليس إلّا انتقالًا إلى حال أعلى وأسمى.

عندما يهرع كل شيء بكل شوق إلى الموت اعتبارًا من جزيئات الهواء إلى ذرات الماء إلى جزيئات الأعشـاب والأشـجار إلى خلايا الأحيـاء، فإنمـا يهرعُ في الحقيقة إلى الكمال المقدَّر له، فعندما يتَّحِدُ الأوكسـجين مـع الهيدروجيـن فإنهمـا يفقـدان خصائصَهمـا الأوَّليَّة

السابقة، أي يموتان ولكنهما يُكَوِّنان ألزمَ شيءٍ للحياة وهو الماء، أي يُبعَثَان من جديدٍ في مستوى أرقى.

لذا فإننا نُطلِق على الغياب بالموت تبديلَ المكان وتغييرَ الحال، ولكنَّنا لا نقولُ عنه إنه انقراض وعدم، وكيف نستطيعُ قولَ هذا وكلُّ حادثة جارية في الكون اعتبارًا من أصغر الجزيئات الذرِّيَّةِ إلى أكبر الأجرام السماوية، وكل تحوُّلٍ وانصهارٍ وتشتُّتٍ متوجِّهٌ للأحسنِ وللأجمل! كل ما يمكننا التفوُّهُ به هنا هو أن الموجودات في سياحة ونزهة، ولا نستطيعُ القولَ أبدًا بأنها سائرةٌ نحو العدم.

ومن زاوية أخرى يُعَدُّ الموتُ تبديل الوظيفةِ، فكلُّ موجودٍ مكلَّفٌ بوظيفة استعراض خاصَّةٍ به أمام خالقه الذي أوجده، وعندما تنتهي مراسيم الاستعراض بالنسبة إليه، عليه أن يذهب ويخلي مكانه لغيره لكي تتمَّ الحيلولةُ دون سير الأمور على وتيرة واحدة في مسرح الاستعراض هذا، ويتمَّ إكسابه حيويةً ونشاطًا بكادرٍ جيِّدٍ وجديدٍ، وهكذا تظهر الموجودات على مسرحِ الحياةِ وتلعبُ دورَها وتُلْقِي ما يجبُ إلقاؤهُ من كلماتٍ ثم تختفي خلفَ الستارة، لكي يتسنَّى للآخرين أيضًا فرصةُ الظهور لِلعب أدوارهم ولإسماع أصواتهم. أجل، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، وهكذا يتمُّ التجديد وتتحقَّقُ الحيويّة والنشاط في خضمِّ هذا المجيء والرحيل والشروق والغروب.

ومن زاويةٍ أخرى فالموتُ يتضمَّنُ نصيحةً صامتةً بليغةً مفادُها أن أيَّ موجودٍ لا يكونُ قائمًا بذاتِه، بل إن كلَّ شيءٍ -مثل المصابيح التي تضيءُ وتنطفِئُ- يشيرُ إلى شمسٍ أبديّة لا يخبو سناها، كما أن

في النصيحة إشعارًا للقلوب التي تَئِنُّ تحت البراثنِ الفتَّاكة للزوالِ والفناء وإيحاءً لها بِطُرُقِ الاطمئنان والسعادة، عند ذلك يتحرَّكُ في قلوبِنا شعورٌ بالبحث عن حبيبٍ لا يزولُ ولا يغرب، وتيقُّظُ هذا الشعورِ في قلوبِنا هو المرحلة الأولى للوصول إلى الأبدية في عالمنا الشعوريّ، وهكذا فالموت بمثابةِ "مِصعد" سِرّيّ يرفعُ الإنسان ويسمو به إلى هذه المرحلة الأولى.

لذا فبدلًا من النظر إلى الموت كسَيْف يقطع الموجودات ويرميها إلى الفناء وإلى الزوال؛ فمن الأفضل النظر إليه كيَدٍ تعالج وتلقح وتُجري عمليَّةً جراحيَّة، بل إن النظر إلى الفناء والزوال كشيءٍ ذاتيّ نظرةٌ خاطئةٌ وناقصةٌ من بعضِ الوجوه، ذلك لأنه لا يوجد عدمٌ مطلق، بل إن كلَّ شيء يغيبُ عن الدائرة الضيقة لِنَظَرِنا ومشاهدتِنا، ولكنه يديم وجوده بهويته المثالية والعلمية في ذاكرتنا وفي اللوح المحفوظ وفي دائرة العلم الواسع المحيط بكلِّ شيء، وفي شتى الأبعاد وفي عوالم ما وراء هذه الأبعاد، فكأنَّ كلَّ شيء بذرةٌ تتحلل وزهرةٌ تذبل، ولكنها تديم وجودها وجوهرها في آلاف السنابل والبراعم، والآن لنرجع إلى السؤال من زاوية أخرى:

ماذا كان يحدث لو أن كل شيء ركن إلى الحياة بدلًا من ركونه إلى الموت، أي لو لم يتّجه كلُّ شيءٍ إلى الفناء وإلى الزوال واستمرت الموجودات متماوجةً في بحرِ الوجود، وظلت الحوادث والأشياء تجري على نمط واحد... ماذا كان سيحدث آنذاك؟

نجيبُ فنقول: إضافةً إلى أن الأمور السابقة المذكورة تكفي للاقتناع بأن الموت أثرٌ من آثار الرحمة والحكمة، نستطيع القول

بأنه في مقابل استنادِ الموت إلى الرحمة فإن الخلودَ الشامل وعدمَ الموت الشامل والساري في جميع مناحي الحياة يُعَدُّ مصيبةً مفزِعةً وعبثًا بحيث لو أمكن تصويره حقَّ التصويرِ وتصوُّره حقَّ التصوُّر لبكى الناسُ بحرقةٍ لا للموت ولكن لمثلِ عدم الموت هذا.

فكّروا لحظةً... وتصوروا أنه ما من شيء يموت؛ في هذه الحالة لا يستطيع الإنسان وحده -حتى في العصور الأولى- بل لا تستطيع حتى ذبابة واحدة العثور على مكان للعيش، فمن الأحياء يكفي النمل والنباتات المتسلِّقة أن تسيطر على العالم بأسره في ظرفِ عصر واحد فقط، إن لم يتعرضا للموت والتحلل، فلا يبقى شبرٌ واحدٌ فارغٌ على سطح الكرة الأرضية، ولَبَلغ ارتفاعُ سَمَكِ النمل والمتسلّقات مئات الأمتار فوق سطح الأرض، لذا فعندما تتخيّل مثل هذا المنظر المرعب تدرك آنذاك كيف أن الموت رحمةٌ والتحلُّلَ والتعفُّنَ رحمةٌ وحكمةٌ.

وهل كنا نستطيع عندئذٍ مشاهدةَ منظرٍ من مناظرِ الجمال الخلَّابة التي يحفل بها هذا الكون؟ أو نستطيع مشاهدة أي نسبة منها وأي جزءٍ من الجمال في ظلِّ هذا الاستيلاء الهائل للنمل وللمتسلِّقات؟ وفي هذه الأرض الحافلة بآثار الصنعة والفن والجمال الرفيع أكان من الممكن مشاهدة هذا الجمال أم مشاهدة ركام النمل والمتسلقات؟ أكان الإنسان الذي خُلق وسُخر له هذا الكون الرائع يستطيع العيش في مثل هذا الوسط القبيح؟ لم يكن هذا باستطاعته، بل لم يكن بقدرة أدنى المخلوقات وأحطِّها شأنًا سوى الهرب من هذه المزبلة.

من جانب آخر فهناك في إدارة هذا الكون حكمة رائعة لا تجدُ فيها ذرَّةً واحدةً من إسراف وعبَث، فصاحبُ الحكمة المطلَقَةِ يخلقُ من أحطّ الأشياء أثمنَها وأجملَها، لذا فلا يمكن التصور بأنه سيسرف في أي شيء، بل سيستعمل أقلَّ البقايا والأنقاض قيمةً في أماكن أخرى وسيخلق عوالم جديدةً، وسيقوم باستعمال الأرواح التي يرفعها إليه ولا سيما روح الإنسان أفضل استعمال، ولا جرم أنه من غيرِ المتناسِبِ مع حكمتِه المطلقةِ إهمالُ هذه المخلوقات التي كرّمها والتي سبق وأن كانت مظهرًا لتقديره ونعمه وخلقه وإيجاده، وهو سبحانه منزَّه عنه.

لذا نستطيع القول كخلاصةٍ إن أصحاب العقول السليمة والقلوب الشاعرة بالجمال ترى أن جميع الأشياء في مكانها الصحيح من ناحية الترتيب والتنظيم والسَّوق والإدارة إلى درجة تذهل هذه العقول وتُلهمها تعابير الجمال والشعر، أي إن جميع الأشياء في تحول دائم من كيفية إلى كيفية أعلى بدءًا من حركة الذرات وتحلُّلها إلى نموِّ الأعشاب والنباتات، مرورًا بتدفق الأنهار إلى البحار وإلى تبخُّر المياه وتكوينها السحب والغيوم ثم نزولها مطرًا إلى الأرض... إلخ، أي نشاهد أن كل شيء يتحوَّلُ ويُسرع بكل شوق من حال إلى حال أفضل وأسمى، وصدق الشاعر "عبد الحقّ حميد" حين قال:

عجبًا لهذا العالم الذي يهزُّ العقلَ والفكرَ

تَمُرُّ معجزاتُ القدرةِ أمام عيني تترى

ليس إلّا بَسمَاتٍ سماوية غرًا

هذا الذي ينثره الحقُّ تعالى من وجه السماء نثرًا

كلها أنوار اتَّخذَت من الألوانِ سترًا

العشب... البحر... الجبال... والربيعُ غروبًا وفجرًا

من يولد هنا فلا ريب أنه سيصبح شاعرًا وسيفيضُ شِعرًا



آداب الدعاء

سؤال: هل تلزمُ الاستعاذة والبسملة عند الدعاء؟ وما هي آداب الدعاء؟

الجواب: ليس هناك ما يدلُّ على أنَّ الاستعاذةَ شرطٌ في بداية الدعاء؛ فنحن مأمورون بالاستعاذة عند قراءة القرآن الكريم، إلّا أنني لا أرى حرجًا في البَدْءِ بها عند الدعاء، وانطلاقًا من عموميّة القاعدة التي تقول: "بسم الله رأسُ كلِّ خيرٍ"؛ نستطيع أن نقول: تُسَنُّ البسملةُ عند الدعاءِ على اعتبارِ أن الدعاءَ يدخلُ ضمنَ الأعمال الخيّرة.

أما بالنسبة لآداب الدعاء فنوجزُها على النحو التالي:

الأوّل: الحمد والثناء على الله ﷻ بكلِّ شوقٍ وإخلاص، فنقولُ مثلًا: "يا رب، يا خالقَ السماء والأرض، يا من تعلمُ ما في القلوب، يا من غرسْتَ الإيمان والاطمئنان في قلبي، يا من ملأتَ قلبي بالشوق إلى الجنّة، وأعددتَ الجنّة من الآن، يا من جعلتَ البلبل يُغَرِّدُ، وصبغْتَ الورودَ بالألوان"، وهكذا فإن إسنادَ كلِّ ما يجري في الكون إلى ربنا ﷻ والتعبيرَ عن ذلك بأسلوبٍ مفعَمٍ بالتوسُّلِ والتضرُّعِ هو الحمدُ والثناءُ، وهذا ما نراه جليًّا واضحًا في أدعية رسول الله ﷺ.

الثاني: الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وهذا يُشْبِهُ السلام على شخص يَقِفُ عند بابٍ ما، وهو يمسكُ بمفاتيح هذا البابِ وأقفالِه.

أجل، إننا بصلاتِنا على رسول الله ﷺ نتوسَّلُ إلى الله ﷻ أن يفيضَ على سيدنا رسول الله ﷺ بما أفاضَ به على سيدنا إبراهيم ﷵ، وأن يحيطه بهالةٍ من الاحترام تتوازى مع الاحترام الذي تُكنّه القلوب لسيدنا إبراهيم ﷵ، مما يجعل القبولَ حليفَ المسألةِ المرتجاةِ بصدقٍ وإخلاص، ولا شكَّ أن توسُّطَ الدعاءِ بين دعاءين مقبولَين فيه ضمانٌ للقَبولِ إن شاء الله.

الثالث: من الأمور التي لا غنًى عنها في الدعاء التوسُّلُ والتضرُّعُ إلى الله والتلوِّي على ألا يكون هناك أدنى شكّ في أنّ الله ﷻ يستجيبُ هذا الدعاء لا محالةَ.

إن لُبَّ الدعاء وحياته هو الإخلاصُ والصدقُ، والتوجّه إلى الحق تعالى توجُّهَ ذلك الشخص الذي تعلق بخشبةٍ وسطَ البحر وأدركَ بعين اليقين أن كلَّ الأسباب قد انقطعت ولا حول له ولا قوّة؛ فاتّجه إلى الله تعالى بروح مستسلِمةٍ لبارِئِها.

فمن الخطإ القطعيّ الظنُّ بِعَدَمِ قبولِ الدعاء، فلو توافرت في الدعاء كلُّ شروطه فلا بد أن يُكْتَبَ له القبولُ؛ إلّا أن ماهية هذا القبول ربما لا تتوافق مع ما نطلبه وما ندعو إليه، فلربما يكون ما نطلبه أحيانًا ليس خيرًا بالنسبة لنا فيتفضل الحقُّ تعالى علينا رحمةً بنا بما لا بدّ أن نطلبَهُ في الأساس لا بما طلبناه، وأحيانًا يلقى دعاؤنا

القبول في الآخرة، ولذا من الأهمية بمكان أن ندعو بما نريد مع الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ سيقبل دعاءنا.

الرابع: ختام الدعاء بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، فالدعاء تعبير عن العبودية الخالصة لله ﷻ، وهو يعني توجُّهَ العبدِ إلى باب الله القادرِ المقتدِرِ الغنيِّ مباشرةً بلا أيِّ واسطةٍ، والطلَبَ منه مع إظهارِ الفقرِ والعجزِ أمامه.

هناك مسألةٌ مهمَّةٌ لا بدّ من التأكيد عليها هنا: مع الإلحاح في الدعاء تسقط الأسباب العادية ويلقى الدعاءُ القبولَ من الله تعالى؛ لأن كلَّ الأسباب بيد قدرته ﷻ، فهو سبحانه قدير على التصرُّفِ فيما يشاءُ بما يشاء، يكفي فقط أن ندعو الله بهذا الشعور، وأن نراعي الأمور التي يجوز فيها الدعاء.



الدعاء بالصبر

سؤال: إننا ندعو الله قائلين: "اللهم اجعلنا من الصابرين"، فهل في الدعاء بالصبر طلبٌ ضمنيٌّ للبلاء؟

الجواب: الصبر هو قوَّةُ تحمُّلٍ لدى الإنسان؛ بمعنى أن الإنسان يكشفُ بالصبر فحسب عن إرادته، وينال به ماهيةً وكيفيةً تُبرِزُ القوة الكامنة في روحه.

والصبر من حيث الأمور التي لا بدّ من المثابرة عليها، له أنواع متعددة، والصبر على هذه الأمور بمثابة درجات لتكامل الإنسان ورقيه وسموه حتى يكون إنسانًا كاملًا، ومن بين هذه الأنواع:

أولًا: الصبر على الطاعات؛ يقول سيد المرسلين ﷺ: **"أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ"**(٦٧)، فهذه الأعمال الدائمة تُحدث تأثيرًا لدى العبد كما يُحدث الماء المستمرُّ تأثيرَه في الرُّخام.

ولقد سألَ أبو سلمة عَائِشَةَ عَنِ الركعتين اللَّتَيْنِ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّيهِمَا بَعْدَ الْعَصْرِ، فَقَالَتْ: "كَانَ يُصَلِّيهِمَا قَبْلَ الْعَصْرِ، ثُمَّ إِنَّهُ شُغِلَ عَنْهُمَا، أَوْ نَسِيَهُمَا فَصَلَّاهُمَا بَعْدَ الْعَصْرِ، ثُمَّ أَثْبَتَهُمَا، وَكَانَ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَثْبَتَهَا"(٦٨)، وبعيدًا عن الآراء المختلفة لأئمة المذاهب حول

(٦٧) صحيح البخاري، اللباس، ٤٤؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢١٨.
(٦٨) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٩٨.

هذه المسألة؛ فإنَّنا نُدْرِكُ أن النبيَّ ﷺ -سيِّدَنا وسيدَ البشر أجمعين- لم يكن يشرعُ في شيءٍ حتى يواظب عليه إلى نهايته، وهذا كان دأب الصحابة ﷺ أيضًا.

أجل، كان سيدنا رسول الله ﷺ إذا أصابه التعبُ يومًا ولم يستطعْ أن يتعبَّد ليلًا ضاعفَ من كمِّية العبادت نهارًا؛ بمعنى أنه لو كان يواظِب ليلًا على ثماني ركعات ففاتَه ذلك لعلّةٍ ما؛ فإنّه يُصلّيها ستة عشر ركعة نهارًا، وهكذا..

أجل، كان ﷺ لا يدع أمرًا بدأه ألبتة حتى آخر حياته، وفي هذا الصدد قالت أمّ المؤمنين عائشة ﵂ وعن أبيها: "مَا كَانَ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِه عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا"[(٦٩)].

وإن صلَّى خلفه ﷺ أناسٌ أحسَّ فيهم الضعفَ والعجزَ كان يأخذهم بعين الاعتبار ولا يشق عليهم، فهو منبع الرحمة الذي يؤثر الآخرين على نفسه، وهو القائل ﷺ: "**إِنّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ**"[(٧٠)].

يا الله! ما هذه الشفقة! وما تلك الرقة! فيا لِسعدنا وحظِّنا أن يكون رسول الله نبينا من بين جميع المرسلين وإن كنا لم نعرف قدره حق المعرفة! أجل، تقول أمنا عائشة ﵂: "فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ".

(٦٩) صحيح البخاري، المناقب، ٢٤؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ١٢٥.
(٧٠) صحيح البخاري، الأذان، ٦٥.

فلقد كان ﷺ شديد التعمق في عبادته لربه، ولم تؤثِّر قط الشيخوخة ولا المتاعب ولا المصائب التي تقصم الظهر في الرقة والتعمق اللتين تتَّسم بهما عبادته، لله ﷻ، بل كلما اشتدت تلك المصاعب والمصائب زادَ تعمقه في أداء وظيفة العبودية إلى الله تعالى، ولقد رُوِيَ عن السيدة عائشة ﵂ أن النبيَّ ﷺ كان في آخر حياته السنية يؤدي جزءًا من صلاة النوافل الطويلة وهو جالس، كان يطيل فيها من قراءة القرآن، فإن أراد أن يركع قام أولًا ثم ركع، لكنه ظل طوال حياته يصلي الفرض قائمًا باستثناء حالة أو اثنتين؛ وهي في الأوقات التي سقط فيها مغشيًّا عليه لتفاقم مرضه ﷺ...

وفي بعض الأحيان كان يتلو آيات القرآن في صلاته قاعدًا، فإن بقيت ثلاثون أو أربعون آية من الوِرد الذي عقد العزم على إتمامه في صلاته نهض وقرأ بقية هذا الوِرد وهو قائم، ثم ركع؛ لأنه منذ البداية وهو يؤدي عبادته هكذا، ويرغب في أن يؤدي عبادته على نفس المستوى وذات المنوالِ دون أن يُفسد هذه العلاقة الوطيدة بينه وبين ربه.

وعلى ذلك فالصبر على العبادة والطاعة من هذه الناحية أمرٌ مهمّ للغاية، والصابرون على هذا الأمر هم في مرحلة مهمّة من الرقي.

ثانيًا: الصبر على المعصية، وهذا الصبر له أهمّية كبيرة بالنسبة لشبابنا اليوم خاصة؛ لا سيما في هذا العهد الذي تحوَّلَتْ فيه الشوارع إلى قنوات تجري فيها الذنوب التي خالطت قلوبَنا بواسطةِ النظَرِ فَجَرَحَتْ أفئدَتَنا، إن الصبر على المعصية وعدمَ ارتكاب الذنوب والتصدي لها أمرٌ في غاية الأهمّية، وهذا النوعُ من الصبر بمثابة معراجٍ آخر لرقيّ العبد، ومن يستغلّ هذا المعراج قد يَصِلُ إلى عرشِ الكمالات.

ثالثًا: وهو أشدّ أنواع الصبر؛ الصبر على المصائب، يعني صبر الإنسان على ابتلاءِ الله له.

رابعًا: الصبرُ على زينة الدنيا ومفاتِنِها وعلى الشهوات التي تتطلَّع إليها النفس، وهذا أقصر طريق إلى البطولة المعنوية في الصبر.

خامسًا: الصبر على الألطاف المادية والمعنوية، وهذا لا يتأتَّى إلا للناس الكاملين فقط.

وجاء في السؤال: هل في طلب الصبر طلبٌ ضمنيٌّ للبلاء؟ وإجابة على هذا نقول: إذا كان الدعاء مقتصرًا بالصبر على البلاء فقط فاللهمَّ نَعَم، يقول أهل التحقيق: إن طلبَ الصبر قبل وقوع البلاء يأتي بمعنى طلب البلاء، لكن ثمة أمر مهمٌّ لا بدّ ألا يغيب عن وعينا وهو أن الصبر كما أوضحنا في البداية لا ينحصر في الصبر على البلاء فقط، ومن ثم فعلينا أن نقول: "اللهم ألهمنا الصبرَ على العبادات والطاعات، ولا تجعَلْنا ننفكُّ عنها، اللهم صبِّرنا على المعصية، اللهم حبِّبْ الطاعات إلى أرواحنا وقبِّحْ المعاصي إلى نفوسنا"، فمثل هذا الدعاء لا علاقةَ له بِطَلَبِ البلاء.

وجميع هذه المعاني كامنة في الدعاء بالصبر، ولا مانع مطلقًا من الدعاء بالصبر عليها جميعًا، ولكن إن كان الدعاء بالصبر على البلاء قبل نزوله فكأنه دعوة لنزول البلاء كما بينه أهل التحقيق، وانطلاقًا من ذلك يرى أهل التحقيق أنه ليس من الصحيح طلب الصبر على البلاء قبل وقوع البلاء -أعاذنا الله منه بفضله وكرمه-.



اكتساب الفيض من العبادات

سؤال: هل اكتساب الفيض من العبادات مرهون بأدائها على الوجه الأكمل؟ بمعنى: ألا يمكن الحصول على درجات معنوية إن لم تؤدَّ الصلاة مثلًا حسب أركانها؟

الجواب: أرى من الأفضل استبدال كلمة "الفيض" الواردة في السؤال بكلمة "السعادة" أو "اللذة"، ذلك لأنه لا يمكن فهم معنى "الفيض" هنا، الفيض في الحياة الدنيوية هو الواردات والألطاف السبحانيّة التي لها علاقة بالحياة القلبية والروحية للإنسان، أما في الآخرة فالفيض هو ما يناله الإنسان من مراتب وشرف مثل دخول الجنة ونيل رضا الله واستحقاق شرف رؤية جمال الله، لذا فإن إدراكَ كلمةِ "الفيض" وفهمَ محتواها والإحاطةَ بمعناها يكونُ شيئًا مستحيلًا بالنسبة إلينا.

فربما أحاطت وتحيطُ بقلوبنا الفيوضات من كل جانبٍ ونحن لا ندري ولا نشعرُ بها، وربما كان عدمُ معرفتنا وعدم شعورِنا بها من لُطْفِ الله تعالى وإحسانِه بنا، ذلك لأنَّ أفضلَ إحسانِه هو أنه لا يشعرنا بإحسانه.

إذا تناولنا المسألة من هذا الجانب نستطيع القول بأن هناك فيضًا وبركةً في جميع العبادات التي تؤدَّى لله تعالى، فليس من المتصوَّرِ أن يرجع أيُّ إنسان توجّه إلى بابه خاليَ الوفاض أبدًا، ولكن على الإنسان ألا يربط عباداته بالفيض أو باللذة التي يحصل عليها منها، فأحيانًا قد تؤدّي صلاةً وأنت في حالة روحية منقبضة، أي في وقت ضاقت فيه نفسك وقلبك، فقد تُطلِقُ حكمًا متشائمًا على تلك الصلاة إذا ما تناوَلْتَها من منظورِ الظاهرِ بحكمٍ مستعجل، ولكن قد تكون تلك الصلاة من أفضل صلواتك وأكثرها قبولًا، لأنك وقفت للصلاة وأنت متجرِّدٌ عن جميع الأذواق المادية والمعنوية، ولم تنسَ ولم تهمِلْ إظهار عبوديتك لله تعالى حتى في ذلك الوقت، أي لم يخلّ بإخلاصك عدمُ تلقّيك أي فيض معنوي، وهذه هي العبودية الخالصة المخلصة.

يجب أن تقول لنفسك "ما دام الله تعالى يقول ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ (سورة غَافِرٍ: ٤٠/٦٠) أي يخبرنا بأنه سيستجيب لكلِّ دعاء خارجٍ من بين شفتينا؛ إذًا فسأبقى مقيمًا على بابه ولن أتركه أبدًا"، إذا كان العبد يُظهر مثل هذه العبودية طوال حياته حتى من دون إحساسه بأيِّ لذَّةٍ روحيّة يكون قد صرف عمره كلَّهُ في عبوديّة خالصة.

من جانب آخر يجب ألا يكون الحصول على المراتب المعنوية هدفًا للعبودية، لذا قال جنيد البغدادي عن الذين يقومون بإيفاء وظائف العبودية من أجل الجنة: إنهم "عبيد الجنة"، بينما لا يمكن أن تكون الجنة هدفًا وغاية للعمل وللعبادة، فالعبادة تؤدَّى لأن الله سبحانه أمر بها، أي من أجل الحصول على رضاه تعالى.

أجل، فالسبب الحقيقيُّ للعبادة هو أنها أمر الله تعالى، أي إننا نؤدِّي فروض العبادة لأن الله تعالى أمرنا بها، فإن قام أحدهم ووقف يصلي لله تعالى وهو يرتجفُ خوفًا من جهنم فإن مثل هذا الشخص "عبد النار" أي عبد جهنم، إذًا فكيف يمكن أن يكون عبدًا لله تعالى؟ إن على الإنسان ألا يؤدي عباداته طمعًا في الجنة أو خوفًا من النار بل لأنه عبد لله تعالى ولأن الله أمره بها.

إن على الإنسان أن يؤدِّيَ صلاته حتى وهو في حالةِ انقباضٍ روحيٍّ، ومحروم من جميع الفيوضات المادية والمعنوية، حتى إن بكاء الإنسان وأنينَهُ كما يمكن أن يكون وسيلة للفيض والبركة؛ قد يكون أحيانًا وسيلةً للابتلاءِ والامتحان، فلا يمكن إعطاءُ حكمٍ قاطع في هذا الخصوص.

أجل، قد يشكل البكاء والأنين خطرًا على الإنسان الذي لا يراقب نفسه جيِّدًا ولا يحاسبُها، لأن ذلك الإنسان غير مطلع على أعماق قلبه، ورغم أن البكاء والأنين يعدان إحسانًا خاصًّا بالصلاة فإن الإنسان إذا حرص عليهما فحسب عند أداء كل صلاة فلعله يخسر نواحي مهمة من الإخلاص؛ لأن من المهم جدًّا الوقوف في الصلاة أمام الله تعالى بنفس مشبعة برغبة الحصول على رضا الله تعالى فقط، ندعو الله تعالى أن يُرقِّينا في مدارجِ الصدق والإخلاص حتى يُبلِّغَنا القمَّةَ، إذا تحقَّقَ هذا فما البأسُ إن كان منظرنا أمام الناس منظر المقصرين!؟ فمثل هذا المظهر الخارجي لا قيمةَ له، والرسول ﷺ يقول: "اللهم اجعلني في عيني صغيرًا وفي عينك كبيرًا"، المهم هو نيل المرتبة عند الله تعالى وليس عند الناس، لأنه ما أكثر الذين

يعظم خطرهم في أعين الإنسان وهم لا يزنون جناح بعوضة عند الله تعالى! لذا يجب على الجميع تكرار هذا الدعاء.

والأمر الآخر في هذا الخصوص هو أن الله تعالى قد يَهَبُ الإنسانَ اللَّذَّةَ الروحيَّةَ في العبادةِ، وهناك بعض العظماء والأولياء استطاعوا قلعَ العجب بالنفس من قلوبهم ووصلوا إلى التوحيد الكامل، فهؤلاء يستطيعون التحدُّثَ بصراحة عن نِعَمِ الله تعالى عليهم وكل أنواع الجمال الذي ألبسه الله تعالى إياهم، فمثلًا في غزوة حنين "..طَفِقَ رسولُ الله ﷺ يَرْكُض بَغلَتَه قِبَلَ الكُفّار، قال عبّاس ﷺ: وأنا آخذٌ بلجام بَغلة رسول الله ﷺ أَكُفُّها إرادةَ أنْ لا تُسْرِعَ... وأبو سفيانَ ابنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطّلب يقُودُ به فنزل فاستَنْصر وقال ﷺ:

"**أنا النّبيُّ لا كذِبْ * أنا ابنُ عبدِ المُطَّلب**".

قال الراوي: "كُنَّا وَالله إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ"[٧١].

وعندما قال الرسول ﷺ هذا إنما قاله في مقام الامتنان والتحدُّثِ بنعمةِ الله وقال في نفس المقام: "**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلَا فَخْرَ**"[٧٢]. وقال ﷺ أيضًا: "**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ**

(٧١) صحيح مسلم، الجهاد والسير، ٧٦-٧٩.

(٧٢) سنن الترمذي، تفسير القرآن، ١٨، المناقب، ٣؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٣٧.

قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِه خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً"(٧٣).

كل ذلك تحدُّثًا بِنِعَمِ الله تعالى عليه، فمثلًا إن وهبَ لي شخصٌ ملابسَ جميلةً، فإني أتحدَّثُ في كلِّ مكانٍ أرتاده عن صاحب الهدية وأقولُ: إن هذه الملابس الجميلة التي ترونها عليّ والتي تضيف إلى جمال خلقِ الله جمالًا آخر إنما هي هدية الشخص الفلاني، لذا فلا بأسَ من التحدُّثِ بالنِّعَمِ العديدة التي أسبغها الله تعالى علينا، بل يكون إخفاء هذه النعم -أحيانًا- جحودًا، وفي هذا الخصوصِ يقولُ بديع الزمان عن الكتب التي كَتَبَهَا: "لو بلغ صوتي أرجاء العالم كافة لكنت أقول بكل ما أوتيت من قوة: إن المؤلَّفات جميلة رائعة وإنها حقائق وإنها ليست مني وإنما هي شعاعات اِلْتَمَعَتْ من حقائق القرآن الكريم"(٧٤)، وهو يقتبس هذا المعنى من دعاء الرسول ﷺ لشاعره حسان بن ثابت "اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ"(٧٥)، لأن حسان ابن ثابت رضي الله عنه كان شاعرًا فحلًا، وكان يُدافع عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام وعن القرآن، ويكسر بكلماته البليغة معنويات المشركين، لذا خصّص له كرسيًّا في المسجد النبوي، وكانت كلماته تنزل كالصاعقة على رؤوس المشركين، قال حسان بن ثابت يومًا:

*أنا ما مدحتُ محمدًا بمقالتي *** لكن مدحت مقالتي بمحمدِ*

(٧٣) **صحيح البخاري**، التيمّم، ١؛ **صحيح مسلم**، المساجد ومواضع الصلاة، ٣.

(٧٤) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب الثامن والعشرون، الرسالة السابعة، ص ٤٥٠.

(٧٥) **صحيح البخاري**، بدء الخلق، ٦؛ **صحيح مسلم**، فَضَائِل الصَّحَابَةِ، ١٥١.

وهذا تحدُّثٌ بالنعمة من قِبَلِ هذا الشاعر وهذا موافقٌ لما جاء في القرآن الكريم الذي خاطبَ النبي ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (سورة الضُّحَى: ٩٣/١١)، وعندما قالت أمُّ جميل وكانت امرأة مشركة: لقد تركَ شيطانُ محمَّدٍ محمدًا، قال الله تعالى مسرِّيًا عن رسوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۞ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (سورة الضُّحَى: ٩٣/٣-٤)، وجاء يوم أصبح فيه خُمس سكان الأرض من السائرين على طريق الهداية التي رسمها الرسول ﷺ، وتشرَّفُوا بِشَرَفِ الإسلام وانتشَرت المنائِرُ والقبابُ في جميع أنحاء العالم، وأصبحَ الأذان المحمديّ يصدَحُ في شرق العالم وغربه خمس مرات في اليوم والليلة، فما إن ينتهي المؤذن في بلدٍ ما من الأذان حتى يبدأَ مُؤَذِّنٌ آخر في بلدٍ آخر بالأذان "أشهد أن محمدًا رسول الله" وهكذا انتشر اسم محمد ﷺ متماوجًا في أرجاءِ الأرض.

أجل، لقد كانت سورة "الضحى" بشارةً للرسول ﷺ وجوابًا للمشركين في الوقت نفسه، كانت تقولُ: إنَّ الله لم يودِّعْك ولم يهجرْكَ، ثم تستمرُّ السورةُ قائلةً ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (سورة الضُّحَى: ٩٣/٥)، وعند الانتقالِ من سورة الليل إلى سورة الضُّحَى حيث توجدُ علاقةٌ واضحةٌ بينهما نرى أن سورة الليل تنتهي أيضًا بـ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (سورة اللَّيل: ٩٢/٢١)، وكذلك يرِد في سورة الضحى بأن الله سيعطيه حتى يرضى، أي إنَّ اللهَ سيعطيه في الدنيا وفي الآخرة حتى يرضى، ففي المحكمة الكبرى يوم القيامة يُقَالُ: "يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ"[٧٦]، وعند تمام النِّعَمِ يسأل

(٧٦) صحيح البخاري، أَحَادِيث الأَنْبِيَاءِ، ٣؛ صحيح مسلم، الْإِيمَان، ٣٢٢.

"هل رضيت؟" فيقول "نعم! رضيت"، إذًا ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۞ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (سورة الضُّحى: ٩٣/٩-١١). أجل، انظرْ وحدّثْ عن هذه الأمة المباركة والعظيمة تراها تمشي في أثرك منذ أربعة عشر قرنًا.

عندما يدخل الإنسان الروضةَ الطاهرة يستولي عليه إحساسٌ بأن الرسولَ ﷺ حيٌّ، وأنه سيقابلُهُ وجهًا لوجهٍ بعدَ قليل، فما أعجب هذه النضارة وتحدي الزمن! وما أعجب هذه الجدة والشباب بحيث أنه لا يزال حيًا في قلوبِنا وأفكارِنا حتى بعد مرور أربعة عشر قرنًا، والاحترام والحب الذي يحتله في قلوبنا يبرهن على أنه لا يزال يعيش في ضمائرنا، وهذا من النعم التي أنعمها الله عليه ليرضى، وأمره ربه بأن يتحدث بنعم الله عليه، فقام ﷺ ببيان هذه النعم كما ذَكَرْنا قبل قليل، ومن قَبيلِ التحدُّثِ بالنِّعَمِ قوله ﷺ "**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**"(٧٧)، ولكن الرسولَ ﷺ لم يكن يصلِّي أبدًا من أجلِ الحصولِ على اللذَّةِ الروحيّة فقط، ولعلّ في هذا إشارة إلى أصحاب الاستعدادات، فيجب أن تحتفظَ بالهمّةِ العاليةِ وبَذْلِ الجهدِ للوصولِ إلى هذه الحالة.

ومع كلِّ ما ذكرناه حتى الآن فإن أكثريّةَ الفقهاءِ يرون أن تعديلَ أركان الصلاة فرضٌ، وباستثناء الإمام أبي يوسف فإن علماءَ المذهب الحنفيّ يرون أنه واجب، ومعنى تعديل الأركان هو أداء أركان الصلاة بهدوءٍ ودون عجلة وبجوارحَ مطمئنة حتى نهايتها، وهذا مرتبط بوضعِ الجسد المادي في الصلاة، ودون رعاية هذا

(٧٧) سنن النسائي، عشرة النساء، ١؛ مسند الإمام أحمد، ٢١، ٤٣٣.

الوضع لا يمكن عدُّ الصلاةِ كاملةً وتامةً، وأنا أرى أنّ من الحيطة الاشتراك مع وجهة نظر الذين يعدُّون تعديلَ أركان الصلاة فرضًا، فما دام هؤلاء العلماء الذين يقولون بهذا قد نذروا أنفسهم لِفَهْمِ القرآن والسنة؛ لذا وجب الاحتياط الشديد عند الاقترابِ من الأمور التي اختلفوا فيها.

كما أنه ليس من حقِّنا إصدارُ الأحكام في حق المؤمنين بعد مشاهدة أحوالهم الظاهرة في أداء العبادات والطاعات، كما ليسَ من حقِّنا الوقوعُ في سوء الظنِّ والقول لهذا وذاك "إن حجَّكَ كان عبثًا ليس فيه إلا الجهدُ والتعب، وإن صلاتك لم تكن إلا قيامًا وقعودًا، وصيامك ليس إلا جوعًا وظمأً"، فسوءُ الظنِّ هذا ليسَ من أخلاق المؤمن، لأنَّ على الإنسان أن يتصرَّف كمدَّعٍ تجاه نفسه وكمحام تجاه المؤمنين الآخرين، فنقول عن أنفسنا "إنني أصلي كثيرًا، ومع هذا لا أستقبل من صلاتي فيضًا أو بركة، فهل تُقبلُ صلاتي وأنا في هذه الحال؟"؛ ثم نبدأ بتذكُّرِ فداحةِ ذنوبِنا.

أما بالنسبة للمؤمنين الآخرين فيكون حُسْنُ الظنِّ بهم شعارنا، اقتداءً منَّا بالنبيِّ ﷺ والصحابة والتابعين، إذ إنَّهم لم يؤوِّلوا أحوالَ المؤمنين تأويلًا سيِّئًا، ولم يقوموا بتجريم أهل الصلاةِ وأهلِ القبلة استنادًا إلى بعض تصرُّفاتهم السيئة، بل يجب حسنُ الظن بهم والتأكيد على الجوانب الجيِّدةِ من تصرُّفاتهم وعلى حسناتهم، فمن دخلَ حديقةً أو بستانًا لم يلتفِتْ إلى وجودِ بعضِ الأشواكِ فيها، بل يجب حصرُ نظرِه على الأزهارِ وعلى الثمار الموجودة فيها، وشعاره "خذ ما صفا، ودع ما كدر".

ففي عهد رسول الله ﷺ كان هناك شخص اسمه "نعيمان" يروى أنه اشترك في معركة بدر، وكان يصنع الخمر من العنب ويشربه، وقد ضُبِطَ سكرانًا، وعوقب في حضرة النبي ﷺ مرات عديدة، وفي إحدى المرات قال أحد الحاضرين بعد انصرافه: مَا لَهُ أَخْزَاهُ اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**"(٧٨)، أي إن الشيطان هو الذي يوسوس له هذا الأمر ويوقعه في هذا الإثم فأعينوه بطيب الكلام، وفي رواية أخرى فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللَّهُمَّ العَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**"(٧٩).

أي إنه كان يمدُّ يد العون لمن يحب الله ورسوله وإن وقع في الإثم مرات ومرات، فما كان رسول الله ﷺ تاركًا شخصًا يُحِبُّ الله ورسولَهُ في مثل هذه المحنة دون مساعدة، لذا يجب أن نكون واعين ويَقِظِين تمامًا في مثل هذه المواضع.

إن الله تعالى يُصْدِرُ أحكامَهُ حسب غلبةِ الخيرِ أو الشرِّ على أعمالِنا، وسنقف جميعًا أمامه يومًا، وحينئذٍ سنلتفت يمينًا وشمالًا فنرى ذنوبنا وقد بلغت قمة جبل "إفرست"، وقد نقع في اليأس عندئذٍ، ويبدأ كلُّ واحدٍ منّا في تذكُّرِ بعضِ أفعالِ الخيرِ والبِرِّ الصغيرةِ التي عملناها في الدنيا "لقد ناولت قدح الماء مرة إلى أمي، ومسحت حذاء والدي مرة، كما صليت صلاة الجنازة على رجل صالح، ودعوت مرة بين السجدتين بكلِّ حرارةٍ قائلًا: "رب اغفر وارحم"، ثم نتضرع إلى الله: "اللّهم! هل يمكن أن تكون هذه الأعمال

(٧٨) صحيح البخاري، الحدود، ٦.
(٧٩) المصدر السابق.

مجلبة لرحمتك وغفرانك؟" فإن كانت كذلك قلنا وقد اطمأن بالنا: "ما أحلمك يا ربنا!".

وما نأمله في حقِّ أنفسنا من الخير نستطيع أن نأمله في حقِّ جميع إخواننا المؤمنين، فإن رأينا فيهم بعضَ الجوانب السلبية بحثنا عن أعذار لهم وقلنا من يدري فلعل الله تعالى لم يشأ إعطاء ثمرات عملهم هنا في الدنيا، بل ادّخرها لهم للآخرة، وهذا هو السبب في مظهرهم الناقص والسلبي.. نقول هذا ونُحْسِنُ الظنَّ بهم.



طريق التفكر وأصوله وطريقته

سؤال: جاء في الأثر "تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَة"، فما طريق التفكر وأصوله وطريقته؟ وهل هناك وِرد أو ذكر خاص به؟ وأي الآيات أكثر دعوةً للتفكر؟ وهل يحل الدعاء الصامت محل التفكر؟

الجواب: أعتقد أنه عندما تم توجيه السؤال تم إعطاء الجواب عليه أيضًا، صحيح أن هناك حديثًا ضعيفًا يذكر أن تفكُّرَ ساعة خير من عبادة نافلة لمدة سنة، وفي رواية ثمانين سنة، قال ﷺ: "**تفكُّرُ سَاعَة فِي اخْتِلَاف اللَّيْل وَالنَّهار خيرٌ من عبَادَة ثَمَانِينَ سنة**"[80]، ولكن هناك آيات عديدة في القرآن الكريم تؤيِّدُ هذه المسألة ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٩٠).

أجل، إن في النظام المذْهِلِ الذي تجري ضمنه حركاتُ الشموسِ والأقمار وشروقها وغروبها لآيات لأولي الألباب، ففي هذه الآية دعوة صريحة للتفكُّرِ والتأمل.

وعن أمنا عائشة رضي الله عنها قالَتْ: "لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي قَالَ ﷺ: "**يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**"، قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ

(٨٠) الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب: ٢/٧٠.

وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالُ يُؤَذِّنه بِالصَّلَاةِ فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ ﷺ: "**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا:** ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ الآية كلها (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٩٠)"[٨١].

إن هذه الآية ومثيلاتها تُعَدُّ رائدةً ومرشدةً وفاتحة لطريق الفكر والتأمل، ولها دلالات خاصة في إيضاح أبعاد التفكر في الإسلام، ولكن يجب معرفة معنى التفكر، أولًا يجب أن يستند التفكُّرُ إلى معلومات أوَّليّة، وإلا فالتفكر الجاهل والأعمى لا يؤدي إلى شيء، ومثل هذا التفكر المنغلق لا يؤدي بعد حين إلا إلى الملل، ثم يدع الإنسانُ التفكر، لذا فمن الضروري للإنسان أن يعرف الموضوع الذي يتأمله ويتفكر فيه معرفةً جيدة، فيستحضره ويُجهِّزُه في ذهنه دائمًا، أي يجب أن يملك معلومات مُسبَقةً حولها لكي يستطيع أن يفكِّر تفكيرًا منظَّمًا ومَنهجيًا.

فإذا كان يعرف ولو شيئًا معقولًا حول الأقمار والنجوم وحركاتها وعلاقاتها بالإنسان، ويعرف شيئًا عن الفعاليات المدهشة للذَّرَّات التي تُشَكِّلُ الإنسان، وعن حركاتها؛ عند ذلك يُمكِنُ أن نُطلِقَ على عمليّةِ تفكيرِه بها عمليَّةَ تفكُّرٍ وتأمُّل، ولا نستطيع أن نقولَ لمن يذكرُ شيئًا عاطفيًا أو شعريًا حول حركة الشمس أو القمر إنه شخصٌ

(٨١) صحيح ابن حبان، ٣٨٦/٢؛ ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ١٦٦/٢؛ القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، ٣١٠/٤.

مفكِّرٌ، بل نقول عنه إنه شخصٌ ذو خيال، كذلك لا يمكن إطلاق صفة التفكير على بعض الطبيعيين، أي الذين يُرجعون كل شيء إلى الطبيعة، أما العديد من الكتّاب والشعراء المشهورين في عهد الجمهورية فلا يستحق منهم إلا عدد ضئيل لا يتجاوزُ أصابعَ اليد الواحدة صفة المفكّر، أما هذا العدد الضئيلُ فقد حُوربوا وطوردوا ولم يسمح للمجتمع أن يعرفهم ولا أن يشتهروا.

في هذا العهد هناك عددٌ قليلٌ من الذين حاوَلُوا أن يبحثوا في ماهية الوجود والأشياء، ولكنهم لم يستطيعوا أبدًا الوصولَ إلى حقيقتهما، صحيح أن الإنسان عندما يقرأُ شِعْرَ شعراء الطبيعة ووصفَهم لخرير الماء ولقطرات الأمطار وهمهمة الأشجار وتغريد الطيور يُحِسُّ كأنه في الجنة؛ ولكن لكونهم محرومين من حِسّ الآخرة ولكونهم أعداء الماضي وجهلاء الحاضر فإنهم لن يصلوا إلى أيِّ نتيجةٍ، بل يبقون ضمن نطاقِ هذا العالم الظاهريِّ، ولا يستطيعونَ النفاذَ إلى خلفِ أستارِ هذا العالم وحُجُبِهِ، لأنهم يشبهون مسافرًا بقاربٍ صغيرٍ ذي مجدافٍ واحدٍ يدور حول نفسه في محيطٍ شاسعٍ لا نهاية له، وترى انسدادًا وانغلاقًا في كلِّ ناحية من نواحي تفكير هؤلاء، وما يُطلِقُهُ هؤلاء على أنفسهم من صفة التفكيرِ لا يعدو عن كونِه شعورًا منهم باليأس والألم أمام هذا الانسداد والانغلاق، ومن الطبيعي ألا تكون هناك أيُّ فائدة من مثل هذا النمطِ من التفكر.

من أجل التأمل والتفكر يجب أوَّلًا توفُّرُ معلومات أوليّة، ومعرفة لحقيقة الوضع الحالي، وإجراء تراكيب فكرية متلائمة مع الذات، أي "غير مقلّدة"، وتوفر مخزونٍ فكريٍّ ورغبةٌ ومعاناة للألم في سبيل

البحث عن الحقيقة، والشخص الذي يستطيع التفكُّر على هذا النحو وبشكل مستمرٍّ، يستطيع الوصولَ إلى أشياء وآفاق جديدة، وعندما يجعل هذه الآفاق الجديدة بداية لحملةٍ فكريةٍ أخرى يستطيع الوصول إلى نتائج جديدة وإلى عمقٍ فكريٍّ أبعد، ثم يستطيع تحويل فكرِه ذي البُعدِ الواحدِ أو ذي البُعدين إلى فكرٍ ذي ثلاثة أبعاد أو أكثر، أي يصبح بمرور الوقت "ذا الجناحين" في عالم الفكر، فيصل إلى مستوى الإنسان الكامل.

إذًا فالأساس الأول للتفكُّر هو التعوُّدُ على القراءة وعلى مطالعةِ كتاب الكون، ثم فتحُ صدره وقلبِه للإلهامات الإلهية، وعقلِه لمبادئِ الشريعةِ الفطريةِ، والنظرُ إلى الوجود بعدَسة القرآن الذي يُعَدُّ الكتابَ المقروءَ للكون، هذه هي شروط التفكُّرِ، وإلا فإنَّ النظرَ السطحيَّ إلى الأشياء، ومعرفةَ أن هذا النجمَ هو الزُّهرة، وأن مغيب الشمس سيكون هكذا، وأن المرّيخ في الموضع الفلاني... إلخ، مثل هذا الجمعِ العشوائي للمعلومات الذي لا غاية له ولا هدف لا يمكن أن يكون تفكُّرًا ولا يمكن أن يؤدِّي إلى نتيجة أو إلى غاية، ومن المشكوك فيه استحقاقُهُ لأيِّ ثواب.

والسببُ في كونِ ساعةٍ من التفكُّرِ والتأمُّلِ تُعادِلُ كذا سنة من العبادة، هو أن الإنسانَ يستطيعُ في ساعةٍ واحدةٍ من التفكُّرِ الصحيح المثمِرِ تغذيةَ أُسُسِ إيمانه وتقويتَهُ، فتبرقُ في نفسه أنوار المعرفة وتومضُ في قلبه المحبَّة الإلهيَّة، فيصل إلى الأشواق الروحية ويطير في أجوائها.

وهكذا فإن أي إنسان يسلك هذا الطريق من التفكر يستطيع الوصول إلى مرتبة لا يصل إليها شخص آخر -محروم من هذا الأسلوب في التفكُّر- في ألف شهر، أي يحصل هذا المتفكر على مكاسب كبيرة، أما من لم يستطع التوجُّهَ إلى ربه بهذا الشعور والفهم فإنه إن ولّى وجهه قِبَلَ المشرق والمغرب مائة سنة لا يستطيع تسجيل خطوة واحدة إلى الأمام، ولا يعادلُ ما فعلَهُ ساعةَ تفكُّرٍ واحدة، ولكن هذا لا يعني أن قيامه بالعبادة مائة سنة ذهب سدًى، فلن يُضيع الله أجرَ ركعةٍ واحدةٍ ولا سجدةٍ واحدة: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (سورة الزَّلْزَلَةِ: ٩٩/٧-٨)، أي إنَّ كلَّ شخصٍ سيلاقي جزاء ما عمله، وعلى هذا الأساس فإن هذا الشخص أدّى وظيفةَ عبوديته وأسَّسَ نوعًا من العلاقة بينه وبين ربه، ولكنه لم يصل إلى المرتبة التي يتمُّ التوصل إليها بالتفكُّر. أجل، إن مثل هذا المستوى من التفكر قد يقابل مائة عام من العبادة.

هناك سؤال آخر مطروح وهو "أيوجد هناك وِرد أو ذكرٌ خاصّ يشكل أساسًا أو وسيلة للتفكُّر؟ وهل يستطيع وِردٌ أو ذِكرٌ معيّنٌ توسيعَ تفكُّر الإنسان؟".

يتعلَّق هذا أيضًا بمقدار الشعور والفهم والإحساس الذي يتمُّ به هذا الورد أو الذكر، مثله في ذلك مثل مطالعة كتاب الكون، فالدعاء الذي يتمُّ بشعورٍ وإحساسٍ والمناجاةُ الضارعة المملوءة عاطفةً ووجدًا تستطيع فتحَ أكثرِ المفاتيح صداً داخل الإنسان، غير أنني لا أستطيع ذكر من أين وكيفَ يتمُّ اختيار مثل هذا الورد أو الذكر، ذلك لأن هذا الأمر يختلف حسب القابليات وحسب الاستعدادات،

كذلك حسب إيمان الأشخاص وقناعاتهم، لذا فمَن أراد قرَأ "الأوراد القدسية" أو "المأثورات" أو الأوراد التي كان يقرؤها الشيخ الشاذلي أو أوراد الشيخ الجيلاني أو أحمد الرفاعي أو أوراد أحمد البدوي قدس الله أسرارهم، وعندما يقرأُ الإنسانُ أوراد هؤلاء السادة العظام يحسُّ وكأنهم في جانبه وبالقرب منه، فلا يشبع من لذَّةِ الأشواق التي تغمرُ قلبه، كم أتمنى لو أن الجميعَ قرؤوا هذه الأوراد واستفادوا منها، لأنهم يُجَدِّدُون بذلك أنفسَهم ويقوُّون صلتهم بالله تعالى.

وأمرٌ آخر في هذا الخصوص: أتَحلُّ الآياتُ الداعيةُ إلى التفكُّر والمقروءةُ بشكلٍ صامتٍ مكانَ التفكُّرِ؟

والجواب: إن لم يستطع الإنسانُ فهمَ ما يقرؤُهُ ويُرَدِّدُهُ فلا يستطيع الانسجام معه والتعمُّقَ فيه، ومع هذا يتحقَّقُ له الثواب، ولكن لا تتحقَّقُ ناحية التفكُّر هنا، والتفكُّرُ يأتي من كلمة "الفكر"، أي عملية ضمِّ الوقائع بعضها مع البعض الآخر وإجراء تركيب بينها.. صحيح أن وضع علاقة بين السبب وبين النتيجة أي بين العلّة والمعلول وتقوية العلاقة بين العبد والخالق يُعَدُّ تفكُّرًا، إلا أن الأوراد التي لا توصل إلى مثل هذه العلاقة المقدَّسَةِ وإن كانت هذه الأوراد تعود إلى رجال كبار وعظام إلا أنها لا تُعَدُّ تفكُّرًا ولكنها تَعِدُ بالثواب، ولكي تُعدّ تفكّرًا فإنها متعلِّقة بدرجة قيامها بإثارة الروح والقلب وبدرجة تعميقِ علاقتنا مع ربنا وتقويتها.

نسألُ الله التوفيق، ولا ننسى أن نذكر بأن التفكُّرَ هو من أندَرِ الأمورِ في أيامنا الحالية، فإن قلنا بأن إنساننا الحالي مقصِّرٌ جدًّا في هذا الأمر فلا نكون مبالغين أبدًا.



إنقاذُ النيّةِ للإنسانِ

سؤال: هل يمكن لمجرد النيَّةُ أن تنقذَ الإنسان في الآخرة؟

الجواب: النية التي تشوّق إلى العمل تستطيع إنقاذ الإنسان، أما النية التي لا تتحول إلى عزْم وجهدٍ فلا تستطيع ذلك أبدًا، النية تعني قصدًا وتوجُّهًا وعزمًا وشعورًا، بالنيَّةِ يَعْرِفُ الإنسانُ ما يريده والجهةَ التي سيتوجه إليها؛ فَيَصِلُ إلى شعورٍ بالعثورِ على شيءٍ والحصولِ عليه.

علاوةً على أن النيّةَ أساسُ الأفعالِ جميعها، فهي وسيلة لكل الاتّجاهات والميول التي ينسبُها الإنسان لنفسِهِ، كما أن أمتنَ قاعدةٍ للإرادةِ وأسلمَ أساسٍ لقابليَّةِ الإنشاء في الإنسان هو النيّة، بل نستطيع أن نقول إن كلَّ شيءٍ في الكون ولدى نفس الإنسانِ اعتبارًا من بدايته وامتدادًا إلى استمراره ودوامه متعلقٌ بالنية، فبدون الاستناد إليها لا يمكن لأيِّ شيءٍ أن يكتسب وجودًا ولا يمكن له الاستمرار.

كلُّ شيءٍ يبتَدِئُ انطلاقًا من تصوُّرٍ في الذهن، ثم يتمّ الانتقالُ إلى التخطيطِ ثم إلى تحقيقه بعزم وإصرار، وكما أنه لا يمكن الشروع في أيّ عمل دون وجود هذا التصوُّرِ والتخطيط الأوليّ؛ كذلك فإن أيَّ تصوُّر أو تخطيطٍ لا يصاحبه عزمٌ وإرادةٌ لا يؤدِّي إلى أيِّ نتيجةٍ ويظلُّ عقيمًا.

وهنـاك أشـياء كثيـرة تُشـيرُ إلـى القـوَّةِ التي تملكُهـا النيّـة، غير أن العديديـن ممـن لا يملكون المقـدارَ الكافيَ من الشـعورِ بالحياة التي يعيشونَها لا يُدْرِكون تلك القوَّةَ وتأثيرَها.

والنية مهمَّةٌ أيضًا من ناحية حسـنات الإنسـان أو سيّئاته، فهي من هـذه الناحيـة إمـا إكسـيرٌ وشـفاءٌ له، أو طوفـانٌ عاتٍ يقوم بسـلبِ كل أعمـال الإنسـان وجعلهـا أثـرًا بعـد عين، فكـم من عملٍ صغيـرٍ كحبَّةِ قمـحٍ تضاعَـفَ بالنيـة الصالحـة فأصبـح ألفَ سـنبلةٍ، وكـم مـن قطرةٍ انقلبَتْ إلى نهرٍ وإلى سيلٍ، وكم من عملٍ بضخامةِ الجبالِ بقيَ عقيمًا دون ثمرةٍ بسببِ نيَّةٍ غيرِ صالحةٍ.

الركـوع والسـجود والصـوم وحتـى تجنب بعض الأمـور المباحة مخافـة أن تكـون مـن المشـتبهات؛ كلُّ ذلـك إن تَـمَّ أداؤهُ بشـعورٍ تامٍّ مـن العبوديـة فإنّـه يرفـعُ العبدَ إلـى درجـاتٍ عليـا فـي عوالـم سـامية ويجعلـه سـلطانًا، بينما قد يتمُّ إجراءُ نفـسِ الحركات ونفسِ الأعمال وأضعافهـا، فـلا يحصل فاعلُها إلّا على النَّصَبِ والتَّعَبِ إن لـم يُسْبَقْ ذلك كلُّه بنيَّةٍ صادقة، بمعنى أن الإنسان يرتقي ويكون لائقًا بمخلوقٍ خلقه الله في أحسن تقويم بإتيانه لبعض الأمور وإعراضِه عن البعضِ الآخـرِ رغبـةً فـي الحصول على الرضا الإلهيِّ؛ لأن كلَّ عملٍ أو جهدٍ خارج الرضا الإلهي لا يُفيدُ شيئًا.

النيَّـةُ الحسـنةُ إكسـيرٌ يُحـوّل العـدمَ وجـودًا، والنيَّـةُ السـيّئةُ تُحوِّلُ الوجـودَ عدمًـا وتمسـحُ تأثيـرَهُ، فكـم مـن قتيـلٍ مُضـرَجٍ بدمائـه فـي الغزوات لكنّه تدحرج بِسوءِ نيَّتِه إلى الجحيم! وكم من محتضَرٍ على وسائد ليّنَةٍ طارَ بِطُهْرِ نيَّتِه إلى الجنة! فإلى جانب الذين قاتلوا الأشرار

في سبيلِ مستقبَلٍ إيمانيٍّ زاهرٍ نرى العديدَ ممن دَخَلُوا المعاركَ في سبيلِ مصالحهم الشخصيّة؛ فبينما يرتفع الأوَّلون إلى أعلى عِلِّيين؛ يتردَّى الآخرون إلى أسفلِ سافلين.

النية مفتاحٌ سحريٌّ يستطيعُ أن يقلبَ حياتَنا المؤقّتة هذه إلى حياةٍ خالدةٍ أو إلى حياةِ شقاءٍ وعذاب، والذين يحسنون استعمال هذا المفتاح استعمالًا جيِّدًا لا تبقى في حياتهم ناحية مُظْلِمَة، بل ستشعُّ حياتهم نورًا ويصلون إلى الحياة المطمئنّة الخالدة، ذلك لأنه عندما تؤدَّى الواجباتُ اليوميّة والأسبوعيّة والشهريّة بإخلاصٍ فإنَّ الفضائِلَ المترتِّبَةَ على هذه الواجبات والثواب لا تنحصر ضمن زمن الأداء، بل ستحتضِنُ كلَّ دقائق وثواني الحياة وتشملها بتأثيرها، فالجندي المتهيِّئ للجهاد سينالُ حصته من ثواب المجاهد حتى خارج أوقات الجهاد الفعلي؛ كما أن المرابط الذي يتناوب في حراسة حصنٍ أو موقعٍ عسكريٍّ سينال ثواب عبادة عابد طوال شهور وشهور.

فهذا هو السرُّ في أن المؤمن يستطيعُ في حياة مؤقَّتة الوصولَ إلى السعادة الأبدية وإلى الخلود، أما المنْكِر فيكون من نصيبه الشقاء والندَم الأبدي، وإلا كان من المفروض حسب اقتضاء العدالة الظاهرية أن يُثابَ الإنسانُ بِقَدْرِ عبادتِه وفضيلتِهِ، أو يعاقَبَ بِقَدْرِ ضلالته وآثامه، أي أن يبقى الإنسان الصالح في الجنة بعدد السنين التي عاشها صالحًا، وأن يبقى الإنسان الآثم في جهنم بعدد السنين التي عاشها في الدنيا آثمًا، لكنَّ الخلود سواء للصالح أو الآثم هو نقطة الوصول الأخيرة التي لا يمكن التفكير فيما وراءها.

وهكذا تكمنُ السعادةُ الأبديَّةُ أو الشقاء الأبدي في نيَّة الإنسان، فكما يكونُ فِكْرُ الإيمان الأبدي والاستقامة وسيلةً إلى السعادة الأبدية يكون فكرُ الكفر الأبدي والانحراف وسيلة إلى الشقاءِ الأبدي.

قد يمتلِئُ قلبُ الإنسان بشعور العبودية في اللحظات الأخيرة من حياته ويعتزم قضاء عمره في هذا الاتجاه -وإن بلغ من العمر آلاف السنين، وعند ذلك يعامل في ضوء هذا العزم وهذه النية، ويُجازى بِنيَّتِه وكأنَّها عملٌ حقيقي، لذا كانت "**نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ**"(٨٢)، كما أن الملحِد إن كانت نيَّتُهُ في لحظاته الأخيرة متوجِّهَةً إلى دوام هذا الإلحاد والإنكار حتى وإن استمرَّ عمرُهُ ألفَ أو مائةَ ألفِ عام فإنّه يُعامَلُ أيضًا باعتِبارِ نيَّتِه هذه ويعاقَبُ على ضوئها.

إذًا فإن الأساسَ في هذا الموضوع ليس الحياة المحدودة والمؤقَّتَةَ التي يعيشُها الإنسان، بل نيَّتُهُ المتوجّهة إلى المستقبل، وتجلِّيات هذه النية والإيمان بالسعادة الأبديّة ونيلها -وليسَ امتدادُ العمر ملايين السنين- هو الذي يهب الجنة الخالدة للمؤمن ويعطي جهنم الخالدة للكافر.

وكما أنَّ المنكِرَ والملحدَ الذي يعتَنِقُ الكفرَ عن علمٍ وعن سابقِ قصدٍ سيلقى عقابَهُ؛ فإن الشيطان الذي يكون سببًا في الكفر والآثام سيلقى عقابًا ليست له نهاية، والحقيقةُ أن الشيطان حسب فطرته يقوم بواجباتٍ وأعمالٍ كثيرةٍ، إذ لا ينكر أثره في توسيع الكثير من قابليات واستعدادات الإنسان وتطويرها وفي تصفية المعادن الصلبة

(٨٢) الطبراني: **المعجم الكبير**، ١٨٥/٦؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ١٧٦/٩.

الموجـودة فـي فطرة الإنسـان وفي ظهورها، بل حتى فـي بقاء الروح والقلب على أهبة الحذر والاستعداد على الدوام.

أجل، إنه يتسـلَّطُ على الفردِ وعلى المجتمَـعِ فيَبذُرُ بذورَهُ السـامّة فـي نفوسِـهم ويحـاوِلُ أن يجعلَهـا مزرعةً للآثام، وأمـام هذه الجهود المبذولـة مـن قِبَلـه لسـوقِ النفوسِ نحو الانحرافِ تسـتيقظُ المشـاعرُ المعنويّة لدى الإنسـان، وتُصْبِحُ في حالة تأهُّبٍ قصوى، تمامًا مثلما تتأهَّبُ وسائلُ الدفاع في الجسم ضد الجراثيم، وهذا يؤدي إلى نموّ وتطـوُّرِ اللطائـف الإنسـانية وقوَّتها، لأنه يدفـع الإنسـان إلى الالتجاء إلـى الله تعالـى مـرة بعـد أخـرى مـن شـرِّ عـدوِّه الأبـديّ، وهـذا يعني كسبًا كبيـرًا بالنسـبة للحيـاة القلبيّة والروحيّة للإنسـان مقابـل احتمالٍ ضئيـلٍ مـن الضـرر، ومثل هذا التأثير المعنـوي يُثيرُ روح الكفاح لدى الإنسـان ويدفعـه لليقظـة والحذر، وكـم أدى هذا إلـى تصفية المعادن وترقِيَتِهـا إلـى ذهـبٍ خالـصٍ، وظهورِ الكثيـر من الأوليـاء والأصفياء أبطالًا عظامًا ومجاهدين كرامًا.

ومـع أن الشـيطان كان وسـيلةً لظهـور مثـل هـؤلاء الأشـخاص الممتازيـن وإكسـابِهم مراتـبَ عُليـا إلّا أنـه لا يسـتحقُّ أيَّ مكافـأةٍ في هـذا الخصـوص، ذلـك لأنـه لـم يفعـلْ مـا فَعَلَهُ لكـي يتسـامى هؤلاء الأشـخاص مـن المتفانيـن فـي حـبِّ الله، بل لكـي يغرقوا فـي الآثام، إذًا فنِيـّةُ الشـيطان سـيّئَةٌ وعملُـهُ سـيّئٌ أيضًا، لذا يتـمُّ التعامل معه على أسـاسِ نيَّتِـه السـيئة وعملِـه السـيِّئِ، وليـس على أسـاسِ ما تسـبَّبَ به مـن سـموٍّ للآخريـن، فَنِيَّـةُ الشـيطانِ سـيئةٌ وكذلـك عملُه، فهـو يدعو

إلى العصيان عن سابق تصميمٍ وإرادة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۞ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۞ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۞ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ٧/١٢-١٦)، فهذا العصيان اختيارٌ لِطريق الكفر والجحودِ عن سابقِ شعورٍ وقصدٍ، أما قسَمُه ويمينُه بأنه سَيُغوي البشريّة فهو أساس المأساة الإنسانية المستمرَّة دون توقُّف.

لذا فهذا العزمُ والتصميمُ للشيطان وإن أدّى إلى يقظة بعضِ المشاعرِ لدى الإنسان، وإلى سَوقِه إلى بعض الفضائل كنتيجةٍ لِهذه العداوة؛ إلا أنّه لا يُكسب الشيطان أيَّ مكافأة، لذا نستطيع أن نقول كخُلاصة، إن النية هي كل شيء بالنسبة للمؤمن، فهي التي تُكسِب الحياة للسلوك الفرديِّ، وهي التي تقلبُ حياة المؤمن إلى مزرعةٍ تعطي مقابل الواحد ألفًا، وهي التي تفتح أبواب ونوافذ الخلود على الحياة الدنيا المحدودة والقصيرة، كما أنها هي التي تهيّئُ الشقاءَ الأبدي والخسران الأبدي، "**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**"[٨٣].

(٨٣) صحيح البخاري، بدء الوحي، ١؛ صحيح مسلم، الإمارة، ٤٥.



الفرقُ بين حبِّ نبيِّنا لأمَّتِه وحبِّ باقي الأنبياء لأمَمِهم

سؤال: هل هناك اختلاف بين حبّ نبينا ﷺ لأمَّته وحبِّ الأنبياء الآخرين لأممهم؟ وما مدى حبِّه ﷺ لأفرادِ أمَّتِه؟

الجواب: السؤال يشتملُ على بضع مسائل أُولاها: التعرُّف على الفرقِ بين محبَّة النبي ﷺ لأمته وبين محبة الأنبياء الآخرين لأممهم، ثم معرفة مدى محبّة سيد العالمين عليه الصلاة والسلام لأفرادِ أمَّتِه.

لا شكَّ أن كلَّ نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام يُحِبُّ أمَّتَهُ، وقد يقصد بهذا الحبِّ أحيانًا المحبة، وأحيانًا أخرى الشفقة، وكلتاهما تتبوَّأُ أعلى مرتبة لدى الأنبياء، لكن كما أن هناك تفاوتًا في الدرجات بين الأنبياء فكذلك هناك تفاوتٌ بينهم في المشاعر والأفكار، وبناءً على هذه الحقيقةِ نجدُ أن المحبَّةَ التي تفيض بها قلوب جميع الأنبياء هي في درجة أرقى وأعظم لدى نبينا محمد ﷺ، وخيرُ شاهد على ذلك أن الله ﷻ وهو يتحدَّثُ عن محبَّتِه ﷺ وصفه باسمين من أسمائه فقال: ﴿**رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة التَّوْبةِ: ٩/١٢٨)، فهو مُعَلِّمُ الشفقة والحبِّ للمؤمنين.

إن النبي ﷺ يفيضُ قلبُهُ شفقةً ومحبَّةً لأمَّتِهِ؛ لدرجةِ أنه يقول يوم القيامة والناس يموجون بعضهم في بعض: "**أمَّتي أمتي**"[٨٤]، رغم أن الجميع بمن فيهم الأنبياء والأولياء يقولون "**نفسي نفسي**"[٨٥].

(٨٤) صحيح البخاري، التوحيد، ٣٦.
(٨٥) صحيح مسلم، الإيمان، ٣٢٧.

لَكَـمْ كانـت شـفقتُهُ عظيمـةً ومحبتُـه بالغـةً! لدرجة أنـه رجـعَ عن القمَّـةِ التـي ارتقاهـا في رحلةِ المعراج، وعن المقام السـامي الذي لـم يَصِلْ إليه أحدٌ سواه؛ حتى يأخذ بيَدِ أمَّتِه إلى طريقِ النجاة، فيجعلهم يتذوَّقون حلاوةَ هذا المعراج، بينما هو يتجرَّع الآلام.

إنهـا شـفقةٌ جعلـت الملَـك يتألـم ويستشـيطُ غضبًـا ويقـول لنبينـا ﷺ: "إِنْ شِـئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَـبَيْنِ؟"، لما رأى هؤلاء السـفهاء يضربونـه بالحجـارة حتَّـى أسـالوا دمَـهُ الشـريفَ، فقـال لـه النبـي ﷺ: "**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْـرِكُ بِهِ شَيْئًا**"(٨٦).

إن شـفقتَهُ ومحبَّتَـهُ ﷺ بهـذا المعنـى عظيمـةٌ لدرجـةٍ لا يمكـنُ مقايسَتُها مـع شفقةِ أو محبَّةِ أيِّ نبيٍّ آخر.

وتاريـخُ حياتِه ﷺ كَنَسِيجٍ حِيكَ بمئاتٍ من أمثلةِ الشفقةِ والرحمة، أما الناحية الروحية للمسألةِ فليسَ بالإمكان أن نستوعبَها.

وأنوه هنا قبل الانتقال إلى مسألة الحبّ بين أفراد أمَّتِه ﷺ بقاعدةٍ سـاريةٍ علـى جميـع الأنبياء، وهي: أن كلَّ نبـيٍّ يحبُّ على الأكثر من أمَّتِه الوارثين لنبوَّتِهِ، وهذه قاعدةٌ عامّةٌ، ورسول الله ﷺ لا يخرج عن هـذه القاعـدة؛ لأن غاية وجودِ جميـعِ الأنبياء هو تبليـغ معاني النبوة، فلـم يتركـوا لِلْخَلَـف تركةً من مالٍ ومنصب، أما التركـةُ الوحيدةُ التي تركوها لهم فهي الدين ومبادئه، ولا ريب أن من سيحمي هذا الدين هم أكثر قربًا وحبًّا للأنبياء كل حسب درجة أسبقيّته، يروى عن النبي ﷺ أنه قال:

(٨٦) صحيح البخاري، بدء الخلق، ٧؛ صحيح مسلم، الجهاد والسير، ١١١.

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي"(٨٧).

وهـذا التوجـه لأهـلِ البيـت ليـس بسـببِ القرابـةِ فقـط، بـل هناك سـرٌّ دقيـقٌ فـي هـذا الأمـر، وبناءً علـى هذا السـر يوجِّهُ رسـول الله ﷺ أنظارَنا إلى أهل البيت؛ لأن أهلَ البيت النبويِّ بحكم فطرتهم يحمون ويرعون كتاب الله وسنَّةَ رسول الله ﷺ، وكأن رعايتهم في العهود التي تليـه هـي فـي الوقـت ذاته رعاية وحمايـة لهذا الدين، وبنـاءً على هذه الحكمة لفتَ نبينا ﷺ أنظارَنا على الأكثر إلى أهل البيت.

ومن ناحية أخرى يُعَدُّ سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي ﷺ الوارثين لرسول الله ﷺ في تمثُّلِ دعوته وحماية معنى النبوَّة، بل هم الوارثون الحقيقيُّون لرسول الله ﷺ.

وانطلاقًـا مـن هـذه النقطـة نجد أن الصحابـة الكرام هـم أوَّل من حـازوا قصبَ السَّـبْقِ في حمايتهـم ورعايتهم ومؤازرتهم لدعوةِ النبي ﷺ، ثـم خَلَفَهُـم أهـلُ البيـت الذيـن انحـدَرُوا مـن هـذا النسـلِ الطاهر وتمثّلـوا الإسـلام فـي عصرهـم علـى أكمـل وجـه، ووهبـوا الحيـاة للقلـوب، وكانـت الأولوية بالطبـع للحياة الدينية وخدمة الدين؛ ولذا يُعَـدُّ كلّ الوارثيـن لدعـوة النبي ﷺ فـي أيِّ عصرٍ كان؛ هـم مـن أهل البيت وأقرب المقربين له.

ومـن ثـم فليـسَ مـن الخطـإ أن يقـال إن المؤمنيـن الذين كرَّسـوا حياتهـم لِأَداء الخدمـات الدينيّـة في عصرنا الحالي هـم وارثو النبوَّة؛ لأنهـم وارثـون لدعـوى النبـوة، وإذا مـا نظرنـا إلـى المسـألة مـن هذه

(٨٧) سنن الترمذي، المناقب، ١٠٣.

الناحية ما ألفينا اختلافًا بين سيدنا أبي بكر ﷺ وغيره من الصحابة، لأنهم جميعًا وارثوا دعوى النبوة، لكن لو اجتمعت كلُّ الأمة في الفضيلة الخاصَّةِ ما استطاعت أن تُساوي أبا بكر ﷺ.

وهذا يعني أن من عاشوا في عهده ﷺ ومن عاشوا فيما بعد أيًّا كانوا سيصبحون أهلًا لمحبته ﷺ بقدر رعايتهم لدعوى النبوة وحمايتهم لها.

وهكذا فبناءً على الآية الكريمة التي تقول: ﴿**مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٩٩)؛ تُعَدُّ مهمة التبليغ هي الوظيفة الوحيدة الملقاة على عاتق الأنبياء، وهي الوظيفة الملقاة أيضًا على عاتق المؤمنين الذين جاؤوا من بعده ﷺ ويعتبرونه مرشدًا لهم؛ وهذا يعني أن وظيفَتَنَا نحن أيضًا هي الاقتداء به والتبليغ ليس إلّا، وعلى ذلك فنحنُ نعتبر أنفسَنَا أكثر الناس حظًّا في هذا العالم لتبعيَّتِنا له ﷺ.

وهنا أيضًا ألفتُ أنظاركم إلى وجهةٍ أخرى للمسألة:

إن وضعَ وارثي النبوَّة ممَّن رأوا الحبيبَ المصطفى ﷺ يختلفُ عن وضع من لم يَرَ النبيَّ ﷺ، فالأوَّلون قد شاهدوا نورَ نبوته ﷺ، ونشؤوا في كوكبه المنير، واستضاؤوا بنوره، ووقفوا على كلِّ أحواله، وعاشوا في جوٍّ كان يتنزل فيه الوحي مرارًا وتكرارًا على رسول الله ﷺ وشعروا شعورًا بالغًا بدفءِ الوحي، رباهم الأستاذ والمعلم الجليل ﷺ، فأبدى لهم محبَّةً واهتمامًا خاصًّا أكثر من غيرهم، وأعزهم ورفع من شأنهم، ولعل استلطافه ﷺ لهم بقوله ﷺ: "**مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي**

فَعَلَيْه لَعْنَةُ اللهِ"(٨٨)، "**مَثَلُ أَصْحَابِي مَثَلُ النُّجُومِ، مَنِ اقْتَدَى بِشَيْءٍ مِنْهَا اهْتَدَى**"(٨٩)، هو أفضلُ تعبيرٍ وأعظمُ أسلوبٍ يليقُ بمن اجتمعَتْ فيه كلُّ صفاتِ الكرم ﷺ، فقد كانوا أكثر الناس حُبًّا له بين البشرية، وقد بادَلَهُم النبي ﷺ هذا الحبَّ وأحبهم هو أيضًا.

فضلًا عن ذلك فإن النبي ﷺ بقولِه هذا قد لقّن القادة والساسة الذين يأتون من بعده ويسوسون الناس درسًا حكيمًا، ورسم لهم منهجًا خاصًّا يسيرون عليه، فلا بد أن يُقدَّم مَن يقفون ويكافحون في الصفوف الأمامية في كلِّ عصرٍ ومصرٍ، ويُفضَّلوا على غيرهم.

وهذا دَينٌ علينا أن نوفيه، ونبيُّنا ﷺ من هذه الجهة يتربَّع على القمة بين الناس، فلا يمكن أن ترى إنسانًا آخر أوفى منه ﷺ.

روي عن عَمْرو بْنِ العَاصِ ﷺ، "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلاَسِلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: "**عَائِشَةُ**"، فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: "**أَبُوهَا**"، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "**ثُمَّ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ**" فَعَدَّ رِجَالًا"(٩٠).

وأظن أنه لا داعي هنا لإيضاح الفرق بين الحُبِّ وتحمُّل الوظيفة، كان ﷺ ذا فطانة لا مثيل لها في استخدام كلِّ شخصٍ في موقعِه المناسِبِ، وأين وكيف يستخدم هذا الشخص، ولا نكاد نجدُ حادثةً أثبتَها التاريخُ تخالفُ ما ذكرناه، ولا ريبَ أن الشخص الذي يعهد له النبي ﷺ بأيِّ وظيفة فإنّه من أفضل من يُمَثِّلون هذه الوظيفة.

(٨٨) ابن أبي شيبة: **المصنّف**، ٤٠٥/٦؛ البزار: **المسند**، ١٥٥/١٢؛ الطبراني: **المعجم الكبير**، ١٤٢/١٢.

(٨٩) القضاعي: **مسند الشهاب**، ٢٧٥/٢.

(٩٠) **صحيح البخاري**، المناقب، ٣٤؛ **صحيح مسلم**، فضائل الصحابة، ١.

وكما اصطفى الله تعالى سيِّدَ الكونين ﷺ من بين الخلق اصطفى أيضًا صحابته، وهذا يعني: أن النبي ﷺ كان يتحلّى بخصال النبوة منذ ولادتِهِ؛ لأن كلَّ تصرفاته وسلوكياته في مرحلة الطفولة كانت بمثابة تدعيم لموقفه فيما بعد.

فمثلًا لم يحدث أن كشفَ النبي ﷺ عن أعلى ركبتيه إلّا مرة واحدة في وقت كان أهل الجاهلية يطوفون عراةً حول الكعبة كما ولدتهم أمهاتهم، وفي هذه الواقعة الوحيدة جاءه الملك ونبَّهَهُ؛ ومن ثم كان اسمه ﷺ هو أول الأسماء التي تخطر على البالِ عند الحديث في مكة وما حولها عن العفَّة والشرف والحياء حتى قبلَ أن تُسند إليه مهمة الدعوة.

كان صاحب عصمة، لم يرتكب ذنبًا قطّ، ولم يبزّه أحد في الوفاء بالوعد والصدق والأمانة، حتى كان يلقَّبُ بالصادق الأمين، عاش حياةً غايةً في النقاء والطهر، ولم يلتفت إلى هذه الدنيا بتمامها، ويا لها من كلمات ذات مغزًى عميق؛ تلك التي خاطبه بها أقرب أصحابه إليه سيدنا أبو بكر ﷺ عندما رأى وجهه الأزهرَ الأنورَ، وجسده المبارك المسجّى: "فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا"[٩١]، بهذه الجملة استطاع سيدنا أبو بكر ﷺ أن يُلخِّص حياة رسول الله ﷺ من بدايتها إلى نهايتها.

ببراءة طفل فتحَ نبينا ﷺ عينيه على الدنيا، وبحياته الراقية بلغ براءة الملائكة، ثم ارتحل إلى الآخرة في علوّ شأنه وسموّ ذروته بشكلٍ لا يستوعبه عقلٌ.

(٩١) صحيح البخاري، المناقب، ٣٣.

من أجل ذلك لم يستطع مشركو مكة أن يقحموا بين افتراءاتهم التي لا تنتهي ولو كلمة واحدة تنالُ من أخلاق رسول الله ﷺ، رغم أنهم كانوا يفترون عليه افتراءات لا يقبلها أي عاقل، فمثلًا قالوا عليه: ساحر وشاعر، لكن ما استطاع أحد أن يعزوَ إليه الكذبَ أو المكرَ أو غير ذلك حاشا وكلا، وكأن الله ﷻ ألجمَهم وكمَّمَ أفواهَهم بأخلاقِ رسوله الطاهرة.

لقد جاء النبي ﷺ لِيُمَثِّلَ دعوةً عظيمةً، وكما خلقَهُ ربُّهُ ﷻ خلقًا خاصًّا، خَلَقَ أمَّتَهُ وصحابَتَهُ وأَخِلَّاءه خلقًا عظيمًا، وعلى صورةٍ تمكِّنُهم من القيام بأمر هذه الدعوة، حيث إنهم سيكونون أولَ من يحملونها على عواتقهم. أجل، لقد كان هؤلاء الصحابة مصطَفَين أخيارًا.

تأملوا في خالد بن الوليد ﵁ الذي شَهِدَ غزوة مؤتة ولم يكدْ يمضي على إسلامه أكثر من شهرين، شارك جنديًّا في هذه المعركة، فلم يكن اسمُهُ ضمن القادة الذين عدَّهم رسول الله ﷺ: زيد ابن حارثة، وجعفرُ بنُ أبي طالب، وعبد الله بنُ رَواحة ﵃، لكنَّ النَّبِيَّ ﷺ عندما نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ؛ قَالَ: "أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ" ثمَّ قال وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ: "**حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ**"(٩٢).

كان عدد المسلمين يوم مؤتة ثلاثة آلاف مقاتل، أما جيشُ الروم فكانوا يفوقونهم بستة وستين ضعفًا، أي كان عددهم مائتي ألف

(٩٢) صحيح البخاري، المغازي، ٤٦.

مقاتل، فتردَّدَ البعض وقالوا: ما كنا نتوقع أن نواجه عدوًّا بهذا العدد، فلنرجع إلى المدينة، فصدَّهم زيد بن حارثة ﷺ، فما كان له أن يرجع ألبتة عن أمرٍ كلَّفَهُ به رسول الله ﷺ كما كان دومًا طيلة حياته، لقد تجسَّدَتْ فيه الطاعة كلُّها لرسول الله ﷺ، لما عرض عليه سيد الكونين صلوات ربي وسلامه عليه أن يتزوج بأم أيمن التي كانت في سنّ أمه، أذعن دون تردُّدٍ لِطَلَبِ رسول الله ﷺ، كما جعل من جسده ترسًا يدفع الحجارة عن رسول الله ﷺ في الطائف، وها هو اليوم قد أصبح قائدًا للجيش، ورغم ذلك لم يتغيَّرْ جوهره وإن تغيرت طبيعة عمله، كان طائعًا على الدوام، يزأرُ كالأسد، ولا يتخلف عن معركة مهما كان عددُ الأعداء فيها وعتادهم؛ لأن من أمرهم بهذا هو رسول الله ﷺ.

استمرَّت المعركة طوال ستة أيام، وفي اليوم السادس استشهد قادة الجيش الإسلامي بأكملهم واحدًا تلو الآخر.

وكانت الراية على وشك أن تقعَ على الأرض، غير أن أحد الجنود تلقَّفَها، وأخذ يبحث عن شخصٍ جدير بها، فلما رأى خالد ابن الوليد أعطاها له، فلم يرض خالد قائلًا: "لقد أسلمتَ قبلي، فأنت أجدرُ مني بها"، غير أنه اضطر في النهاية إلى أن يقبل الراية بسبب الإصرار الشديد.

في الواقع كان النبي ﷺ يروي لأصحابه في المدينة ما جرى في مؤتة. أجل، كان يروي وهو يجهش بالبكاء.

قام خالد بن الوليد ﷺ بعمل بطولي في ذلك اليوم، وإن قال البعض بأن معركة مؤتة قد أسفرت عن هزيمة لا عن نصر، إلا أننا

نقـول إن مؤتـة كانـت ملحمةً ونصـرًا؛ وقد جعل الله هـذا النصر على يدِ خالدٍ ﵁.

قسّـم الجيشَ في تلك المعركة إلى سبـع أو ثماني سـرايا، وبدّل الأجنحـةَ، وجعـلَ الميمنـةَ ميسـرةً والميسـرةَ ميمنـةً والمقدِّمة مؤخرةً والمؤخـرةَ مقدمـةً، عـلاوة علـى ذلك كلّـف بعـض المجموعات بأن يتّجِهـوا خفيـةً صـوب المدينـة، وفـي الليـل يرجعـون وهـم يقرعـونَ الطبول ويثيرون الغبار حتى يوهموا العدو بأن مددًا جديدًا قد جاءهم من المدينة.

فنفّذ المسلمون كلَّ ما قيلَ لهم، وفي اليوم التالي كان من الصَّعبِ علـى جيـشِ العـدوِّ أن يـدركَ ماذا جـرى، فلقد تبدَّتْ لهـم وجوهٌ غير التـي يعرفونهـا، وخاصـة أن مـن جاؤوا مـن ناحية المدينـة في صورة عرض عسكري قد أنهكوهم كثيرًا، ودمَّروا حالتَهم النفسيَّة.

وفي اليوم التالي امتطى خالد بن الوليد ﵁ صهوةَ جوادِهِ، وأغار علـى مركـزِ العـدو، لا يأبـه ولا يلـوي على شـيءٍ، انتبهوا جيِّـدًا.. لـم يمـض علـى إسـلامه إلا شـهران، فما الـذي عرفه وتعلمـه خلال هذه المدة القصيرة حتى بلـغ هذا المستوى.

طبَّقَ الجيشُ على أكمل وجه الإسـتراتيجيَّةَ الحربيَّةَ التي رسَـمَها خالـد بـن الوليـد ﵁، وتتابَـعَ مجيءُ من أسـكَنَهُم خالـد في المؤخرة كمـا أمرهـم، فاهتزّ العدوُّ بِشِـدَّةٍ، وبدأ في الانسـحاب، فاقتنصَ خالد ﵁ الفرصـةَ وجمـعَ جيشَـهُ على الفـور، وعاد به إلـى المدينة، إلا أن الخـوفَ قـد بـدأ يدبّ في أوصـال العدوِّ ظنًّا منه أن ذلك الانسـحاب ما هو إلا تكتيكٌ حربي، ولذا لـم يجرؤْ على ملاحقة جيشِ المسلمين.

لقد ذكرتُ خالد بن الوليد ﷺ هنا كمثالٍ واحد فقط من بين آلاف الأمثلة، أضيفوا إلى ذلك هؤلاء الخلفاء الذين كانوا يتمتَّعون بقابليَّات كبيرة وأداروا العالم من بعده، وعمرَو بن العاص الذي يشهد له الجميع بالدهاء السياسي، وقادةَ الجيوش، أو هؤلاء رهبان في الليل فرسان بالنهار، أو الذين يهرولون من ساحةِ حربٍ إلى أخرى وهم يحملون أرواحهم على أكفِّهم، فإن تخيَّلْتُم ذلك ستُسلِّمون تمامًا وتؤمنون بعين اليقين بأن هؤلاء كانوا كرسول الله ﷺ أناسًا مصطفَين، وأنه من المستحيل أن نجدَ أحدًا ممن أتى بعدهم يشابههم أو يصلُ إلى مستواهم.

ولذا فضّل المصطفى ﷺ هذه الجماعة المصطفاة المؤازِرة له على غيرها، وكان ينظر إليهم على أنهم الوارثون الحقيقيون له.

وبذلك نصِلُ إلى أن النبيَّ ﷺ؛ الذي هو مثال الوفاء لم يكن لينسى أمَّتَه.. وهل يمكن لهذا النبي الوفي وإن مرَّتْ عصورٌ وعصور أن ينسى تلك الأمة التي تَشْرُفُ بأنها أمتُه وهو الذي لم ينسَ قطّ الحجرَ والمدَرَ الذي فتحَ لهُ صدرَه.

كان ﷺ يزورُ قباءَ كلَّ يوم سبت؛ فهو أوّلُ مكانٍ استضافه عندما رحل من مكّة، وفتحَ له صدره، وقال له: "امكث هنا يا رسول الله" وكأن النبي ﷺ يؤدّي دين الوفاء لهذا المكان بزيارتِه له كلَّ أسبوع.

كما كان ﷺ يزورُ "أُحُدًا" في أوقات معتادة، ويسكب العبرات من أجل صحابته في البقيع، وفي آخر زيارة بكى ﷺ وقال: "**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**" قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "**أَنْتُمْ أَصْحَابِي**

وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ"(٩٣). فإخوانه هم من حملوا على كاهلهم مهمة إعلاء كلمة الله في هذا العصر؛ لأن الصحابة كانوا أصدقاءه، أما إخوانه فهم من أتوا من بعده وبايعوه دون أن يروه، وعملوا ليل نهار في سبيل تبليغ دعوته، وتحملوا كل صنوف المعاناة والآلام في هذا السبيل، فاستحقوا بأن يكونوا وارثي النبوة.

ربما كانت هذه العبارات مدحًا من رسول الله ﷺ لتلك الأرواح التي نذرت أنفسها في سبيل الحق، وتآخت فيما بينها، واتخذت الفناء في الأخوة شعارًا لها، فعلى المخاطبين بهذا المديح أن يظهروا جدارتهم به ويفعلوا ما يليق بهم مع الاستشعار الكامل بالوظيفة التي يحملونها.

أما غير ذلك فهو ما يسبب الكدر والحزن لهذه الروح العظيمة.

إن هذه الأرواح المؤمنة قد أدّت بفراستها الخاصة الوظيفة المنوطة بهم في عصرها، والآن على إنسان هذا العصر أيضًا أن يؤدِّي الوظيفةَ نفسَها بالشعورِ نفسِه.

(٩٣) صحيح مسلم، الطهارة، ٣٩؛ سنن النسائي، الطهارة، ١١٢.



من تمسك بالسُّنّة فله أجر مائة شهيد

سؤال: هناك حديث نبوي يقول: "مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي فَلَهُ أَجْرِ مِائَةُ شَهِيدٍ"[٩٤] فهل توضِّحون كيفيَّة تعلُّم السنَّة السنيَّة وتطبيقها حسب مقتضيات هذا العصر؟

الجواب: الكتب الموجودة بين أيدينا تناولتْ هذا الأمرَ بالتفصيل وبيّنَتْ كيفَ أن السنَّةَ هي الطريق الموصل إلى الحقّ[٩٥]. أجل، لقد قامت السنة بِبيان هذا الطريق وحثَّتْ عليه، ولو اجتمع آلاف الأولياء وآلاف الأدمغة وحاولت وضعَ طريقٍ أو مبدإٍ لَما بدت هذه الطرق ولا دساتيرها إلّا كَبارقةِ ضوءٍ خافتةٍ أمام أضواءِ أصغرِ مسألةٍ من مسائل السنّة النبويّة، لذا فما زالَ المئات من المرشدين والمئات من أهل الحقيقة يُكَرِّرُون المرة تلو الأخرى وينبّهون دائمًا بأن طريقَ السنّة هو طريق الدين.

إن النبي ﷺ الذي أرسله الله إلينا بالخير والجمال ليعلِّمَنا معنى الحياةِ هو الذي شرحَ لنا كلَّ شيءٍ اعتبارًا من الفروض والواجبات والسنن وصولًا إلى المستحبِّ والمباح وآدابها، جاء في أحد الأحاديث القدسية: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

---

(٩٤) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٣١٥/٥.

(٩٥) انظر: **المكتوبات** للإمام الرباني فاروق السرهندي، رقم المكتوب: ٧٥، ٩٤، ٢١٠، ٢٦٠؛ **المكتوبات** لبديع الزمان سعيد النورسي، المكتوب الخامس؛ **واللمعات** لبديع الزمان سعيد النورسي، اللمعة الرابعة، اللمعة الحادية العشرة.

"**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**"[٩٦].

أي إن الله تعالى يريه الأشياء بشكلها وبوضعها الصحيح، ويوفِّقُهُ لتقييمِ الأمور تقييمًا صحيحًا، ويفتحُ له من كلِّ شيء دربًا إلى الحقيقة، فإن رأى الهداية طار إليها، وإن رأى الضلالة فرّ منها، عندما يسمع صوتًا يدعو إلى الحقِّ يستجيب له ويسمو بروحِه معه، وعندما يتكلم يوفِّقُهُ الله لقولِ الحقِّ، وعندما يعمل يسوقُهُ الله إلى الأعمال النافعة وإلى الخير والجمال، أي إنه يسوقُهُ على الدوام إلى الطريقِ المؤدِّي إلى الجنَّة ولا يدعه لحظةً لنفسه، ولأنه يهدفُ للحصولِ على رضا الله تعالى في كلِّ أعمالِهِ، فإن الله يُحركه على الدوام ضمن دائرة مرضاته، لذا فإن الله تعالى جعل حياة الرسول ﷺ والأشخاص المهمّين الذين جاؤوا بعده تحت مراقبتِه، وسدَّ أمامهم جميع الطرق الخارجة عن طريق مرضاته، وجعل طريقَ السنَّةِ هو الطريق الوحيد المفتوح أمامهم.

والآن لا يوجد طريقٌ غير طريق السنَّةِ يؤدِّي إلى الهدفِ بشكلٍ مضمون لا شبهةَ فيه، لذا فمن الطبيعيِّ أن يكون إحياءُ السنَّةِ عند انتشار الفسادِ، وتعبيدُ الطريق الذي يُبَيِّنُ الفرائض والواجبات والسنن، والقيام بأيِّ خدمات وجهودٍ لجعلِه سالكًا من جديد ومضمونًا وآمنًا

(٩٦) صحيح البخاري، الرقاق، ٣٨.

حتى يوم القيامة؛ جهدًا مقدَّسًا يرفعُ أصحابَهُ إلى مرتبة الشهداء، بل هناك العديد من بين هؤلاء من يحصل على أجر عدَّةِ شهداء في كلِّ يوم من أيام عمره، أما الذين يُحاولون من بين هؤلاء إحياء أركان الإيمان فهم يكسبون ثوابًا أكثر من ثواب مائة شهيد.

أجل، هناك مسائل في السنة السنيَّة مَن أحيا مسألةً واحدة منها كان له أجرُ مائة شهيد، فكما أن هناك نوعًا من الغِيبة يكون أشدُّ من قتلِ إنسان أو من الزنا بنصِّ قولِه ﷺ: "**الْغِيبَة أَشَدُّ مِنَ الزِّنَا لِأَن الرجل يَزْنِي فيتوب يَتُوب الله عَلَيْهِ، وَإِن صَاحب الْغِيبَة لَا يغْفر لَهُ حَتَّى يغْفر لَهُ صَاحبهَا**"(٩٧)، وقولِه أيضًا: "**الْغِيْبَة أَشَدُّ مِنَ الْقَتْل**"(٩٨)، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة الْحُجُرَاتِ: ١٢/٤٩)، لأن الغيبة التي تزرع الفسادَ في المجتمع وتؤدِّي إلى الاضطراب والفوضى فيه أشد من غيبة شخص عاديّ، فهنا يكون الإثم أكبر من هذا الإثم الفرديّ؛ كذلك ففي المسائل التي دخلت فيها الأمة إلى الفساد، وتعطلت جميع أجهزة الدولاب الإسلامي، فإن القيام بإحياءِ أيِّ مسألةٍ دينيَّةٍ في مثل هذا الفساد الضاربِ جذورَه في كل مكان سَيُكْسِبُ ثوابَ مائةِ شهيدٍ بل ربما ثوابَ ألفِ شهيد.

أما إنجاز مثل هذه الأعمال في يومٍ مباركٍ وفي لحظةٍ مباركةٍ فقد يُكْسِبُ صاحبَها ثوابًا أكبر، ﴿**إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٧٣/٣)، نسأل اللّٰهَ تعالى أن يجعل من نصيبنا الاستمرار في هذا الطريق بشكل دائم وأن يوفّقنا إلى الخدمة بإخلاص.

(٩٧) الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ١١٦/٣.
(٩٨) المصدر السابق: ١١٦/٣.

نحن سعداء ومحظوظون جدًّا، فعندما يتمُّ ذكر خدماتنا نقول: "إن الوظيفة الملقاة على عاتقنا إنما هي فضلٌ وإحسانٌ إلهيٌّ". أجل، فقد وُظِّفنا في هذا العهد الذي اختلط فيه الحابلُ بالنابلِ بوظيفةٍ مقدَّسَةٍ وعالية، وإن إحياء هذا الدين بكلِّ مؤسساته وبكلِّ كادِرِه وبكلِّ جماعتِه عملٌ لا نظيرَ ولا مثيلَ له في العالم، وهو من جانب آخر استمرارٌ لوظيفة الرسول ﷺ ومتابعة لدعوته، وإن ظهور فخر الكائنات ﷺ تنزُّلًا منه في رؤى بعض الصالحين وزيارتَهُ لبعضِ المؤسَّسات الإيمانية والقرآنية ليست إلا من كرامات السنة السنية وخدمة هذه السنة، وليس نتيجةَ أيِّ ميزةٍ شخصيَّةٍ لأيِّ شخص.

وإن حصول الأشخاص والجماعات والمؤسسات على حصصٍ أعظم من هذا الثواب على قاعدة "**الدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**"[(٩٩)] ليس إلا فضلًا آخر من الله ﷻ، وهو ما يُنتظر منه ومن رحمته الواسعة الشاملة، ولكن إنْ لم يقم الذين أوصلوا الخدمة الإيمانية والقرآنية إلى هذا المستوى بالمحافظة على المستوى نفسِه من الإخلاصِ والحماسِ ستؤخَذُ الأمانة منهم وتودع إلى آخرين، أي سيتمُّ نبذُهم ورفضُهم، ونحن إذ نُدْرِكُ ونقدِّرُ العنايةَ الربَّانيَّةَ نعرف بأننا إن بَذَلْنَا كلَّ طاقاتِنا وصَرَفنا كلَّ جهدنا واستفدنا من اللطف والرعاية الإلهية فإننا نستطيعُ اجتيازَ الامتحان ونكونُ مظهَرًا لألطاف أخرى.

وكم نتمنى أن يستمر أصدقاؤنا حتى يأتيهم اليقين بنفس الهمّة وبنفس الحماس والوجد في خدمة القرآن والإيمان.

(٩٩) سنن الترمذي، العلم ١٤؛ مسند الإمام أحمد: ٤٤/٣٧.



سببُ البكاءِ على حمزة رضي الله عنه

سؤال: يُذْكَرُ أن الصحابةَ الكرام رضي الله عنهم ونساءهم وأبناءهم كانوا يبكون حمزة رضي الله عنه قبل بكائِهم شهداءَهم، فما السبب في ذلك؟

الجواب: أجل، لقد حدث ذلك بالفِعل، ولقد فسّر العلماء حساسية الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة على النحو التالي:

كان سيدنا حمزةُ رضي الله عنه معروفًا بين بني هاشم بالشهامة والمروءة، إلا أنه طلع كالبرق ثم اختفى، ولم يُخَلِّفْ عَقِبًا يحمل اسمَهُ من بعده، وكما عاشَ حياة خاصَّةً ارتحل عن الدنيا بشكل خاص أيضًا، ولم يترك ذريةً من بعده، ورغم ذلك فقد تبوَّأَ مكانةً كبيرةً في قلوبنا جميعًا، حتى إننا نتمنى لو قبِلَ أن نكون قطميرًا على بابه وليس أبناءً له فحسب، وأن نقبِّل أقدامه.

كان دخولُه في الإسلام بداية عهدِ ازدهارٍ للإسلام والمسلمين، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يحبُّه حبًّا جمًّا ويفتخرُ به، لدرجة أن حمزةَ رضي الله عنه شَرِبَ الخمرَ يومًا حتى سكر وكان الخمر لم يُحرّم بعد، فجاءه النبي صلى الله عليه وسلم، ربما ليعاتبه؛ فلما رآه على تلك الحالة وسمع منه هذيانًا من تأثير الخمر نكصَ صلى الله عليه وسلم على عقبيه ولم يعاتبه بعد ذلك، وربما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك خشيةَ أن يتفاقمَ الأمرُ وينحرفَ حمزةُ عن الجادة، أو لِعلم النبي صلى الله عليه وسلم بما سيحقِّقُه حمزة من أعمالٍ عظيمةٍ في المستقبل.

استشهدَ حمزة رضي الله عنه على هيئةٍ تليقُ بماهيته، فبينما كان يصولُ ويجولُ على سفحِ صعبِ المرتقى مثل أحد؛ نالَ الشهادة في سبيل الله، ولم يتمتَّع أيُّ شهيد أو غاز بهذا القدر من البسالة والشجاعة التي كان يتمتَّع بها حمزة رضي الله عنه.

يذكرُ بعضُ المؤرِّخين أنَّ حمزةَ قَتَلَ في ذلك اليوم ثلاثةً وثلاثين مشركًا ثم استشهد.. تأمَّلُوا، فلقد كان نصفُ قتلى المشركين تقريبًا من نصيبِ سيفِه، ثم قُطِّعَ جسدُهُ ومُثِّلَ به، فانكبَّتْ أختُهُ صفيَّة بنت عبد المطلب على جثمانه، وأخذت تشهقُ بالبكاء، ومن يدري لعلها كانت تحاول أن تجمع الأشلاءَ التي فارقت جسده المبارك رضي الله عنه.

أجل، لقد خلَّفَ الحالُ الذي آلَ إليه حمزةُ والواقعُ الذي كانت عليه أختُهُ صفيّة أمّ الزبير وعمّة سيدنا رسول الله بالغَ الأثر في سيد الكونين صلى الله عليه وسلم، حتى ذرفت عيناه.

لم يخلُ بيتٌ من بيوت المسلمين من قتيلٍ أو مصاب، فلقد استشهدَ من المسلمين حوالي تسعة وستين صحابيًّا، ولما عاد النبي صلى الله عليه وسلم كان الناسُ يبكون أقرباءَهم، وينوحون ويندبون مصابيهم وقتلاهم كلًّا في مقرِّ دارِه، غير أن شهيدًا ما قَدْ نُسِيَ فلا بواكيَ له، إنه سيد الشهداء، ومع ذلك فلا أحد يبكيه، عند ذلك انسابت من شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم كلماتٌ كأنها أنّاتُ قلبٍ منكسرٍ على النحو التالي: "**لَكِنَّ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ**"(١٠٠)، فصعق سيدنا سعد بن عبادة رضي الله عنه عند سماعه ذلك، وجمعَ على جناحِ السرعةِ نساءَ الأنصار، واصطحبهنَّ إلى بيت حمزة رضي الله عنه، وقال لهن: "والله لا تبكين قتلى الأنصار

(١٠٠) سنن ابن ماجه، الجنائز، ٥٣؛ مسند الإمام أحمد، ٣٨/٩.

حتى تبكين عمَّ النبي فإنه قد ذُكر أنه لا بواكيَ له بالمدينة"، ثم اتَّخَذَ هذا الأمر صورة العادة، حتى أبطَلَه النبيُّ ﷺ بعد مدَّة، ورغم ذلك فلو ظلَّ المسلمون يبكونَ حمزةَ ﷺ قبلَ موتاهم حتى يوم القيامة لكان ذلك قليلًا على أسدِ الله ﷺ.

فضلًا عن ذلك فإن حُبَّنا لِحمزةَ ﷺ ليسَ لِشَخْصِهِ، بل لِحُبِّ رسولِ الله ﷺ لهُ، وحبِّ الله له، زِدْ على ذلك أنه ملقَّبٌ في السماء بأسدِ الله؛ فانطلاقًا من كلِّ ذلك نحنُ نُحِبُّهُ.

وهناك ميزةٌ يتَّسِمُ بها حمزةُ ﷺ لقرابَتِه من رسول الله ﷺ، خارج عن أفقِ تصوُّراتنا، ويتعذَّرُ على نظرنا بلوغُ هذا المستوى.

وقد كان لرسول الله ﷺ سلوكٌ آخر مع سيدنا جعفرِ بن أبي طالب ﷺ، إذ إنّه كان يشبهُ رسولَ الله ﷺ في خَلقه وخُلُقِهِ، ولما استشهدَ ذهب النبيُّ ﷺ إلى بيته واحتضن أولاده جميعًا، وغسلهم بدموعه، وفي هذا معنى آخر يتعذر علينا فهمه بسبب قرابتِه ﷺ منه ﷺ.

ربما كانت تلك الحساسية التي أبداها النبي ﷺ في هذه المسألة تتوافقُ مع المقاصِدِ الإلهيّة.

ولقد استشهد كثيرٌ من الصحابة في أحد إلى جانبِ حمزة ﷺ، إلا أنَّ حمزةَ ذو خصوصيّة دقيقة عند أهل الكشف والحقيقة، وذلك أن من وقعَ في ورطةٍ واستنجدَ بحمزة ﷺ سرعان ما يأتيه حمزةُ ﷺ بفرسِه وسيفِه وأدركه، فهذه ميزةٌ خاصَّةٌ به ﷺ.

قد يأتي من بعدهم رجال يجادلون ويكافحون في مثل هذه الظروف الصعبة، وربما يلقون حتفهم باستقبالهم الرصاص

في صدورهم وتحوُّلِهم إلى أشلاء، إلا أنه من غير الممكن مقارنة أحد مع هؤلاء الذين كافحوا وحاربوا في بداية الأمر وفي عهد التأسيس وفي ظلِّ الظروف الصعبة، وعاشوا في المناخ المنير لسيدنا رسول الله ﷺ، وقد نرى الآنَ مَن يُحاولونَ أن يُرجِعوا أسباب هذه الرعاية إلى العلاقة الناشئةِ عن النسب، غير أن هذا الرأي واهٍ لا يُلتفت إليه.



سرعة انتشار الإسلام

سؤال: انتشر الإسلام بسرعة، ولم تستطع أيّة قوّة التغلُّب عليه خلال ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، فما أسباب ذلك؟ وما سببُ تخلّفنا الحالي؟

الجواب: هناك وجهات نظرٍ متعدِّدة حول الفرقِ بين معنى "الإسلام" ومعنى "الإيمان"، ونحن لا نريد الدخولَ في مثل هذه التفاصيل، فإن عبرنا عن الإسلام والإيمان معًا قلنا: إن المسلم هو الذي آمن بالله وبجميع أُسُسِ الإيمان والمستسلم لله تعالى، أي إن المسلم هو الذي نظَّمَ حياته الاجتماعيّة والأسريّة وفق أوامر الله تعالى بكلِّ إخلاص، وإنَّ المسلمين في بعضِ العهودِ لم يجدوا فرصةً لِتطبيق الإسلام من الألف إلى الياء، ولكن إن كانت حماسَتُهم للإسلام والشوق إلى عيشه موجودًا في قلوبهم، فنحن نأملُ من الله ألّا يؤاخذهم، لأن قواهم خارت ووسائلهم انعدمت إلى درجة العجزِ عن رفعِ راية الإسلامِ والنهوضِ بها مرة واحدة، وإن كانوا يتمتّعون برغبةٍ عارمةٍ لفعلِ ذلك.. فإن كانوا قد صمَّموا على الرجوع إلى الإسلام بعزمٍ أكيدٍ وبشوقٍ عارمٍ وبدؤوا بوضعِ الخططِ والأفكارِ لمثل هذا الرجوع أنقذوا أنفسهم من المسؤولية؛ ذلك لأن هناك سبيلين للخلاص من المسؤولية يوم القيامة، إما معايشة الإسلام كاملًا أو المجاهدة لعودته إلى الحياة من جديد.

فإن لم يتم أحد هذين الأمرين فلا مهرب من المسؤولية يوم القيامة، كما ستكون حياتهم في الدنيا حياة ذليلة لأن البُعْدَ عن الإسلام سيؤدّي إلى تسلُّط الكفر على شُعَبِ وساحات حياتهم جميعها سواء الاجتماعية منها أو الاقتصادية أو التجارية أو العسكرية، كما سيكونون مغلوبين في الساحة العلمية والتكنولوجية ثم يُحاسبون على تقصيرهم يوم القيامة، ويذوقون العذاب الأليم.

إن رقيّ المسلمين لا يقلُّ عن ألف سنة حيث وصلوا إلى ذرى عالية ولا سيما في عهد الخلفاء الراشدين الذي كانت فيه سرعة الصعود مذهلة، وكان رسول الله ﷺ قد أخبرَ عن هذا العهدِ الوردي فقال: "**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَغْزُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ الرَّسُولَ ﷺ، فَيَقُولُونَ نَعَمْ، فَيُفْتَحُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يَغْزُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ الرَّسُولَ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ**"(١٠١).

وفي حديث آخر يشير الرسول ﷺ إلى هذه القرون الثلاثة السعيدة فيقول: "**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**"(١٠٢)، وعندما نلقي نظرةً على تاريخنا يتبيَّنُ مدى صدق هذا الحديث النبوي.

بلغَ حكمُ الخلفاء الراشدين ثلاثين عامًا، ومع ذلك فقد تحوّلت الدعوة الإسلاميّة إلى دعوة عالميّة منذ عهدِ سيّدِنا عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ فمن ناحيةٍ وصلَ المسلمون إلى الأناضول، ومن ناحية أخرى

(١٠١) صحيح البخاري، المناقب، ٢٥؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٢٠٨-٢٠٩.
(١٠٢) صحيح البخاري، الشهادات، ٩، الرقاق، ٧؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٢١٢.

تقدَّموا حتى بحيرة "آرال"، ومع أن الخلافات كانت قد بَلَغَتْ الذرى في ذلك العهد؛ إلا أنَّ روحَ الجهاد تتدفَّقُ وتغذّي شعورَ الفتح لدى المسلمين الأوائل، ففُتحت إفريقيا في تلك الفترة، وكان عقبة ابن نافع أول الفاتحين لهذه المنطقة من القادة المسلمين، وقد استطاع أن يفتحَ الشمال الإفريقيّ كلّه خلال فترة وجيزة من حياته؛ إذ إنّه توفّي وعمره خمسون عامًا.

كما انصاع البربر إليه في جهاده هذا الذي امتدّ إلى المحيط الأطلسي الذي كان يسمّيه العرب قديمًا "البحر المظلم"، فلما بلغه رُوِيَ أنَّه خاض بجواده البحر حتى الركبة وقال مقولته الشهيرة التي هي أعذب ما يمكن أن يتفوَّهَ به رجلٌ مثالي على وجه البسيطة: "يا رب لولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد مجاهدًا في سبيلك حتى أفتح الدنيا لنور الإسلام أو أهلك دونه".

لم يكونوا يملكون آنذاك عابرات القارات ولا السفن من حاملات الطائرات، ولا سفنًا تستطيع مقاومة العواصف في البحار، بل كانوا يصلون إلى هذه البلدان على ظهور الجمال والخيول، وإذا احتاج الأمر للوصول إلى بلد وراء البحار، قطعوا هذه البحار على متنِ سفنٍ صغيرة وبدائية، ومع كل هذا استطاعوا فتح بلدان عديدة في الشرق والغرب وفي زمن قصير، وإذا أردنا عرض الموضوع من الناحية الحسابيّة قلنا: إن ما فتحه المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين يعادل وقد يزيد على ما تم فتحه في عهود الأمويين والعباسيين والسلاجقة والعثمانيين مع العلم بأن فتوحات عهد الراشدين كانت تستهدف في المقام الأول فتحَ القلوب ونشرَ الإسلام.

إن مـن أسـرار القـدَرِ أنَّ البلدان التي يوجد فيها المسـلمون حاليًا فُتِحَـتْ كلّهـا فـي عهـد الصحابة، فمـع أن الأندلس بقيـت تحت ظلِّ الإسلام ثمانية قرون تقريبًا إلا أنكَ لا تجدُ فيها الآن ما يُشبِعُ فؤادَكَ، أما بلدان تركستان وداغستان وأوزبكستان فلا تزال المساجد والمآذن والمـدارس الدينيـة موجـودةً فيها؛ ذلـك لأن هذه البلـدان فُتِحَتْ من قِبَلِ الصحابـة، وأنشـأت هـذه البلدان التـي عاش فيها الإسـلام بحق رجـالًا عظمـاء للعلـم وللإسـلام كالبخاري ومسـلم والترمـذي وابن سينا والفارابي.

ونحن نتمنَّى لهذه البلدان "التي أسَّسَتْ قواعدها على الإخلاص، وبَذَرَت بذورها بصدقٍ، وامتزَجَت دماءَ الصحابة بِـمِلاطِها، أن تعودَ بمشـيئةِ الله إلـى الإسـلام وإلـى يـده البيضـاء مـرة أخـرى"[١٠٣]. أجل، فنحـن كافّـة ننتظـر مثـل هـذا اليوم ونشـعر ونحسّ بوجودنـا في هذه البلدان، ونحن نؤمن بأنه سـيأتي اليوم الذي يعود فيه الإسـلام الذي غـاب عـن هـذه البلـدان إليهـا... يعـودُ كموجـات متلاحقـة الواحـدة منهـا إثـر الأخـرى، وهذا موضـوعٌ حيـويٌّ لا نُطنِبُ حولـه بل نرجـعُ إلى صلب الموضوع.

إذا كان الصحابة قد نجحوا في فتح العالم في مدة قصيرة فلا بد أن لهذا الأمر أسبابه وتقييمه، فلقد كان كلُّ واحدٍ منهم يحبُّ الدعوة الإسـلامية إلـى درجـة العشـق والوجـد، ومـن نظر إليهم مـن الخارج ولـم يعرفْ حقيقة الأمر خَالَـهُم من المتهوِّرين الذين لامسـوا حدودَ الجنون، لأن ما فعلوه كان يذهل العقل فعلًا.

(١٠٣) كتب المؤلف هذا قبل تحرر هذه البلدان من الاستعمار الروسي. (المترجم)

نام علي بن أبي طالب ﷺ في فراش الرسول ﷺ ليلة الهجرة، وهذا يعني أنه رضي منذ البداية بأن يُقَطَّعَ بِضَرَبَاتِ السيوف إربًا إربًا ولكن أيدي المشركين بقيت معلقة في الهواء عندما علموا بأن الراقد في الفراش ليس رسول الله ﷺ بل هو ابن عمّه علي كرم الله وجهه، أما سببُ تجمُّدِ أيديهم في الهواء فهو من الدهشة، لأن عقولَهم لم تستوعب هذا الأمر.

فكيف يقوم شاب في السابعة عشرة من عمره بمثل هذه التضحية التي قد تُودِي بحياته؟! لقد ذهل المشركون -ومن بينهم أبو جهل- من هذا المنظر الفدائي العجيب.

وفي أحد الأيام مرّ عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام على دار بني جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة وأبوابها تصطفق يَبابًا ليس فيها ساكن، فلما رآها على تلك الحالةِ تنفَّس الصعداء ثم قال:

*وكلُّ دار وإن طالت سلامتها *** يومًا ستدركها النَكْباء والحُوبُ*

ثم قال عتبة: "أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها! فقال أبو جهل للعباس: هذا من عملِ ابنِ أخيك، فرَّقَ جماعَتَنا، وشتّتَ أمرَنا، وقطع بيننا.

ثم عدا أبو سفيان على هذه الدار فباعَها غصبًا، فذَكَرَ ذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بنُ جَحْشٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**أَلَا تَرْضَى يَا عَبْدَ اللهِ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ بِهَا دَارًا خَيْرًا مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ**؟"، قَالَ: بَلَى، قَالَ: "**فَذَلِكَ لَكَ**"(١٠٤).

(١٠٤) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/١١٤-١١٥.

لقد كانوا يتركون كلَّ شيءٍ ويهجرون بيوتهم وعيالهم وأموالهم وأغنامهم.. كلَّ شيءٍ.. وأنَّى للمشركين أن يفهموا هذا الأمر؟!

أجل، فعندما هاجر أبو بكر ﷺ من مكة إلى المدينة لم يأخذ أحدًا من أهل بيته... لم يأخذ معه زوجته ولا والده ولا أحدًا من أولاده، بل تركهم جميعًا في مكة وهاجر وحده، أما عثمان بن عفان ﷺ فلم يأخذْ معه حتى زوجته رقيّة ﷺ وهي بنت الرسول ﷺ ونور عينه، ولو قيلَ لأيٍّ منا: إن رقية بحاجة إلى من يضحّي في سبيلها بنفسِه لأسرعَ الجميع إلى التضحية بنفسه في سبيلها، ولكنها بقيت في مكة وهاجر عثمان ﷺ وحده إلى المدينة.

كان ذلك العهد عهد الذين ارتبطوا بصدق وإخلاص بالرسول ﷺ، لقد كان اتباعهم وحبهم له مذهلًا حتى إنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْه النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْه النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ"[١٠٥].

(١٠٥) **صحيح البخاري**، الشروط، ١٥؛ ابن هشام: **السيرة النبوية**، ٣/٣٢٨؛ ابن كثير: **البداية والنهاية**، ٤/١٧٥.

أجل، كان هذا هو درجة إكبار الصحابة للرسول ﷺ وحبهم له، بينما كان الرسول ﷺ يقول لمن يقوم له: "**لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ، يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا**"(١٠٦)، ولكنهم مع ذلك كانوا يقومون له، إذ كلما تواضعَ لهم عَظُمَ في أعينهم وزاد حبّهم له، يروى أن الرسول ﷺ جفل عندما رأى جبريل عليه السلام للمرة الأولى، وكان هذا في بداية الوحي، يقول أحد عشاق الرسول ﷺ: "لو أن جبريل عليه السلام رأى الحقيقة الأحمدية من وراء الأستار إذًا لَغَابَ عن وعيه"، كان الرسول ﷺ يزدادُ عظَمَةً كلما ازدادت صِلَتُهُ بالله تعالى ولكنه كان كلَّما زادَ عظَمَةً كلَّما ازدادَ تواضعُهُ وتعمَّقَ، إذ كان يعدّ نفسَهُ إنسانًا من الناس ولا يقبل أيَّ معاملةٍ تتجاوزُ هذا المفهوم ويتضجَّرُ منها.

كان هذا هو العهد الذي توحدت فيه قلوب الصحابة وأرواحهم مع رسول الله ﷺ إلى درجة أنه ﷺ قال لبعضِهم: "**الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**"(١٠٧)، لم يقل هذا الكلام لجبر خواطرهم، بل للتعبير فعلًا عن هذه الوحدة القلبية والروحية، وعندما جاء اليوم الذي قيل لهم أن يهاجروا في أرض الله الواسعة لنشر الإسلام لم يعترضوا ولم يقولوا: لماذا؟... بل هاجروا وانتشروا في أرجاء الأرض من أجل الإسلام ولم يُفكِّروا في العودة إلى وطنِهم القديم، بل فضَّلوا الموت في أوطانهم الجديدة لكي لا يقع أيُّ ظلٍّ من الشكِّ على هجرتهم هذه.

وعندما حُمّ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في مكة حَزِنَ كثيرًا فسأله رسول الله ﷺ عن سبب حزنه فقال: "يا رسول الله أُخَلَّفُ بَعْدَ

(١٠٦) سنن أبي داود، الأدب، ١٥١؛ مسند الإمام أحمد، ٥١٥/٣٦.
(١٠٧) صحيح مسلم، الجهاد والسير، ٨٦؛ مسند الإمام أحمد، ٥٥٥/١٦.

أَصْحَابِـي؟" وفـي روايـة أخـرى "أتخلَّف عـن هجرتـي؟"[١٠٨]، ويعني: أخشـى أن أمـوت هنـا في مكة وليس في المدينـة التي هاجرتُ إليها، وبوركـت بوجـودك هنـاك؛ فيصيب هجرتي بعضُ الخلـل أو النقص، وسـبب تعلُّـقِ الصحابـة الكـرام بالمدينـة المنـورة يعـودُ إلـى حبِّهـم للرسـول ﷺ الـذي قـرَّرَ البقـاء هنـاك، وكانـوا محقِّيـن في هـذا الحبِّ وهذا التعلُّق، ولكن ما إن صدرَ إليهم الأمر بالهجرة إلى أرجاء الدنيا لِنَشْرِ الإسلام حتّى انصاعوا فورًا، ولـم يُبْدِ أحدٌ منهم أيَّ بادرةِ تردُّدٍ أو رفضٍ أو امتعاضٍ، لأنهم كانوا عشَّاق الحقيقة المتجلّية في الإسلام، فعلى مثال مجنون ليلى الذي كان يحوم على الدوام حول ليلى، كان هؤلاء الصحابة متعلِّقين وجدًا وعشقًا بمسألةِ نشرِ الإسلام في أرجاء المعمورة للحصولِ على مرضاة الله تعالى ومرضاة رسوله الكريم ﷺ.

أجل، ما إن صدر إليهم الأمر حتى توزعوا في أرجاء الدنيا فمنهم من ذهب إلى تبوك ومنهم من هاجر إلى اليمن ومنهم من توجه إلى حضرموت بحماسٍ منقطع النظير.

وعندما جاء اليوم الذي حاولت فيه الدول والإمبراطوريات عرقلة مسيرة الإسـلام ووضـعَ العصـيّ فـي عجـلات المجاهديـن؛ اضطـرَّ المسـلمون إلـى جـردِ سـيوفهم، إذ كانـت تقـع علـى عواتقهـم مهمّة مقدسـة وهـي مهمّـةُ نشـرِ النور على وجه البسـيطة، وعندما اسـتعمل أعداؤهم القوَّة المادِّيَّة لصدِّهم اضطرُّوا إلى اتّباع ذاتِ القوّة ضدَّهم.

لقـد آنَ الأوانُ للجهـادِ والقتـالِ، ولـم يتوانوا عن هذا بل أسـرعوا إلـى سـاحة الحـرب... فقاتلـوا وقُتلـوا، ولكـن لـم يتـرك أحـد منهـم

(١٠٨) صحيح البخاري، الجنائز، ٣٦؛ صحيح مسلم، الهبات، ٥.

الميدان، وأَبلَوا في كلِّ حربٍ خاضوها بلاءً حسنًا حتى وطِئوا بحوافر خيلهم أرضَ الصين... كانوا كأفرادٍ وكمجتمعٍ مثالًا للبطولة التي لا تستوعبُها سوى الأساطير.

لم يكن الرسول ﷺ يكلِّفُ أحدًا ما يفوقُ طاقتَهُ، ومع ذلك كان كلُّ صحابي يأخذُ على عاتقه وظائفَ تكاد تكون فوق طاقته ويتسابقون في هذا الأمر، ومن ذلك ما ورَدَ عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: خلَّفَ النبيُّ عليًا في بعضِ مغازيه؛ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ خَلَّفْتَنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟! فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول له: "**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ إِلَّا أَنَّهُ لَا نُبُوَّةَ بَعْدِي**"، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ "**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**"؛ فَتَطَاوَلْنَا لَهَا، فَقَالَ: "**ادْعُوا لِي عَلِيًّا**" فَأُتِيَ بِه أَرْمَدَ، فَبَصَقَ فِي عَيْنِه وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْه[١٠٩]، وهكذا اشترك في وقعة خيبر وفتح الله خيبر على يديه.

وذات يومٍ خرجَ النبيُّ غازيًا وولّى أمرَ المدينةِ ابنَ أمِّ مكتوم الذي كان من أقرباء أمِّنا خديجة الكبرى رضي الله عنها، وأمثالُ هذا الصحابيّ الجليل معفيّ من الجهادِ لأنه أعمى ومعذور، وكان من الممكن بهذه العِلّة ألا يشتركَ في الجهاد طوالَ حياتِه، ولكنه خرجَ إلى الجهادِ في أرضِ الله الواسعة مع الذين خرجوا في سبيل الله، وذلك بعد وفاة الرسول ﷺ، ولم يُثْنِه أحدٌ عن الخروجِ بحجَّةِ أنه ضرير، إذ اشترك في الجيش المتوجِّه إلى القادسية على الرغم من تقدُّمِه في العمر، تقول الروايات التاريخية أنهم حاولوا إبقاءه في الصفوف الخلفية

(١٠٩) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ١١٩؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة ٣١؛ مسند الإمام أحمد، ١٦٠/٣.

في يوم القتال ولكنه استطاعَ الوصول إلى القائدِ سعد بن أبي وقاص ﷺ وطلب منه بإصرارٍ السماحَ له بحملِ اللواءِ، إلى أن ارتقى شهيدًا مجيدًا في تلك المعركة حسب إحدى الروايات ﷺ[١١٠].

هذا مثالٌ على الذين هبّوا للتضحية بأرواحهم في سبيل الله بكلِّ شوقٍ ووجد، لقد كان غياب رسول الله ﷺ فرصةً كبيرة لابن أمِّ مكتوم ﷺ، لأن الرسول ﷺ لو كان حيًّا لمنعه من الجهاد بسبب عذرِه، لكنّه الآن لا مانع له من الجهاد، لذا كان فَرِحًا لاشتراكِه في الصفوفِ الأولى.

كان أبو طلحة ﷺ قد شاخ كثيرًا وأصابه الضعف، وذات يوم عندما كان يقرأ سورة براءة أتى على هذه الآية ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ (سورة التَّوْبة: ٤١/٩) استدعى أهله وأبناءه وقال لهم "أرى ربي يستنفرني شابًّا وشيخًا، جهزوني"، فقال له بنوه: "قد غزوتَ مع رسول الله ﷺ حتى قُبِضَ، ومع أبي بكر ومع عمر ﷺ، فنحن نغزو عنك"، فقال: جهزوني، فجهزوه، فركب البحرَ فماتَ، فلم يجدوا جزيرةً يدفنوه فيها إلا بعد سبعة أيام، فلم يتغيَّرْ [١١١]، ولعلَّه شَكَرَ ربَّهُ قُبيلَ وفاتِه على هذه الفرصةِ التي أنعمها عليه.

واشترك خالد بن زيد (أبو أيوب الأنصاري) ﷺ في الحملة التي توجَّهت لِفتح القسطنطينية تحت قيادة يزيد بن معاوية مع أنه كان شيخًا كبيرًا، فقطع هذه المسافةَ الطويلة حتى وصل إلى أبواب القسطنطينية، وعندما هاجرَ النبي ﷺ إلى المدينة كان

(١١٠) ابن الأثير: **أسد الغابة**، ٢٥١/٤.
(١١١) ابن الأثير: **أسد الغابة**، ١٧٨/٦.

أبو أيوب الأنصاري متزوِّجًا وصاحب أولاد، وأما عند خروجِه لفتحِ القسطنطينيّة فكان قد مرّ على هجرة النبيِّ قرابةَ خمسين سنة، فإذا أخذنا هذا بنظَرِ الاعتبار عَلِمنا أنه كان يقارب الثمانين من عمره عند خروجِه للجهادِ في هذا الجيش، ولقد قَطَعَ كلَّ هذه المسافة الشاسعة من المدينة المنورة إلى إسطنبول على صهواتِ الجيادِ، هنا يُراودني تساؤلٌ ذو مغزًى: ما الهدفُ الذي كان يسعى وراءه هؤلاء الصحابة وأمثالُهم؟

لقد تحدَّثَت عنهم نصوصُ القرآن والسنّة وامتدَحَتهم كمهاجرين وأنصار وَوَرَدَ مثلهم في التوراة والإنجيل، ولكنهم كانوا قد سمعوا رسول الله ﷺ وهو يقول: "**لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ**"(١١٢)، إذًا فقد كانت غايتُهم أن يكونوا جنودًا في مثل هذا الجيش المبارك ويحصلوا على رضا الله ﷻ، وإلّا فما الداعي لكل هذه الرغبة العارمة ولكل هذه المعاناة؟ كان رسول الله ﷺ يشير إلى المرتبة العليا للجيشِ الفاتحِ للقسطنطينية وكان هؤلاء الصحابة يريدون الفوزَ بها ويتسابقون من أجلها.

كانت هذه هي غاية أبي أيوب الأنصاري ﷺ وهدفه، لذا قام وقدم من المدينة المنورة وقطعَ كلَّ هذه المسافة الطويلة في سفر مرهق ومتعب، ومرت الأسابيع والأشهر ولم يتيسر الفتح، وداهمَ المرضُ والتعبُ هذا الصحابيَّ الشيخَ فكان دائمَ السؤال هل تمَّ الفتحُ؟ وعندما حضرته الوفاة سأله قائد الجيش يزيدُ بن معاوية عن حاجته الأخيرة قال: "حاجتي إذا أنا متُّ فاركب بي ثم سغ بي

(١١٢) **مسند الإمام أحمد**، ٢٨٧/٣١؛ الطبراني: **المعجم الكبير** ، ٣٨/٢؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٤٦٨/٤.

في أرض العدو ما وجدت مساغًا، فإذا لم تجد مساغًا فادفني ثم ارجع"، فلما مات ركب به ثم سار في أرض العدو حتى لم يجد مساغًا فدفنه بأصل حصن القسطنطينية ورجع[(١١٣)].

ومرّ ما يقارب ستة قرون فأعطى الله تعالى شرفَ تحقيق هذه البشارة إلى البطل محمد الفاتح الذي كان بعمر الثاني والعشرين خريفًا آنذاك، أي كان من نصيبِه نيلُ بشارةِ الرسول ﷺ ورضاه والقيام بعملٍ كبيرٍ أنهى عهدًا وفتحَ عهدًا جديدًا في تاريخ البشرية، وتمثيل الروح الإسلامي على أبواب أوروبا، ومن تجليات القدر الإلهي أن اسمه أيضًا كان من اسم النبي ﷺ إذ كان اسمه محمدًا ولُقِّبَ بالفاتح بعد فتح إسطنبول، لقد قرت عينُ أبي أيوب الأنصاري في رمسِه وهو يسمع هتافَ محمد الفاتح وهو يحمد الله على الفتح ويدخل المدينة على صهوة جواده... لقد كان هو الفاتح... وكان جيشه هو ذلك الجيش المبشَّر به.

وهكذا فالذين نذروا أنفسهم سواء لمثل هذا الجهاد والقتال أو للجهاد في ساحة الإرشاد والدعوة والتبليغ؛ عندما يفتحون البلدان تبقى هذه البلدان بأيديهم عصورًا وعصورًا، ولكن عندما يصيبُ الوهنُ أي الخوفُ من الموتِ قلوبَ المسلمين -كما أخبرنا الرسول ﷺ في أحاديث عدة- يبدؤون بفقدِ هذه البلدان واحدةً تلوَ أخرى.

لقد كنا نملك قبل عصرين أو ثلاثة ثقلًا كبيرًا ومكانةً بارزةً في التاريخ الإنساني وفي التوازن الدولي، ولكننا فَقَدْنا اليوم هذه المكانة وهذا الثقل، وليس هناك إلا تفسيرٌ واحدٌ لا غير لهذا الأمر،

(١١٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ٣٦٩/٣؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٥٩/١٦.

وهو أننا كنّا نحملُ روحًا إسلاميّةً في عهد التفوُّق وننقاد إلى الله تعالى ونستسلمُ لأوامره بشكل جدّيّ، أما في عهد التراجع والتخلُّف فقد أحاطَ الوهن بقلوبِنا، أي داخَلَنا الخوفُ من الموتِ والضعفُ وحبُّ الحياة والتعلُّقُ بها والخشيةُ من المستقبل.

لقد حكم المسلمون أرجاء العالم -التي انتشروا فيها بسرعة مذهلة- مدة ألف عام تقريبًا وأداروها إدارةً جيدة، فهل يمكن عزوُ أسبابِ هذا النجاحِ الكبيرِ إلى أيِّ عاملٍ غير عاملٍ واحد؛ وهو أن المسلمين كانوا قد نذروا كلَّ ما يملكونه -سواء أكان ماديًّا أو معنويًّا- في سبيل الله تعالى؟

ونحن نرى الروح نفسها عند باقي المجاهدين والأبطال في العالم الإسلامي، إذ لم يتشبثوا ولم يتعلقوا بحبِّ الحياة، بل بحبِّ هِبَةِ الحياة للآخرين، لقد كان هدفُهم شيئًا واحدًا وهو إعلاء كلمة الله في الأرض.

نرى هذا عند "ألب أرسلان" وعند "كلج أرسلان" وعند السلطان "مراد الأول" وعند "محمد الفاتح" و"ياووز سليم"... وفي غيرهم وغيرهم، في معركة "ملازكرد" الشهيرة لبس "ألب أرسلان" جبة بيضاء ثم وقف أمام جيشه وخطب فيهم خطبةً حماسية قال فيها إنه يدعو الله أن تكون جبته البيضاء هذه كفنًا له، أي كان يبتغي الشهادة أكثر من ابتغائه النصر، لذا فقد لبَس كفنَهُ والتحمَ دون تردُّدٍ مع جيش يبلغ أضعاف جيشه، فما غربت الشمسُ إلا وقد كُتِبَ له النصرُ ولكن كانت هناك غصّة في حلقه، إذ لم تُقَدَّرْ له الشهادة في تلك المعركة.

أما السلطان "مراد الأول" فقد دعا اللهَ قبيل المعركة أن ينصرَ جيش المسلمين وأن يرزقه الشهادة، وقد قُبِلَ دعاؤُه فانتصرَ جيشه ورُزِقَ هو الشهادة[١١٤]، وعندما تلقى الطعنةَ القاضية وتهاوى إلى الأرض وبدأ يجودُ بأنفاسِهِ؛ سألوهُ عن آخر رغبةٍ له فقال جملتَهُ الأخيرة بعد النُّطْقِ بالشهادتين: "لا تنزلوا عن صَهواتِ الجياد".

كان للدولة التي أنشأها أمثال هؤلاء ثقلٌ دولي في جميع العهود، فالأنظار كانت مصوّبة إليها على الدوام. أجل، إن مثل هذه التضحيات التي أبداها هؤلاء الأبطال، إلى جانبِ وضعِهم رضا الله في المرتبة الأولى؛ هو الذي أمَّنَ عيشنا بعزَّةٍ وحَفِظَ حدودَنا.

وعندما فقدنا هذه الروح أحاط الأعداء بنا من كلِّ الجهات، وبدؤوا بالتهامِنا تدريجيًّا. أجل، لقد متْنَا أولًا في مستوى الروح ثم في مستوى الكرامة ثم في المستوى المادي، والآن بدأْنا ننتَظِر المعونة من الدول الكبرى، وأصبَحْنا نعدّ نجاحنا في تأخير سدادِ ديوننا لهذه الدول إنجازًا كبيرًا.

فإن أرادت هذه الأمة الرجوع إلى سابق مجدها فعليها أن تُعيدَ تطبيق جميع العوامل التي رفعتها إلى الأعالي في السابق، دون إهمالِ أيِّ عاملٍ منها، لأنه ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى**﴾ (سورة النَّجْمِ: ٥٣/٣٩-٤٠).

(١١٤) انتصر العثمانيون في هذه المعركة وهي معركة "كوسوفا" الشهيرة تحت قيادة السلطان مراد الأول ضد الجيش الأوروبي المتألف من البلغاريين والصرب والبولنديين؛ وبعد انتهاء المعركة تجول السلطان مراد في ساحة المعركة فقيل له إن أحد نبلاء الصرب يرغب في إشهار إسلامه أمامه وإنه ضمن الجرحى فذهب السلطان إليه، ولكن كان هذا الأمرُ خدعةً من هذا النبيل الذي قام بِطَعْنِ السلطان بخنجرٍ كان يخفيه بين ملابسه، وهكذا استشهد السلطان مراد الأول. (**المترجم**)



خامس الخلفاء الراشدين

سؤال: لِمَ يُعدّ عمر بن عبد العزيز ﵁ خامس الخلفاء الراشدين مع العلم بأنَّ قبلَهُ سيدنا الحسن وسيدنا معاوية ﵄؟

الجواب: أظن أن هذه المسألة لم تشغل بالَ أحدٍ إلى يومنا هذا، وسأحاولُ الإجابةَ على هذا السؤال الذي بات يشغلُ الأذهان:

الخلفاء الراشدون أربعةٌ بإجماع الأمة: سيدنا أبو بكر، وسيدنا عمر، وسيدنا عثمان، وسيدنا علي﵃، وهم أشرفُ وأجملُ وأكملُ وأعظمُ الخلفاءِ بعد رسول الله ﷺ، ثمَّ آلت الأمورُ من بعدِهِم إلى بني أميّة، ولكن سرعان ما اهتزَّتْ روحُ الخلافة وكذا الصفاء والإخلاصُ الذي كان يُميّزُ علاقة المسلمين قديمًا، وصارت الخلافةُ ملكًا أو كادت، وانتشَرَ البذخُ والترفُ في جنبات القصور، وغدا الجوُّ مهيًّأً لظهور الوهن في النفوس الضعيفة، ورغم هذا لم يبلغ الهوى أو الانحطاط ببني أميّة مبلغَهُ، بل كان فيهم كثيرون وقّافون عند الكتاب والسنة، ولكن الأمويّين كعائلةٍ هَوَتْ نحو الانحلال.

وتمضي الأيام وتنشأُ في عائلة كهذه؛ أي في مكان أشبه بحقلِ الشوك وردةٌ نادرةٌ مثل عمر بن عبد العزيز فيحذو حذوَ الخلفاء الراشدين ﵃، وما بلغ عمر ﵁ الذرى إلّا لأنّه تحلّى بصفات أهمّها

أنه كَبَحَ جماحَ شهواتِه ومطامعِه الماديّةِ دفعةً واحدة، وقدّم الروح على الجسد والقلبَ على النفسِ، وتحرَّى رضا الله ﷻ وسنَّةَ النبي ﷺ في حياته كلّها.

وهذا ليس أمرًا سهلًا لا سيما لمن كان يعيش في تَرَفِ القصور وبَذَخِها، والصيدُ هوايتُهُ، والطيبات التي أحلها الله مأكَلُهُ ومشربُهُ ومتعتُهُ، وكذا وسائلُ الرّفاه الوفيرة المتوفِّرة لديه، فمن الصعوبة بمكان إذًا أن يعيشَ إنسانٌ كهذا على غير هذه الشاكلة، لا سيَّما أنَّه ترعرعَ في رغد العيش وتَرَفَّهَ في قصرٍ وأسرةٍ ومجتمعٍ تجافى عن العوامل التي تبعثُ فيه الحياة، إذ باتَ يفصِله عن مطلع عصر الصحابة نحو قرنٍ من الزمان.

وفي تلك الحقبةِ دنا الأجلُ من سليمان بن عبد الملك فألَحَّ بعضهم عليه ليوصي بالأمر من بعده لابن عمه؛ حفيد الفاروق عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من جهةِ أمِّهِ، ففعلَ، فرضيت الأمة بالأمر وبايعَتْ عمرَ بالخلافة.

ومنذ اليوم الأول الذي ولي عمرُ فيه الخلافة سرعان ما تغيَّرَ من مفرق رأسه حتى أخمصِ قدميه، وثاب إلى رشده فورًا، وعاد إلى روحِهِ، وتحول عن عمرَ القديمِ إلى عمرَ الجديدِ.

ومن يومئذٍ اجتهدَ عمرُ في أن يُحيِيَ عهد الخلفاء الراشدين الأوائل، فكافحَ المنكراتِ، وعبّد طرقَ الخيرات، وجابهَ البغيَ والجورَ، وشنَّ الحربَ على الظُّلْمِ، وقد رُوي أنه رأى في عنق زوجته قلادةً ذات يوم فظنَّ أنها من الغنائم فبدَرَهَا بالقول: "غيرُ هذا أَحرى بنا يا آلَ عمر"، وهكذا فعل في أمواله التي اشتبَهَ عليه أمرُها، ضمَّها

جميعًا إلى بيت مال المسلمين، ثم قام فَلَبِسَ الخشنَ من الثيابِ، وتولَّى أمر الخلافة.

صار عمر حاكمًا لدولة امتدت آنذاك من بحر خوارزم (آرال)، وبلاد ما وراء النهر، وأفغانستان، وغرب تركستان، وسمرقند، حتى جبل طارق والمغرب وتونس والجزائر ومصر وسوريا وليبيا في غرب إفريقيا، بل إنَّها بلغت ضفَّة الأناضول أيضًا. أجل، فشبه الجزيرة العربية فتحت كلّها، وباتت دول الخليج العربي في رعاية الدولة الإسلامية.

لقد حكم عمرُ وحده دولةً تزيد أربعين ضعفًا عن مساحة تركيا اليوم، فهو بالأحرى كان خليفة الله على وجه البسيطة إذ ذاك، لله درّه كان كذلك وهو أفقر الناس يومئذ!

والغريب أن المالَ فاضَ في عهده كما يروي المحدثون الكرام، حتى إن المؤمنين لم يكونوا يجدون مَن يَقبل الزكاةَ أو الصدقات، وهذا هو عينُ ما أخبرَ عنه الصادقُ المصدوقُ ﷺ من أمارات الساعة، وعدَّ منها: "**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ المَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ: لَا أَرَبَ لِي بِهِ**"[١١٥]، ولقد حَدَثَ هذا في عهدِ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

إن خلافة عمر كانت سنتين وبضعة أشهر، بيد أنها كانت فترة مباركة مثمرة، ويكأنه رضي الله عنه مكث في الحكم سنين عددًا؛ أصلح شؤون الدولة كلها وكانت قد امتدت بعدئذ حتى بلغت الأندلس،

(١١٥) صحيح البخاري، الفتن، ٢٣؛ مسند الإمام أحمد، ٥٠١/١٦.

وكان في إصلاحات عمر هذه ما يفنّد كلّ ما تكشّف حتى ذلك اليوم من مفاهيم خاطئة عن الخلفاء الراشدين ﷺ، وأعلى قَدْر سيدنا علي ﷺ، وقضى على ما كان من سوء أدب في بعض الخطب تجاه الخلفاء الراشدين، واستبدل بذاك الآية الكريمة التي غدت دستورًا يمتثل له ويعمل به ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة النَّحلِ: ١٦/٩٠)؛ فكان يأتمر بأمرها في العدل والإحسان وينتهي بنهيها عن الفحشاء والمنكر والبغي، ويحيا حياة العبّاد والزهاد، ويفكر تفكيرًا سويًّا، وها نحن ما زلنا نتلو تلك الآية في خُطَبِنا حتى الآن.

نعم، إنّ معيشتَهُ تلك لم تكن تتناغمُ وظروفَ الحياة التي عاشَها عمره كله حتى ولي الخلافة، بل إنّها كانت تباين مفهوم الحياة عند الأمويين في ذلك العهد، وهذا ما جعل سيرته كسيرة الخلفاء الراشدين عطرةً نقيَّةً صافيةً فبلغ ما بلغه إنسان عصر السعادة، ونعم ما فعل الذين جاؤوا من بعدُ ولقَّبُوه بمجدِّدِ العصر، فقالوا: إن كان ثَمَّة خليفة خامس بعد الخلفاء الراشدين الأربعة فهو عمر بن عبد العزيز ليس إلا.

أمَّا مسألة تفضيل عمر بن عبد العزيز على سيدنا الحسن وسيدنا معاوية ﷺ فتلك مسألة تتجاوزُ حدَّنا.

وهذا عبد الله بن المبارك ﷺ لما سُئل عن عمر بن عبد العزيز وسيدنا وحشي ﷺ: ما هي درجة كلٍّ منهما ورتبته؟ فأجاب من حيث الفضيلة العامّة أي صحبة رسول الله ﷺ والأخذ عنه: "لَغبارٌ دخل في أنف فرس وحشيّ حين قاتل مع رسول الله ﷺ أفضل

من كذا عمر بن عبد العزيز"[١١٦] وما ذاك إلا لأنّ وحشيًّا صحابيٌّ، وعمر بن عبد العزيز ليس كذلك. نعم، إذا ما نظرنا إلى بعض الخصائص فربما يحرز عمر قصب السبق فيها، لكن الفضيلة المطلقة للصحابة فحسب.

نعم، فقد يفضُلُ المفضولُ الفاضلَ في أمرٍ أو أكثر، ولكن الراجحَ في الفضيلةِ المطلقة هو الفاضل.

وإذا كان الأمر على هذا النحو فإنّه يتعذّر علينا المفاضلة بين سيدنا عمر بن عبد العزيز وسيدنا الحسن وسيدنا معاوية ﷺ، وليس لنا أن نضعَ معيارًا أو تقديرًا أو حسابًا للدرجات التي بينهم، إنهم قِمَمٌ عالية، نشؤوا في ظل سماء الرسالة، ووردوا منهلَ الرسول ﷺ وتَغذَّوا منه، وشَهِدُوا أبعادًا مختلفة وعلا شأوُهم فيها، ويكأنَّهم يذكّروننا بمن يعيش هناك في الجنة. نعم، فربما بلغ أكثرهم درجات الملائكة، فلو صدَرَ عنّا حكمٌ فيهم فلربما يغمرنا الخجلُ ونحن نَقِفُ بين يدي رب العالمين ﷻ، فيا لهُ من أمرٍ مخجِلٍ، أن ينتقد من لا يقدرون أن يقوموا بوظيفة بوّاب في محكمة أناسًا يتعالَون عن أن يكونوا قضاة في تلك المحكمة؛ لذا فإنّ علينا أن نحفظَ ألسنتَنا وخواطرنا، وأن نُنَكِّسَ رؤوسنا إجلالًا وتقديرًا لهم، ونرجوهم أن يرضونا خَدَمًا على أعتابهم.

(١١٦) الإمام الرباني: **المكتوبات**، ١/١٢٠.



هل الإسلام احتل البلدان باسم الفتح؟

سؤال: يقولون: إن الإسلام كالنظم الإمبرياليّة احتلّ باسم الفتح أماكن مختلفة من العالم، ثم استعمرها فيما بعد؟ فما رأيكم في هذا؟

الجواب: لا يختلف هذا الادِّعاء عن بقية الادعاءات المغرضة الأخرى التي يلهث بها أعداء الإسلام، والتي تهدف إلى خداع وتضليل المسلمين الذين لا يعرفون الإسلام حقَّ المعرفة.

بدايةً من الذي سيستعمره الإنسان في شبه الجزيرة العربية وما الذي سيحتله؟ هل شاهدتم إنسانًا يحتل قومه وقبيلته ثم يستعمرهما؟ لا سيما إذا كان المُدعى استعماره أناسًا فقراء مثل إنسان الحجاز أو أرضًا مجدبة مثل أراضيه!

علاوةً على ذلك فإنه من باب السخرية بل من المستحيل أن نلصق صفة الاستعمار والإمبريالية والاستغلال بهؤلاء الروحانيين الذين تصدّوا لجميع المخاطر بغية تبليغ رسالة الإسلام إلى كل أنحاء العالم، واعتبروا الاستشهادَ أعلى مرتبة في سبيل الدعوة التي يؤمنون بها، وأمضوا أعمارهم في مكافحة أعداء يفوقونهم بخمسة عشر أو بعشرين ضعفًا على شتَّى الجبهاتِ في كلِّ أنحاء العالم.

يا ترى ما الذي تَحَصلَ عليه هؤلاء الناس واستغلُّوه واستفادوا منه في مقابل ما تجشَّموه من صعاب وما عايشوه من حرمان وتضحية؟!

إن الذين ادَّعوا مثل هذه الادعاءات يعترفون كذلك بأن ادِّعاءاتهم لا محلَّ لها من الصحة، فهل من الممكن إلصاق صفة الاحتلال والاستعمار بهؤلاء الناس الذين فارقوا أوطانهم وبيوتهم وذويهم سنوات عدة، لا يألون على شيء إلا التعريف بربهم حيثما حلُّوا ورحلوا؛ والذين جعلوا الموت والشهادة أغلى أمانيهم، والذين تتفطَّرُ قلوبهم لعدم نَيلِهم الشهادة في الحرب وعدم تمكُّنهم من لقاء أصدقائهم في الآخرة.

إن النُّظُمَ الاستعمارية هي من صنعت الاحتلال والإمبريالية بوجوهها المثيرة للاشمئزاز، بداية من الإسكندر حتى نابليون ومرورًا بالرومان حتى الجومانيين ومن المغول حتى بعض الدول التي اقتفَت أثرهم في الوقت الحاضر، فهؤلاء هم الذين خربوا البلاد وأفسدوا الأخلاق وأحدثوا الوقيعةَ بين الأفراد، ثم خلَّفوا وراءهم أماكن خربةً وأطلالًا ومفاوز قفرةً وأيامًا انعدم فيها العمل والنشاط وأماسيّ لا تفكر في المستقبل وسيولًا من الدماء والقيح والصديد وانصرفوا.

أما اليوم فهم كالعقارب يلدغون ويصيحون ويريدون باسم الاحتلال والاستعمار أن يُلَطِّخُوا وجهَ الإسلام ونبيَّه العظيم ﷺ وخلفاءَه الراشدين والدولة العلية العثمانيّة وسلاطينها حتى يتسنى لهم التستُّر على أعمالهم المقزِّزة المخجِلة.

وكما أن المسلمين لم يقوموا باستغلال دولة أو باحتلال أحد؛ شعبًا كان أو فردًا في أي حقبة تاريخية أو في أيِّ مكان في العالم؛ فكذلك لم يسمحوا باستعمار واستغلال الغير للأماكن التي فتحوها.

أجل، كيف يدّعون أنهم محتلون مستغِلّون وخليفة دولتهم الإسلامية كان يسدّ رمقه ببضع زيتونات يوميًا قائلًا: "حريّ بي أن أعيش معيشةَ عامة المسلمين وعلى مستوى أفقر واحد منهم "، في فترة كانت تتابع فيها الفتوحات في كل أنحاء العالم.

ما الذي احتلَّه واستعمره ذلك الذي كان همُّه الآخرة، ولما جاؤوا له ذاتَ معركةٍ بسلَبِ الشخص الذي قتله وضع يده على حلقومه وقال: "ما شاركتُ في هذه المعركة من أجل الغنيمة، بل إنما شاركتُ فيها حتى ينفذ السهم في هذا الحلقوم فأستشهد في سبيل الله".

وفي معركةٍ أخرى قَتل أحد المسلمين رجلًا من كبار الكافرين الذين كانوا يُلحقون أذًى بالغًا بالمسلمين ثم اختفى، فوقف قائد الجيش الإسلامي عند سَلَبِ المقتولِ ونادى على القوم مستحلِفًا الجندي المسلم القاتل أن يأتيه، فاضطر الجنديُّ المسلم إلى الخروج وإجابةِ النداء، ولما وقف أمام القائدِ بوجهه الملثَّم جرى الحوار التالي بين الاثنين:

- بالله عليك هل أنت من قتله؟

- أجل.

- إذًا خذ الألف دينار هذه.

- لقد قمت بهذا العمل من أجل الله.

- ما اسمك؟

- وما تفعل باسمي؟ أم أنك تريد أن تعلنه على الملإ وتضيِّعَ ثوابي؟

قولوا لي بربكم: هل من الممكن أن يقوم مثل هؤلاء الناس باحتلالِ أحدٍ أو إقامة مستعمرات على وجه البسيطة؟! أم الأحرى أن نقول: إن العداوة والحقد عندما يصلان إلى مستوى معين فإنَّكم ترون الذين امتلأت صدورهم بهذه الصفات البغيضة لهم أعين ولكن لا يبصرون بها، ولهم آذان ولكن لا يسمعون بها، ولهم قلوب وعقول ولكن لا يفقهون بها.

والآن لنرجع إلى الموضوع الرئيس: ما معنى الاستعمار والإمبريالية؟ ومن الذي صنعهما؟

الإمبريالية أو بعبارة أخرى الاستعمار هي: فرض سيطرة مجتمع على آخر أو دولة على أخرى، واستغلالها وابتزازها، إلا أن كلمة الاحتلال والحاكمية والاستعمار لا تحمل المعنى نفسه دائمًا، ومن ثم يمكننا ترتيب هذه المصطلحات وفق أشكالها المشاهدة في الوقت الراهن:

١- الاحتلال والسيادة المطلقة: يعني الهيمنة على بلد ما والتخلّص من أصحابها الحقيقيين والاستيطان فيها، حتى إن عصرنا الحالي وما سبقه من عصور قد شهد عديدًا من الأمم التي طردت سكان البلاد التي احتلَّتْها في مختلف أنحاء العالم؛ من مغارب الأرض إلى مشارقها، وأنشأت الأبنية على قبورهم.

٢- الاحتلال العسكري: ويعني فرض السيطرة العسكرية على بلد ما، والتدخل في جميع شؤون أفراده، فمثلًا بعد أن احتُلّت الهند من قِبَلِ بعضِ الدول، لم ينسحِبِ الاحتلال من الهند إلا بعدَ سنواتٍ طويلةٍ ذاقَ خلالها الهنودُ مرارة الاحتلال العسكري على نفسِ الشاكلة التي نتحدَّثُ عنها الآن.

٣- التدخُّلِيّة: تعني التدخل سرًّا وعلنًا في الشؤون الخارجية والأمنية والدفاعية والاقتصادية لدولة ما، وما الطور الذي يتبعه الشرق والغرب حاليًا مع الدول الفقيرة الضعيفة المتخلفة إلا نوع من أنواع التدخلية.

٤- إستراتيجية الغزو الفكري: وهي أخطرُ صور الإمبريالية وأكثرها شيوعًا، ووفقًا لهذه الإستراتيجية تقوم الدول الاستعمارية بوضع الخطط للغزو الفكري لدولة ما؛ فتُرشِّح عددًا من الأبناء المهرة الجريئين المستثمرين في تلك الدولة، ويلقنونهم تعليمًا خاصًّا داخل الوطن وخارجه، ويسجلونهم في محافلَ خاصّة، يستطيعون التحكم من خلالهم في مصير دولتهم، فيوضع هذا المثقف المستغرب في نقطة حيوية بإدارة دولته، وبذلك تصل تلك الدول الاستعمارية إلى مآربها في احتلال هذه الدولة.

وقد أتى هذا النظام الذي استخدمه المستعمرون الغربيون أُكُلَه كثيرًا في القرون الأخيرة، وتوصل المستعمر من خلاله إلى هدفه بسهولة دون أن يكون هدفًا مباشرًا للطرف الآخر ودون أن يثير الحنقَ عليه أو العداوةَ له؛ حتى إننا يمكنُ أن نعتبرَ العالم الإسلامي اليوم قد سقطَ إلى حدٍّ كبير في مثل هذه الهوَّة من الاستغلال والاستعمار.

وإليكم ما جرى في الدول التي تعرضت للإمبريالية أيًّا كان شكلها:

١- ابتعدَ الشعب عن أصله بسببِ الانصهارِ الثقافي، وأُنسِيَ ماضيه وتاريخَه، وجُرّ إلى السقوط في أزمة الهويّة.

٢- مُحِيَت العزيمةُ القوميَّة، وأجدبت الأرض، وأصبحت الصناعةُ تابعة للدول الإمبريالية، وعقمَ العلم، وحلَّ التقليد محلَّ البحث والتقصِّي.

٣- أصبحَ الشعب ينازعُ بسبب انتهاجِ السياسة القائمة على ركيزتين؛ إحداهما: عدم الإبادة الكاملة للشعب، والثانية: عدم السماحِ له بالنهضة الحقيقية، فغدا في احتياجٍ دائم لغيرِهِ، وأُلهِي طوال حياته بكلمات غير واضحة المعنى مثل التقدمية والغربية والحضارة والحداثة.

٤- وُضعت الدولة تحت الحصار بسبب الدعم الخارجي والمعونات الخارجية، وأعيقت الواردات والصادرات سرًّا وعلنًا، حتى تفاقم الوضع بشكل عام بسبب استئثار الإمبرياليين بالنهضة والتنمية.

٥- عملت الدول الإمبريالية كلَّ ما يلزم حتى تجعل الشعب من ناحية في فقرٍ دائمٍ، وجرَّتْهُ من ناحية أخرى إلى الإسرافِ والبذخ، ونشرَتْ بذورَ عدم القناعة في صدرِهِ، وجعلته في استياءٍ دائم لِتَصِلَ به في النهاية إلى نزاعٍ داخلي.

٦- قتل الإمبرياليون روح البحث لدى أفراد الشعب في العلم والتقنية والتكنولوجيا، وعوّدوا معاهد العلم على التقليد، والمصانع على التركيب، وجعلوا الثكنات العسكرية معرضًا لفضلتهم من الأدوات الحربية.

الآن يا ترى هل من المنطق تشبيهُ الإسلام والفتوحات الإسلامية بهذه النظم الإمبريالية الاستعمارية التي تسبَّبَتْ في هذا القدر من المساوئ والأضرار؟

بدايةً فكما لم يعمل الإسلام على تشريد أحدٍ من وطنه وبيته فكذلك لم يُقيّد أحدًا ويمنعه عن السعي والعمل، لقد حرر الإسلام شعوب الدول التي فتحها ولم يضع حظرًا على أديانهم ومشاعرهم وأفكارهم، بل كفل الرعاية لهم جميعًا كما كفلها تمامًا للمنتسبين إليه ومواطنيه، وجاء الفاتحون المسلمون بالأمن والأمان إلى معظم الدول التي فتحوها، فأصبحوا أفرادًا معتبرين محبوبين مقبولين لدى أهالي تلك البلاد... فإن لم يفعلوا هذا أكان من الممكن أن ينهال النصارى على الكنائس في بعض البلدان يدعون الله فيها بالنصر للمسلمين خشية أن يستولي الرومان على بلادهم مرةً أخرى؟ إن لم يفعلوا هذا أكان من الممكن أن تحافظ دولة كبيرةٌ مترامية الأطراف مثل الدولة الإسلامية على الأمن والأمان طوال عصورٍ عدة؟ أليس للإنسان أن يحتار وينبهِر من المقومات التي لجأ إليها هؤلاء المسلمون لتحقيقِ الأمن والأمان في بلادهم كلَّما رأى دولةً لم تستطع أن تحقق الأمن والأمان على أراضيها رغم صغر مساحتها ورغم ما تملكه من وسائل اتصالات حديثة وعدة وعتاد عسكري!؟

أظن أن عديدًا من المثقفين في وقتنا الحاضر قد أدركوا هذه الحقيقة، فنادوا بضرورة إعادة النظر في المقومات التي شكلت دعائم وجودنا وبقائنا والخاصة بتلك الفترة التي أطبقت فيها سيادة الإسلام على كل العالم.

ونجحَ الفاتحون المسلمون في فتح القلوب مع أبواب البلاد التي فتحوها، فحظوا بثقةِ وتقديرِ أهالي تلك البلاد، ثم استثمروا مكتسبات وفنونِ ومعارف تلك البلاد في مجالي العلم والفنّ ومهدوا حقول العمل للعلماء والمفكِّرين في بلادهم، وبالغوا في تقدير العلماء والمفكرين مهما كانت أديانهم، وجعلوهم أعزاء مكرَّمين داخل المجتمع الإسلامي.

ولم يضطهد الفاتحون المسلمون أو يظلموا أحدًا مطلقًا، على عكس ما فعلت الدول الاستعمارية بشعوب البلاد التي احتلوها واستعمروها، ليس هذا فقط بل عامَلَ الفاتحون المسلمون أهالي البلاد التي فتحوها معاملتَهم لِبَنِي جلدتهم والمنتسبين لدينهم، ومواطنيهم.

جاء في الخبر الذي يرويه أنس بن مالك ﵁ أنَّ رجلًا من أهل مصرَ أتى إلى عمر بن الخطاب ﵁ فقال: يا أمير المؤمنين عائذٌ بك من الظلم قال: عذت بمعاذ، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه، ويَقْدم بابنه معه، فقدم، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الألْيَمَيْن، قال أنس: فضرب، فوالله لقد ضربه ونحن

نحبُّ ضربَهُ، فما أقلع عنه حتى تمنَّينا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربني، وقد اشتفيت منه، فقال عمر لعمرو: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟، قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني(١١٧).

وعند وجود عمر بن الخطاب ﵁ في فلسطين لتسلُّمِ مفاتيح بيت المقدس أدركَتْه الصلاة، ورغم إلحاح البطريرك عليه بالصلاة داخل الكنيسة إلا أنه رفضَ وفضّل أن يصلي على التراب في الخارج وقال قولته الشهيرة: "لا، لو صليت داخل الكنيسة لاتَّخَذَها المسلمون من بعدي مسجدًا، وقالوا هنا صلى عمر"(١١٨)، وبذلك أظهر موقف الإسلام من المنهزمين؛ ذلك الموقف الذي تتجلى فيه قمة الرحمة والإنسانية، والذي لم يبلغ أحد مستواه حتى يومنا هذا.

قولوا لي بربكم، هل يمكن لهؤلاء الناس أن يحتلُّوا غيرهم؟ أو يفكروا في استعمار غيرهم؟ وهل يصلح أن نُطْلِقَ النظامَ الإمبرياليَّ على ذلك النظام القرآني الذي مثّلَتْهُ هذه الأرواح السامقة؟!

---

(١١٧) أبو القاسم المصري: **فتوح مصر والمغرب**، ١/١٩٥.

(١١٨) **تاريخ ابن خلدون**: ٢/٢٦٨.



البشارة بفتح إسطنبول

سؤال: لماذا وردت البشارة النبويّة خاصَّةً بفتحِ إسطنبول دون غيرها من المدن؟ وما الحكمة من تحقُّقِ هذا الفتحِ على يد الأجداد؟ هل يمكن تقديمُ إيضاحٍ دينيٍّ وتاريخيٍّ حول هذا الأمر؟

الجواب: لم تكن بشارات الرسول ﷺ خاصة بفتح إسطنبول فقط، فهناك إشاراتٌ إلى فتح "الفسطاط"، وهي المدينة التي بناها عمرو بن العاص رضي الله عنه، ومدينة "القيروان" التي أنشأها عقبة بن نافع رضي الله عنه، وهناك روايات حول فتح "البصرة" كذلك، ومع ذلك فَلِبِشَارةِ فتحِ إسطنبول موقع خاص ومتميّز، وقد وردت هذه البشارة النبوية في المسند للإمام أحمد، وكذلك في المستدرك للحاكم وجاءت بالصيغة التالية: "لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ"(١١٩).

أصبحت "إسطنبول" بعد فتحها من قبل المسلمين ذات أهمية كبيرة بالنسبة للعالم الإسلامي، إذ أصبحَتْ مركزًا لانطلاقِ جيوشِ الفتحِ إلى جهاتِ العالم الأربع، وأصبحت عاصمةً للدولة العالمية، ومدينةً مباركةً وقلعةً منيعةً على تخومِ الغرب. نعم، إنَّ البشارة النبويّة إنما نصَّت على إسطنبول على اعتبارِها ستؤدي وظيفةً مقدّسةً على هذا المنوال.

(١١٩) **مسند الإمام أحمد**، ٤/٣٣٥؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٤/٤٦٨؛ الطبراني: **المعجم الكبير**، ٢/٣٨.

كانت المدينة المنورة في عهد الخلفاء الراشدين هي المركز وكانت جيوش الفتح تنطلق منها إلى أرجاء العالم، وحافظت على موقعها المتميِّزِ كمركزٍ للثقافة وكمركزٍ للفتوحات سنوات عديدة، لم تنزل المدينة عن موقعها المعنوي هذا أبدًا، ولكن كلَّما تغيَّرَتْ جغرافيّة العالم الإسلامي وتوسعت انتقل مركزُ الدولة من بلدة إلى أخرى، فقامت دمشق أولًا ثم بغداد ثانيًا بأداء هذه الوظيفة أمدًا طويلًا، أما بعد فتح إسطنبول فقد أصبحت وظيفة المحافظة على مكة والمدينة ودمشق وبغداد على عاتقها، ليست المحافظة عليها فقط، بل رعايتها كذلك.

فكل عام كان "محمل الصرة" يخرج من إسطنبول حيث يشيعه السلطان راجلًا بنفسه حتى خارج المدينة، وكان هذا المحمل يحمل الهدايا الثمينة لأحفاد الرسول ﷺ أولًا ثم لأحفاد الصحابة ثم لجميع فقراء المدينة، وكانت الهدايا تحتوي على الذهب والفضة والمرجان وغيرها من الأحجار الكريمة والهدايا الثمينة الأخرى، وهكذا كانت إسطنبول تعيش كل سنة متعةَ إهداء الهدايا إلى مدينة الرسول ﷺ وإلى مدن الصحابة ﵃.

لذا فبسبب هذه الخدمات الكبيرة التي ستقوم بها هذه المدينة في المستقبل كان الرسول ﷺ يبشر بهذه البشارة من وراء العصور ويتقبّلها بقبول حسن، وأصبحت المدينة المنورة ودمشق وبغداد بعد فتح إسطنبول مثل أبوينِ يحظيان بمروءة ابنهما وشهامتِهِ، وكأن إسطنبول ابنٌ بارٌّ يليقُ بمقام والديه، فَنُورُ الإسلام الذي وُلِدَ في المدينة وشعَّ وتعمَّقَ في دمشقَ وبغدادَ انعكسَ في إسطنبول لِيُنِيرَ

ظلماتِ بلدانٍ لم يَصِلْها بعدُ هذا النور، لذا فمع تسليمنا بقدسيَّةِ مكة والمدينة فإنَّ لإسطنبول مكانةً واضحةً في خدمة هذه المدن وخدمةِ جميعِ العالم الإسلاميّ.

لقد تمَّ بفتحِ إسطنبول انتهاءُ عصرٍ وبدايةُ عصرٍ آخر في التاريخ(١٢٠)، فالجيوش الإسلامية التي توجَّهَتْ نحو الغربِ كانت تنطلق من إسطنبول، كما تمَّ فتحُ بغداد أكثر من مرة من إسطنبول، وفي الفتح الأخير الذي تحقق في عهد السلطان مراد الرابع كان الجيشُ منطلقًا من إسطنبول، وذلك اليوم هو الذي تمَّ فيه تحقيقُ وحدةِ العالم الإسلاميِّ مرَّةً أخرى، لذا أصبحَتْ إسطنبول لقيامِها بمثلِ هذه الوظائفِ مدينةً مباركة، كما استضافت -قبل فتحها من قبل المسلمين- أبا أيوب الأنصاري ﵁ وهو الصحابي الكريم الذي استضاف رسول الله ﷺ في بيتِه المتواضع.

فانظروا إلى تجلّياتِ القَدَرِ كيفَ أتاحَت لإسطنبولَ استضافةَ مَن استضافَ الرسول ﷺ في المدينة المنورة، وإن "محمد الفاتح" ما إن فتحَ إسطنبول حتى قام بالبحث الفوري عن مثوى هذا الصحابي الكريم، ولقد قام بذلك قبل قيامه ببناءِ جامع الفاتح، وقبل تحويلِه أيا صوفيا إلى جامع، وقبل المباشرة بخططِه التي وضعها لإسطنبول، لقد أوعزَ إلى الوليِّ الكبير "آق شمس الدين" الذي كان مظهرًا لِسِرِّ ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (سورة ق: ٢٢/٥٠) في الدنيا بمهمّة البحثِ قائلًا له: "ابحثْ لي عن مثوى هذا الصحابي الكريم الذي استضاف الرسول ﷺ، فلم يلبث أن وجده، فقام محمد الفاتح

(١٢٠) يعد فتح إسطنبول سنة (١٤٥٣م) نهاية القرون الوسطى وبداية العصور الحديثة، أي بداية عصر النهضة. (المترجم)

ببناء جامعٍ من أجمل جوامع العالم الإسلامي بالقربِ من قبرِ هذا الصحابيِّ الجليل.

وهكذا فإن إسطنبول تحتفظ بأمانة ثمينة وقيمة ومهمة للرسول ﷺ، وأصبحت رمزًا للجهاد بسبب هذا الصحابي الذي جاء إليها مجاهدًا، فكم من جيش مجاهد انطلق منها زاحفًا، وكم من فتحٍ مؤزَّرٍ كانت إسطنبول مركزًا لانطلاقِ جحافِلِهِ، فإن كانت خيولنا تلعب وتسرح في تلك العهود في ثلاث قارات، فقد فعلنا ذلك بالجيوش المنطلِقَةِ من إسطنبول، وقد استنبط بعض علمائنا بحساب الحروف الأبجدية اسمَ هذه المدينة من الآية الكريمة ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ (سورة سَبَأٍ: ٣٤/١٥)، فأطلقوا عليها اسم "البلدة الطاهرة"[١٢١]، صحيح إنهم ذكروا ذلك لمدينة "صنعاء" أولًا إلا أنه لا يمنع أن تكون مكة والمدينة وإسطنبول مقصودة منها كذلك، فهذه البلدة الجميلة من الناحية المادية والمعنوية والتي تحتضن مراقد العديد من الصحابة والأولياء بلدة مباركة، ونأمل أنها ستستمرُّ في الاحتفاظ بمقامها المبارك، فإن لم تكن محتفظة به فنحن نأمل أن تصل في يوم من الأيام إلى هذا المقام ويهبّ عليها النسيم المحمدي المبارك مجدَّدًا.

والنبي ﷺ يشير إلى فتح ثان لإسطنبول، أي إن إنساننا الذي هربَ من ذاتِه وماهيَّتِه وروحِه سيرجع يومًا إلى هويَّتِه الأصليّة وإلى ذاتِه

(١٢١) وفقًا لِحِسَابِ الحروفِ الهجائية التي يقيسُ بها البعضُ فإنَّ نتيجةَ جمع رموز الحروف العددية لِكلمة "بلدة طيبة" هي تاريخ فتح إسطنبول، وذلك أن ما يُعادل الحروف من الأرقام الرمزية في ميزان الحساب الهجائي هو على النحو التالي بالنسبة لعبارة "بلدة طيبة": فالباء ترمز إلى الرقم ٢، واللام إلى ٣٠، والدال إلى ٤، والتاء إلى ٤٠٠، والطاء إلى ٩، والياء إلى ١٠، والباء إلى ٢، والتاء إلى ٤٠٠، وإذا جمعنا هذه الأرقام فإن المجموعُ هو: (٨٥٧)، وهو العام الهجري الذي فُتِحَت فيه إسطنبول. (الناشر)

وروحِـه ويرتفِـعُ إلـى حياةِ القلـبِ والروح ويقوي صلتـه بالله تعالى، فهذه هي بشـارةُ الرسـول ﷺ، ونحن نترقب ذلك اليوم الذي سـيكون فيـه فتـح جديـد، ومن يدري فلعـل هناك حِكمًا وأسـرارًا أخرى رآها وعَلِمَهـا الرسـول ﷺ فـي حقِّ إسـطنبول، ممّا جعله يشـيرُ إلـى فتحِها ويُثني على الجيشِ الفاتـح وقائده قبل عصور عديدة.



جهود العثمانيين في خدمة الإسلام

سؤال: ما رأيكم فيما يُقال حول العثمانيين؟ وكيف أسلم الأتراك؟

الجواب: في السنوات الأخيرة كِيلَتْ ضدَّ العثمانيين تُهَمٌ وافتراءاتٌ غريبة لا تخطرُ ببالٍ، ويشيرُ الرئيس الأخيرُ للمشيخةِ العثمانيّة العلامةُ "مصطفى صبري" رحمه الله في كتابه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين" إلى موضوعٍ مهمٍّ إذ يقول:

"لا يمكن أن تشاهَدَ أمَّةٌ أخرى عدوةٌ لآبائها وأجدادها مثل أمّتنا على مدار تاريخ البشرية"، فالخلَفُ في كلِّ أمة يمدحُ سلَفَهُ سواء أكان رجلَ علمٍ أو رجلَ اجتماعٍ أو وليًّا أو أديبًا، فمثلًا كتب "بَطليموس (*Ptolemy*)" بعضَ الكتابات حول الجغرافية وحول علم "الكوزْموغرافية"[١٢٢] ثم جاء "كوبَرنيكوس (*Copernic*)" وذكر بأن قسمًا من كتابات "بطليموس" خاطئٌ، ولكنه ذكرَ ذلك في صيغةٍ مؤدَّبَةٍ: "لتسعدْ روحُك يا بطليموس! صحيح أن هناك أشياء خاطئة فيما كتبتَهُ، ولكن لم يكن أمامك طريق آخر، فقد كانت معارف وعلوم عصرك بذلك القدر، وما كان بإمكانك تجاوزُ ذلك".

(١٢٢) وهو يشمل علم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا. (المترجم)

بعد "كوبَرنيكوس" جاء "غاليليو" ثم "أنشتاين"، وقد مدحَ "أنشتاين" كلًّا من "كوبرنيكوس" و"غاليليو"، فقد عدهما من مؤسسي قواعد علم الفلك، وشكرهما مع قيامه بتصحيح ما رآه من أخطائهما، ولكن لم يقم بلعنهما. أجل، هكذا يفكر الغرب.

انتقلَ رقمُ الصفر من الهند إلى الأناضول، وانتقلَ من الأناضول على يدِ المسلمين إلى أوروبا التي كانت تستعمل الأرقام الرومانية، والحقيقة ما كان في الإمكان إجراء العمليات الرياضية والهندسية بهذه الأرقام، وما أن قام مسلمو الأناضول بإيصال الصفر إلى أوروبا؛ حتى دبت الحيوية في الأرقام هناك، ومع أن الأوروبي تصرَّفَ بجحودٍ نوعًا ما نحو رجال العلم عندنا إلا أنه قدّر وقيّم تقييمًا جيّدًا موضوع استعمال الصفر والمبادئ الجديدة التي جاءت مع الرياضيات، ولولا الصفر لَما استطاعت أوروبا حلَّ أيّ معضلةٍ علمية، ولما استطاعت غزوَ الفضاء، صحيح أن ما أُهدي إليهم كان "صفرًا" إلا أن نتائجه كانت مهمّة جدًّا.

فإذا ما التفتنا إلى أمتنا سنجد أن الإمام الغزالي جاء إلى الدنيا عام (١٠٥٨م)، أي قبل ألف سنة تقريبًا، ولكنه سبق ثقافةَ عصره وعلومه، فقد ذكر أشياء مهمّة حول الفلك والطب والهندسة، حتى إن "جِبّ (*Gibb*)" قال عنه: "أنا لا أعرف في تاريخ الإنسان شخصًا آخر مثله استطاع أن يستوعب ثقافةَ عصرِه استيعابًا جيّدًا ثم ينقلها إلى الأجيال من بعده".

ولو قمنا بجمع كتب فخر الدين الرازي ﵀ ووضع أحدها فوق الآخر لتجاوز ارتفاعها ارتفاع قامتنا، فما كتبه في التفسيرِ فقط يزيد

على ستة آلاف صفحة، وقد حسبوا عدد الصفحات التي كتبها في حياته فظهر أنه كتب في كل يوم من أيام حياته -مع سنوات طفولته- (١٥-٢٠) صفحة، قد يبدو هذا لكم شيئًا بسيطًا، ولكن حاولوا أن تكتبوا صفحةً واحدةً، عند ذلك ستجدون بأن عليكم صرف نصف ساعة أو أربعين دقيقة، أما إن كان الموضوع موضوعًا علميًا وجادًّا ويحتاج إلى تدقيقٍ وبحثٍ فإنه يأخذُ وقتًا أطول.

لقد سبق هؤلاء علوم عصرهم بعدَّة عصور؛ فقد أجالوا النظر في الأفق وفيما وراء الأفق، ولكن الكسالى الذين جاؤوا بعدهم عاشوا على ميراثهم الغني ولم يضيفوا شيئًا جديدًا.

جاء مثلًا بنو موسى وأسسوا في بغداد أكبر مرصد معروف آنذاك، وبينما كان الأوروبي آنذاك يحسب أن الشياطين يأتون بالأخبار من القمر ومن النجوم، كان هؤلاء يكتشفون أشياء جديدة في علم الفلك، وعندما ذهب المسلمون إلى الأندلس أضافوا الشيء الكثير في ساحة العلم، ولكن أوروبا أعلنت فيما بعد الحروب الصليبية علينا وشغلونا ولم يعطوا لنا فرصة التفكير والرقي، ثم حسب المعجبون بالغرب أن كل شيءٍ جاء من الغرب، وهكذا قطعوا صِلَتهم بجذورهم وبثقافتهم وبماضيهم وبكتابهم ونأوا بأنفسهم عنها.

كل ثقافة تكون نتيجة لثقافة قبلها إذ تأخذ منها، وتكون أيضًا مقدمة للثقافة الآتية بعدها، وتلاحُقُ الثقافاتِ يُشْبِهُ بناءَ بناية، فأنت تأتي وتضع لبنة فيها ثم يأتي غيرُكَ ويضعُ لبنةً أخرى، وهكذا ترتفع البناية، فهكذا كان تقدم العلم والفلسفة من "كوبرنيك" إلى "غاليلو" ومنه إلى "نيوتن" ثم إلى "أنشتاين".

وبعد كل هذا الكلام الطويل أُريدُ تناولَ موضوع العداء للعثمانيين، إذ إنّهم يقولون لماذا لم يقم العثمانيُّون بتشييد مداخن المصانع بدلًا من تشييد المآذن؟

لا يملك الإنسانُ سوى الضحك من هذا السؤال الأحمق، لأن مداخن المصانع لم تكن موجودة آنذاك حتى في الأحلام، كان بناء الجوامع والمآذن هو البناءُ الأكبرُ والعملُ الأعظمُ آنذاك، لذا قاموا ببنائها، ثم إن الجميع يعلمون -وحتى الأعداء- بأنه لولا قيام "الإنكشارية"[١٢٣] باستعمال القوة التي أعطتها لهم الأمة ضد الأمة نفسها لَمَا تأخرنا أبدًا عن الغرب، ثم ألا نقاسي الآن من المشكلة نفسها؟ لقد كان العثمانيُّون سادةً في زمانهم، كانوا من الذين يحافظون على التوازن الدولي ويؤسسون السلام الدولي، ومَن شاءَ فليعترف ومن شاء فليُنكِرْ، ولكن رجال العلم المنصفين في الغرب يعترفون الآن بهذا.

إن العداء للعثمانيّين هو نتيجةٌ لاستغفال الغربيين لنا، وثمرة من ثمار تقليدِنا الأعمى للغرب، فمثلًا أطلق الفرنسيون في وقت من الأوقات على السلطان "عبد الحميد الثاني" لقب "السلطان الأحمر"، وما لبث الصحفيون عندنا أن أخذوا هذه الصفة ونشروها في صحفهم بعناوين بارزة. أجل، فجميع السباب والشتائم الموجهة

(١٢٣) **الإنكشارية**: مؤسسة عسكرية وضعها "أورخان الأول" للمشاة في الدولة العثمانية أدّت خدمات جليلة للدولة العثمانية في أدوارها الأولى، وهي أدوار النهوض والتوسع والتقدم، ثم فسدت هذه المؤسسة وأصبحت عائقًا كبيرًا أمام الدولة العثمانية، إذ بدأ رؤساء وقواد الإنكشارية بالتدخل السافر في سياسة الدولة وتبديل السلاطين وإيقاع المذابح حتى استطاع في الأخير السلطان محمود الثاني القضاء عليها وتأسيس مؤسسة عسكرية بديلة أطلق عليها اسم "النظام الجديد". **(المترجم)**

إلى آبائنا وأجدادنا إنما ترجمت من الغرب وصدرَت عنه، لذا فتكاد تكون جميع الألفاظ القبيحة المستعملة ضد عظمائنا ألفاظًا لقيطةً لا نسبَ لها وأوروبية المنشإِ والمصدر، وكم كنّا نتمنى لو أن هذه الأمة قدّرت أسلافها كتقدير الأوروبيين لأسلافهم، ثم إننا لا نستطيع القول بأن العثمانيين استغلوا الإسلام، ذلك لأن العثمانيين ارتبطوا بالإسلام وتعلقوا به في جميع عهودهم.. في عهود قوَّتِهم وفي عهودِ ضعفِهم.

ليس العثمانيون فقط بل كان "طُغرل بَك" -عمّ ألب أرسلان- يدخل إلى مجلس الخليفة العباسي "القائم بالله" بكلِّ أدَب، مع أن هذا الخليفة كان في حال من الضعف لا يُؤهِّلُه لتمثيل الخلافة والدفاع عنها، والحقيقةُ أنه لم يكن مضطرًّا لإبداءِ كلِّ هذا الاحترام والأدب لهذا الخليفة، غير أنه فعلَ ذلك لأنه كان يرى أن هذا الشخص الماثلَ أمامه يُمثِّلُ خليفة النبي ﷺ، لذا قال له بأنه يلوذُ به، وأنه في انتظارِ أيِّ أمرٍ يصدرُ منه للدفاع عن المعاني النبوية وعن الإسلام، قال له هذا ووضع جميع إمكانياته بين يديه.

كان القائم بالله هو الخليفة، ولكن محافظ الخلافة والمدافع عنها كان القائد "طُغـرُل بَكْ"، كان قد أسلم آنذاك من الأتراك ألف عائلة وكان "طُغرل بَك" زعيمهم ورئيسهم، وهذه السطور التي نقلتُها بتصرف قليل عن المؤرخ المعروف "إسماعيل حامي دانِشْمَنْدْ" مهمة جدًّا من ناحية إظهار سلوك أمتنا تجاه الإسلام، وأنا الآن أتساءل ما علاقة هذا التصرف للقائد "طغرل بك" بالاستغلال؟ إن ربطَ

هـذا التصرُّف النبيـل لـ"طغـرل بك" بالاسـتغلال إنما هو جهـلٌ بأمّتنا المجيدة وتاريخِها.

كانـت هـذه الـروح موجـودةً في أسـاس الدولـة العثمانيـة؛ عندما جـابَ "الغـازي أَرطُغْـرُل" الأناضول مـن أقصاه إلى أقصاه ثم اسـتقرَّ بالقرب من "سُـويوت"، كان يحمل راية الإسـلام، فلم يصدر عنه أيُّ شـيءٍ ضـد المسـلمين، وكان عظيـم التوقيـر للخليفة، وعندما اسـتقر "قايِي بُويُو" قرب "سُويوت" كانت هناك إمارات أخرى في الأناضول وكان هنـاك نـزاعٌ دائـم بينهـا، ولكـن "أَرْطُغْـرُلْ" ومِن بعـده "الغازي عثمـان" وجّهـوا نظرهـم وجهودهـم نحـو البِيزنطييـن ولـم يدخلـوا في فوضى هذا النزاع.

وكانت هذه الإسـتراتيجية تؤمّن من جهة توجيهَ أنظار المسـلمين نحو الهدف الأصلي، ومن جهةٍ أخرى تزيلُ مخاوفَ وقلقَ المسلمين منهم، لأنه كان من الممكن أن يكون أوَّلُ عمل يقوم به الغازي عثمان هـو محاولـة توحيد المسـلمين، ولكنه كان يتصـرَّف بحكمة بالغة في ضـوء الوصيـة التـي أخذها مـن والده ومن والد زوجته الشـيخ "أَدَب عَالـي"، وبالدرايـة والحكمـة التـي كان يتّصف بها هو نفسـه، لذا كان يقول: "لو عرف المسلمون أن الكفرَ هو البديل الوحيد أمامهم فإنهم سيتّحدون معي، وهكذا نستطيـع التغلُّبَ على الكفار والفجار".

لذا فقد اسـتهدف البيزنطيين، ولـم يتعرَّض للمؤمنين ولـم يتدخل أبـدًا في النـزاعات الـموجودة بينهم قائـلًا: "إن هدَفي هو البيزنطيون، وسـنفتح القسـطنطينيَّة عاجـلًا أم آجـلًا بـإذن الله تعالـى"، إن القـول بأن إسـلام هذا الشـخص المملوءِ حماسـةً للإسـلام لم يكن إلا من

ضرورات السياسة الطبيعية (جيوبولوتيك)[١٢٤] هو إما جهلٌ أو سوءُ نيّة، إن الدولة العثمانيَّةَ كانت مظهرًا لفضلٍ ربَّانيٍ لم يتيسَّرْ لأيِّ عائلة أخرى، لأنها حملت راية القرآن ستَّة قرون بكل إخلاص، وكانت من أطول الدول عمرًا، ولو لم يتم طعنُها من قِبَلِ بعضِ الخوَنة الداخليِّين قبل مائة أو مائة وخمسين سنة تقريبًا لكان من المحتمل أن تتعرَّفَ كثيرٌ من الأماكن على الوجه الباسم للإسلام.

لقد تعلَّقَ العثمانيُّون بدينِهم حتى في أضعفِ أدوارهم، فلقد كانت هناك مسرحيّة قبيحة للكاتب الفرنسي "فُولتير" يهاجِمُ فيها رسولَنا الحبيب ﷺ، وكانت فرنسا تريدُ تمثيلها في المسارح في ذلك العهد الذي كان يطلق على الدولة العثمانية اسم "الرجل المريض"، ولكن هذا الأسد المريض عندما علمَ بوجودِ نيَّةِ الهجوم على سيِّدِه ونورِ عَينِه ﷺ زأَرَ ضدَّ فرنْسا، حيث أرسل السلطان عبد الحميد الثاني -المتَّهم بأنه السلطان الأحمر، حاشاه- بَرقية إنذار لفرنسا قائلًا فيها: "لو قمتم بتمثيل هذه المسرحية التي تستهدف رسولي ورسول جميع المسلمين ﷺ، فإنني سأثير جميع العرب وجميع المسلمين ضدَّكم".

كم كنّا نتمنى أن يملك العالم الإسلامي مثل هذا الوعي والشعور، وقد أثارت هذه البرقيَّةُ مَوجةَ ذُعْرٍ في فرنسا ولم تستطِعْ تمثيلَ هذه المسرحيّة على مسارِحِها، وهنا أرادت إنجلترا تمثيل هذه المسرحية في بلدها، فأرسل الأسدُ الجريحُ بَرقيّة إنذار لها فأحجمت إنجلترا أيضًا عن تنفيذ نيتها وتراجعت عنها... هكذا كان أسلافنا الأماجد.

(١٢٤) **السياسة الطبيعية** (*GEOPOLITICS*): علم يبحث في تأثير العوامل الطبيعية كالعوامل الجغرافية والسكانية والاقتصادية في السياسة الخارجية للدولة. (المترجم)

أجل، يجب قطع الألسنة المتطاولة على الدولة العثمانية التي كانت تنتَفِضُ إذا ما مسّتْ ذرَّةُ ترابٍ لحية رسولنا ﷺ، فلا يمكن لأحد أن ينكر الدور العظيم الذي لعبته الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي بعد عصر الصحابة؛ فهي من رفعت راية الإسلام عالية خفاقة طوال ستّة قرون.



الزوايا والتكايا في أواخر عهد الدولة العثمانية

سؤال: هل كان للمدارس الدينيّة وللزوايا والتكايا دورٌ في سقوط الدولة العثمانية؟

الجواب: المدارس الدينيّة هي المدارس التي تُعَلِّمُ العلوم الطبيعية والشرعية، وقد قامت بأداء مهمَّتها في العهود التي اهتمّت بترقية العقل وتهذيب القلب والوجدان، أما الزوايا فهي بيوتُ الله المقدسة التي تمثِّل الحياة الروحية للرسول ﷺ، في هذه البيوت رُفِعَ اسمُ الله تعالى وفُتِحَتْ أبواب التأمُّل والمنافذ المؤدّية إلى معرفة الله تعالى، وفي هذه البيوت انهدمت جدران النظرة الطبيعية المادية جذاذًا وبانت من وراء ستائرها الرقيقة أضواءُ النور الإلهي، وكانت تؤدِّي مهامّ معينة تقوم بها بعض البيوت الآن، كما قامت المساجد أيضًا بأداء قسمٍ من هذه المهام وقدمت خدمات جليلة ذات أبعاد شتى في هذا الموضوع، لذا لا يمكن إنكار الخدمات التي قدَّمَتْها هاتان المؤسستان المباركتان للأمة الإسلامية أبدًا، ثم بَقِيَتْ هذه المؤسّسات تحت أنقاض دنيا تهدَّمت فوقها، وذُرَّ رمادُها، ولم تكن مشكلتُنا انهدامَ الإمبراطورية، بل إفلاسَنا الروحي.

وكم من المؤلم أن الذين بيدهم مقاليد السلطة لم يستطيعوا فهمَ هذا ولا يستطيعون حاليًّا، فليست المدارس الدينية وحدها حسب ادعاء البعض وراء انهدامنا وهزيمتنا، وإنما على العكس من ذلك، إذ عندما لم تعد المدارس الدينية تقوى على أداء دورها المنوطِ

بها سقطت الأمة وانهارت، ولطالما كانت المدارس الدينية تقوم في تاريخنا بنفس وظائف المدارس المتوسطة والثانوية والجامعات والمؤسسات الأكاديمية العليا.

وكان الخلفاءُ الراشدون في طليعةِ الأكابر ممَّن تخرجوا في المدرسة النبوية، وكان المسجد النبوي هو المدرسة التي تخرَّجَ فيها هؤلاء العظام، وفي هذا المسجد الأول انفتحَ الطريقُ لكي تنقلبَ المعابد إلى مدارس واستمرّت على هذا المنوال، وأصبحت المساجد أماكنَ لتعليمِ التفسيرِ والحديثِ والفقهِ، ويُتَذاكر فيها علم الكلام بل كلّ العلوم الكونية وكل الحوادث والأشياء بحذافيرها، فكما كان عصرُ النهضة في أوروبا عهدًا للبحث والتدقيق والتنوير؛ فإن عهد النهضة عندنا بدأ بمحمَّدٍ ﷺ ونما في عهد الخلفاء الراشدين وشرعَ في القرن الرابع بمرحلةِ ارتفاع عموديٍّ وسريع، فمن المجلب للنظر أن رجالًا أمثال ابن سينا والبيروني ظهروا في القرنين الرابع والخامس للهجرة، فبعد مرور أربعة قرون فقط على بعثة الرسول ﷺ ألّف عظماء الإسلام كتبًا بقيت تُدرس في الجامعات الأوروبية بعدهم عدّة قرون، وأوروبا مدينةٌ في عهد نهضتِها ثم ثورتها الصناعية إلى هذه الكتب، فلقد أسَّسَتْ حكمَها وقوَّتها وسيطَرَتها على العالم بالاستفادة مما في بطون هذه الكتب، وقد لعبت الكتب الطبّيّة خاصة لابن سينا والرازي والزهراوي دورًا كبيرًا في تشكيل العقلية العلمية في الغرب، ولم يكن من نصيب أي كتاب علمي في الغرب البقاء في التداول عدة عصور، بينما بقيت كتب ابن سينا ثمانية قرون وكتب الزهراوي ألف عام حجة في علم الطب في أوروبا.

وتُعد مدارسُ "نظام الملك" من أفضلِ دُورِ العلم التي أنتجَتْها المساجدُ، فمن جهة كانت تُمثل الروح والمعنى الذي أتى به الغزالي، ومن جهة أخرى كانت تعمل على نشر علوم ذلك العصر، أي إن العقول كانت تستنير بالعلوم والتقنية والقلوبَ بالعلوم الدينية، ومن امتزاج القلبِ والعقل المثير لهمّة الطالب نشأَ عظماء أمثال ابن سينا والرازي والبيروني وابن سنان البتاني والزهراوي، كان كل منهم عالمًا في ساحته فمنهم من اهتمّ بعلم الفلك ومنهم من اهتمّ بالبحث عن علم الفلك والقوانين الفيزيائية، ومنهم من حاولَ قياسَ محيطِ الأرض باستعمال علم المثلثات وباستعمال جا "جيب" وجتا "الجيب تمام" مع الأدوات البدائية لذلك العصر، كما توصلوا إلى أن الأرض تدور حول الشمس وذلك قبل ظهور "كوبرنيكوس (*Copernic*)" و"غاليليو (*Galileo*)" بسبعة أو ثمانية قرون، وبينما كان العالم الغربي يعيش في الظلام وفي الجهل؛ كنَّا نقومُ بصنعِ أجهزة وآلات وساعات تشتغل بنظمٍ هيدروليكية، فقد وضع "قره آميدي الجزري" قبل ثمانية قرون تقريبًا كثيرًا من الأجهزة والآلات الأتوماتيكية التي تعمل بالنظم والقوى الهيدروليكية، وحتى في تلك العهود القديمة استطعنا عمل خيول آلية تتحرَّك، بينما لم يكن الغرب قد اكتشف حتى كيفية عمل الساعة وكانوا يتساءلون عندما يرون الساعة: أيوجدُ فيها جنّ؟ فالمدارسُ الدينيّة عندنا كانت تقود التقدُّم العلمي آنذاك إلى هذه الدرجة.

وبجانب هذه المدارس الدينية كانت هناك الزوايا والتكايا التي كانت تَفْتَحُ أمام الإنسان كوَّةً إلى ما وراء العالم المادي وتنثرُ النورَ في القلوب، كما ظهر آنذاك متصوِّفون عظام كان بمقدرتهم الوصولُ

بأبصارهم إلى أحلكِ النقاط في الزمان والمكان، ومع ذلك كان كثير من هؤلاء المتصوفة لا يؤبه له، وهم من كان أحدهم يقول: "لو غابَ عني رسول الله ﷺ طرفةَ عين ما عددت نفسي من المسلمين"، ويقول آخر: "لقد رأيت النبي ﷺ خمسًا وسبعين مرة في حال الواقعة"، ومنهم من كان يلتقي بالصحابة ﷺ أو ينزلُ ضيفًا على الأنبياء العظام ﷺ، وكثير منهم تعمَّق الإيمان في قلوبهم وحظوا بالواردات السبحانية فصاروا كالشلالات يبثّون الفيوضات التي تتنزَّل عليهم في نفوس الناس.

فكما أروى الله الصحراء بماء نهر النيل فكذلك أروى قلوبهم ببحارٍ من فيوضاتِهِ، فحوَّلهم بالتربيةِ الوجدانية إلى بحارٍ بعد ما كانوا قطرات، وشموسٍ بعد ما كانوا ذرّات، ووهبَهم سعة تستوعبُ كلَّ الكائنات بعد ما كانوا لا شيء.

أجل، لقد امتزجت التكايا والزوايا مع المدارس، وتعاونتا في ترقية روح الإنسان وقلبه وعقله ولطائفه كافة، إلى جانب دفعِهما له ليصل إلى مرتبة "الإنسان الكامل"، إذًا فقد كانت المدارس والزوايا والتكايا في تلك العهود تقوم بأداءِ وظائفها كاملة، ولكن دارت الأيام وانتهت هذه العهود الذهبية، وأصبحت هذه المدارس بدلًا من البحث عن الجديد تكتفي بنقل ما كتبه القدماء فبدأت مثلًا تكتفي بشرح ما قاله ابن سينا وابن سنان البتاني والإمام الغزالي ومن الطبيعي أن مثل هذا التوجُّه لن يُساعِدَ على ظهورِ أمثال الغزالي والبتاني، وساد كل مكان كالبَبَّغاء يُعيد ما قاله القدماء، ولعدم ظهور علماء حقيقيين ضاق أفقنا وانسدَّت السبلُ أمامنا، وانقلَبَتْ كلُّ ناحية

إلى نوع من الثقوب السوداء تبتلع الأمة.. إن مِن واجبنا أن نقول هذا، ونعطي كلّ شيءٍ حقَّهُ أمام التاريخ.

لذا نقول: إن الزوايا والتكايا أدَّت وظائفَها كاملة طيلة عشرة إلى اثني عشر قرنًا، ونشرت النورَ في أرجاء الأناضول، وملأَتْ صدورَ وقلوبَ الناس بالشوق والوجد وكانت تلك العهودُ ذهبيّةً، وأنا لا أدري أكانت المدارس الدينيّة والزوايا بنفس المستوى؟ هل كان فيها أناس عظماء؟ أم اكتفوا بترديد ما قاله القدماء ووجدوا السلوان في ذكر كراماتهم؟ فإن كانت الحياةُ الدينيةُ قد انقلبت إلى نوعٍ من "الفولكلور" والمدارسُ إلى أماكنَ للقيلِ والقالِ والزوايا والتكايا إلى أماكنَ تجري فيها المراسيم ليسَ إلا؛ فمعنى هذا أنها كانت قد قضت نحبها وانتهَتْ.

أجل، نستطيع أن نقول بكلِّ اطمئنان: لقد فقدت المدارسُ الدينيّةُ وظائفَها بعد عهدٍ معين، لقد كانت تؤدِّي دورَها ووظائفَها طالما كانت مثل الغنم تأكل ثم تقلب ما أكلته إلى لبن سائغ للشاربين، ولم تكن هذه العهود التي قامت بأداء واجباتها عهودًا قصيرة قط.

أما في العهود التي عجزت عن أداء دورها ووظائفها فقد أصبحت هذه المدارس وبالًا على أمَّتِها ودولتها وحكّامها كباقي أنواع البلاء.

إن المدارس الدينية التي لم تتوافق مع روح دينها ودولتها لم تكن مدارس حقيقية ولا التكايا تكايا حقيقية، ومهما كانت أسماء المؤسّسات التي نبذت العلم وعادت دينها ودولتها فهي مؤسَّسات دبَّ فيها الفساد من الداخل، وما لم تُجدِّدْ نفسها وتَعُدْ إلى ذاتها مرة أخرى فإن الفساد سيستمرُّ ويستشري متمددًا إلى ما حولها،

إن المدارس هي أساس الحياة الاجتماعية فإن لم يكن الأساس قويًا ومتينًا لا تستطيع الدولة الوقوف على أرجلها، وهذا هو ما حدَثَ للدولة العثمانية، أي إن المدارس الدينية والتكايا لم تكن هي التي هدمت الدولة العثمانية، بل كانت ضمن القوى التي حافظت عليها وأسندتها، ولكن عندما انهدمت هذه المدارس انهدمت الدولة التي كانت تستند إليها، وإنَّ هذه النهاية الأليمة نهايةٌ طبيعية فالقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرَّعْدِ: ١٣/١١).



مكانة السلطانين ياووز سليم ومراد الأول

سؤال: ما مكانة السلطانين العثمانيَّين ياووز سليم ومراد الأوّل بالنسبة لِغيرهما من السلاطين؟ وهل أخطأ القانوني في إصداره القوانين؟

الجواب: باديَ ذي بدءٍ علينا أن نعلمَ أن هناكَ أفرادًا خصّهم الله تعالى بإحسانه وفضله وميَّزهم بصفات معينة، وهذا أمرٌ طبيعي للغاية، فإذا نَظَرْنا إلى من تحلَّقوا حول الحوضِ النورانيّ لنبيّنا ﷺ من أمثالِ ساداتنا أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ﷺ لألْفَينا ميزاتٍ خاصّة اختصّ بها كلّ منهم.

فإذا ما ذكر اسم الصديق تبادر إلى ذهن الإنسان على الفور سيدنا أبو بكر ﷺ، لأن له ميزة فارقة ألا وهي ارتقاءُ أعلى قمَمِ التسليم، والتغلُّبُ على العقلِ والمنطقِ بالعقل والمنطق أيضًا، وإن كنّا ننشدُ صفةً مميّزة للتفريقِ بين الحقِّ والباطلِ لوجدْنا الفاروقية عند سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، وإن أردنا صرحًا يمثل الحياء والأدب والتوقير لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ لرأينا ذلك في سيدنا عثمان ﷺ، وإن كنا نبحث عن ميزات لها علاقة بالدائرة المباركة لرسولنا ﷺ لَتبادَرَ إلى الذهن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وعلى نفس الشاكلة ظهرَ عددٌ من الجماعات في عهودٍ مختلفة مثلت عظمة الإسلام وجزءًا من حقائقه العلوية أعظم تمثيل، إلا أنَّه كان بين هؤلاء أيضًا أناسٌ مصطفَون اختلفوا عن غيرهم.

ومن هؤلاء السلاطين العثمانيّون؛ فقد كان السيد عثمان غازي ﷺ رمزًا للصفاء والإخلاص، وكان أورخان غازي أقرب إليه في إقدامه وشجاعته الإيمانية، أما السلطان مراد فقد كان رائد دولةٍ محنّكًا وقائدَ جيش قلَّ نظيرُه، فضلًا عن رهافةِ حِسّه وولايتِه لله تعالى.

أجل، كان على رأسِ جيشِه بصفةٍ دائمةٍ، ولقد استولى على "أدرنه" وفتحَ الله علينا في عهدِه "تِرَاقْيَا" لأول مرة، ولقد امتاز بصفاءٍ جعله يتوجَّهُ إلى شيخِه ذات يوم قائلًا له: يا سيدي إنَّكم ترون الكعبة عند التكبيرة الأولى، لكن ما بالي أنا! فأنا أُحاولُ ذلك منذ سنوات فلم أوفق إليه إلا في التكبيرة الثانية أو الثالثة.

كان يتضرع إلى الله تعالى أن يعزّ به الإسلام وينال الشهادة في سبيل الله، فلم يضِعْ دعاؤُه سدًى، واستشهدَ في ذلك اليوم، فإن كان المرادُ من السؤال هو هذا المراد فقد بلغ "مرادٌ" مرادَهُ حقيقة.

مراد الثاني أيضًا هو مراد الذي ربَّى الفاتحَ في كنفِه ورعايته، هو الذي لا يشكُّ أحدٌ في ولايته، هو الذي استسلمَ لكلِّ توجيهات ولي الله "حاجي بايْرام ولي" وإرشاداته، ولم يرفض له أيَّ طلب، هو الذي عهد بالفاتح إلى الشيخ "آق شمس الدين" ليربّيه ويعلِّمه.

مراد الثاني إنسانٌ معروفٌ بحبِّه وعِشقِه للتصوُّف والعلوم الدينيّة، ويُحْسِن في الوقت ذاته إدارةَ أمور الدولة، وفي الواقع هذان الطرزان للحياة متباينان، لا بدَّ لأحدهما أن ينتَقِصَ من حقِّ الآخر أو يتمدَّد على حساب الآخر، وإلا فهل يستطيع إنسان أن يخبُر شؤونَ الدولة بكلِّ تفصيلاتِها وأن يُظهِرَ في الوقتِ ذاته العناية نفسها بأمور الدين! إنَّ هذا الأمر من أندر النوادر، ورغم ذلك فقد تمكَّنَ مراد الثاني من التغلُّب على هذا الأمر الصعب.

يقول أحد كبار المفكرين: لم يكسِرْ هذه القاعدةَ إلا الخلفاءُ الراشدون. أجل، فلو عُهِد لإنسان بأن يكونَ عمدةَ قريةٍ لَتَعَذَّرَ عليه الحفاظُ على صفائِه وإخلاصِه، بيدَ أن هؤلاء حكموا العالم ولم يُفرِّطوا بالإخلاصِ قدرَ الإمكان.

أما السلطان سليم الأول فقد كان رجلًا ملحميًّا مختلفًا تمامًا، ولقد أُثِرَ عنه أنَّه ذات ليلة وبينما كان قافِلًا مظفَّرًا من إحدى معاركِه الملحميّة في سبيل الوحدة الإسلامية سَمِعَ بأن الرعيَّةَ والناسَ تدفَّقوا إلى الشوارع منذ أيّام وكلّهم شوقٌ وسعادةٌ لاستقبالِه، فما كان منه إلا أن سَلَكَ طريقًا آخر، ودخل إسطنبول في منتصف الليل ودَلَفَ إلى قصر طوب قابي.

إنَّ ذلك الرجل الذي أرهبَ العالم بضربةِ مخلب، وأخافَ الغابةَ كلَّها عندما زمجَرَ، بل وجعَلَها تَرْتَجِفُ فَرَقًا؛ إذا ما جَنّ عليه الليلُ توجَّهَ إلى ربِّهِ، وتحول إلى عابدٍ زاهدٍ ساكنٍ خاشعٍ من رأسه إلى أخمص قدميه، فأشبه طاووس بن كيسان وأويس القرني وكأنَّه ليسَ هو الذي ترتَعِدُ الفرائصُ لرُؤيَتِهِ، تأمّلوا ذلك، فقليلٌ من الناس

من حظيَ بهذه الأحوال والأوضاع، ولقد ارتقى هؤلاء السلاطين إلى هذه الآفاقِ العالية؛ ممّا يُحتّم علينا ذكرَهم بعد الصحابة والتابعين.

أما القانوني فهو إنسان عظيم أيضًا، وعزْوُ الخطإ إلى هؤلاء لا يتناسب مع قامة الأعمال التي أنجزوها، كان ﷺ دائمَ المحاسبةِ والمراقبةِ لله ﷻ لدرجة أنه لما قَفَلَ يومًا راجعًا من إحدى معارِكِه المظفّرة قضى ليلتَهُ في مكانٍ موحِشٍ حتى يمنعَ الغرورَ من التسلُّلِ إلى نفسه.

إلا أننا نقول: إن قامةً مثل هذه القامة العظيمةِ مع ما لَها من سابقِ فضلٍ كان عليها أن تتصرَّف بحساسية أبلغ فأبلغ تجاه أحكام الشريعة؛ لأنه لا يليق بها غير ذلك.

ومع ذلك فينبغي ألا ننسى أن القانوني لم يتَّخِذْ قرارًا أو يسنّ قانونًا في عهده دون أن يستشير أحدًا، بل كان يستشيرُ علماء عصره في جميع القضايا ويتصرَّف وفقًا لما يصدرونه من فتاوى، لا سيما وأن شيخ الإسلام في عهده هو المفسر العظيم مفتي الإنس والجان أبو السعود أفندي، وعلى ذلك يتضح جليًّا أن القانوني لم يكن بالشخص الذي يتحرَّك وفقَ هواه وهو تحت سمع وبصرِ مثل هذا الشيخ العملاق، وعلى ذلك لا بدّ وأن نعتبر تلكَ الأخطاء من قبيل الخطإ في الاجتهاد، وأن نضطلع دائمًا بذكر الجوانب الحسنة لأجدادنا اتّباعًا للقاعدة التي تقول: "**اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ، وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِيهِمْ**"[١٢٥].

علينا أن نكون خيرَ خلفٍ لخيرِ سلفٍ.

(١٢٥) سنن أبي داود، الأدب، ٥٠؛ سنن الترمذي، الجنائز، ٣٧.



السلطان عبد الحميد الثاني

سؤال: أطلقوا على السلطان عبد الحميد الثاني لقَب "السلطان الأحمر" فهل كان كذلك؟

الجواب: عندما ارتقى عبد الحميد الثاني العرش كانت جميع أنحاء الدولة تفورُ بالمشاكل فورًا، من هذا الجانب كان يُشْبِهُ كثيرًا عليّ بن أبي طالب الكرّار ﷺ، كما كان عهدُه يُشبِه عهده، يقول مفكّر القرن العشرين بديع الزمان سعيد النورسي ﵀: "كان ينبغي وجود شخصية قويّة فذّة، مهيبة الجانب، ذات شجاعةٍ فائقةٍ وفراسةٍ نافذةٍ ونسب عريقٍ أصيلٍ من أهل البيت كعليّ ﵁، كي يَثْبُت أمام هذه الفتن"(١٢٦).

إنّ الموقفَ المتصلّبَ للأمويّين والفتنَ التي سبَّبَها الخوارجُ أدَّتْ إلى اضطراباتٍ كبيرةٍ في المجتمع، لذا كان من الضروري أن يتصدى لهذه المشاكل رجلٌ عملاق وشهمٌ في ذروة الإخلاص والتضحية، رجل زاهد لا يقيم للدنيا وزنًا... رجل مثل علي بن أبي طالب ﵁، لذا نَدَبَ القدر عليًّا ﵁ لهذا العهد المضطرب، وكان الأمر نفسه بالنسبة لعبد الحميد الثاني، فهو أيضًا أتى في عهد فتنة وفساد، وكان

(١٢٦) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب التاسع عشر، الإشارة البليغة الخامسة، ص ١٣٠.

رجل دهاءٍ وذكاءٍ وتدبيرٍ باتّفاق الجميع، وهناك مؤرّخون حسبوا أن التدابير التي اتَّخذها دون داعٍ كانت نتيجة أوهام منه، وعدّوا السلطان عبد الحميد رجلَ أوهام وتخيّلات، أما الذين أفرَطوا وأساؤوا الأدَب فقد وصموه بالجُبْنِ والتقاعسِ.

وعندما ارتقى العرشَ كانت الدولة العثمانية غير واضحة المعالم؛ فتونس مضطربةٌ وتغلي كالقِدْرِ، والفرنسيّون والإيطاليون يصولون ويجولون في المغرب ويوقدون نار الفتنة فيها، ومصر تترقَّبُ أحداثًا جسامًا، وكان الاضطراب سائدًا بين العرب، أي كانت الظروف مهيَّأةً لهزيمة الدولة العثمانية في أيِّ حربٍ دولية تدخلها.

لم تكن ظروف جزيرة "كِريت" مختلفة، فالولاة المعيّنون فيها لم يكونوا يستطيعون إنجازَ أي شيء، فالجَيش كان معقود اليدين، لأن الغرب كان جاثمًا هناك ككابوسٍ مخيفٍ، ولم تكن لدَيه نيّةٌ في مغادرة الجزيرة، وفي البَلْقان كانت المداخلات الروسية وقيامها بإثارة الفتن في غاية الوضوح، فـ"السلاف (*Slavs*)" كانوا دعاة الأمم البلقانية للانفصالِ عن الدولة العثمانية، وكانوا يستعملون البلغاريين للوصول إلى هذا الهدف.

وفي الأناضول كانت جماعة "الدُّونْمَة"(١٢٧) تعيشُ نشاطًا غير مسبوق، فلقد غيَّروا أسماءهم إلى "محمد" و"علي" ولكن نفوسَهم وقلوبهم لم تتغيّر قطّ، ولم تهدأْ أحقادُهم، وكان هذا الحقد والغيظ كافيًا لإشعال نار الفتنة في كل مكان، وكما كان اليهودُ أعدى أعداء

(١٢٧) الدونمة: هم جماعة من اليهود ادعوا الإسلام في الظاهر ولم يدخلوا فيه حقيقة. (المترجم)

الرسول ﷺ في المدينة، وكان ابنُ سبإٍ وجماعتُه أعدى أعداء الإسلام في عهد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ كذلك كان الدونمة أعدى أعداء السلطان عبد الحميد الثاني، كان مِدْحَتْ بَاشا من هؤلاء الدونمة، وكانت أوروبا وراءه وهو يقوم بإنجاز مهمَّتِه في إيقادِ نارِ الفتنة.

كان الأرمن قد أسَّسُوا جبهةً معاديةً في الداخل وفي الخارج، وكان "السُّريان" يجدونَ مَن يحركهم للثورة، وبدأت بعض القوميّات والعناصر التي حاربَتْ معنا ووقفنا إلى جانبِها صفًّا واحدًا في خندقٍ واحدٍ طوال عصور عديدة تتهيَّأُ لضربِنا من الخلف، لم يكن من السهل أبدًا اتِّخاذُ تدابيرَ ناجعة لكلِّ هذه المشاكل، لذا فإن نجاح عبد الحميد في إبقاءِ الدولةِ واقفةً على قدمَيها طوال ثلاثة وثلاثين عامًا يُعدُّ بحدِّ ذاته أمرًا مهمًّا، فلَو لم يقدِّم أيّ خدمات أخرى لكان نجاحه هذا فقط كافيًا لبيان مدى كفاءته، كان أعداؤه قساةً لا يرحمون، ولم يكن حواليه صديق أو رجل دولة كفء، لم يكن مستبدًّا، بل كان يريد تطبيقَ النظام والدقّة -اللّذَين كانا سمة من سماته الشخصية- على المجتمع، وحاول بذلك أن يُكْسِبَ كلَّ وحدة من وحدات الحياة الاجتماعية التي بدأت بالتسيّب والتحلُّلِ نظامًا يَقِيها من الاستمرار في الهبوط والتردّي إلى الحضيض، أي إن لم يُفضِ هذا في ترقية المجتمع فإنه على الأقلّ يمنع ويُخفِّفُ من انحِدارِه نحو الأسوإ، وكان هذا يقتضي منه أن يكون ملتزمًا بالنظام، ومع ذلك رأَيْنا بعضًا ممن نحبّهم ونحترمهم من الكتّاب والشعراء قد قيّموا عبدَ الحميد تقييمًا خاطئًا، فكتبوا مقالات وأشعارًا في نقده، ولكنهم بعد أن رأَوا تردّي الدولة وسقوطها وضياعهَا من بعده عرفوا خطأهم واعترفوا به واعتذروا عنه.

ليس هناك من سلاطين آل عثمان -إن استثنينا السلطان محمد الفاتح- من خدم العلم والمعرفة مثل السلطان عبد الحميد الثاني؛ فهو شخصية نادرة من زاوية خدمتِه للعِلْمِ والمعارِفِ، فلأول مرّة فُتحت في عهده المدارس على النمَط الحديث؛ فمدرسة "قَبَه طَاشْ" و"كُولَلِي" مدرستان فقط من المدارس التي فتحَها في إسطنبول[١٢٨]، وكان عبد الحميد أول من اتَّصل عن قرب مع العالم الإسلامي، إذ أنشأ سكّة حديد الحجاز حتى المدينة المنورة، لذا يعد محقّقًا لحلم السلطان سليم في الواقع العمَلي، لأن ثمرات الفتوحات التي أنجزها السلطان سليم ما كانت لتقطف إلا بمثل محاولات التقارب والحوار العملي مع العالم الإسلامي، ولكن الشروط لم تكن ملائمة في عهد سليم، لذا كان هذا من نصيب عبد الحميد، ذلك لأن نتائج فتوحات سليم وثمراتها ما كانت لتؤتي أكُلها إلا بهذا الحوار والتقارب، ولكن سكّة الحديد التي لم يتم تحقيقها في عهد سليم نتيجة للظروف والشروط السائدة آنذاك تحققت -وإن كانت متأخرة- في عهد عبد الحميد.

وفي أيَّامِنا الحاليّة التي نعيشُها ونرى فيها الثناءَ والمدائحَ الجمّة التي تُكالُ لِلْجِسْرِ المُنْشَإِ على البوسفور[١٢٩] حتى عَدَّهُ البعضُ العجيبةَ الثامنة بعد عجائب الدنيا السبعة؛ إلا أنَّ كثيرًا منّا يجهلُ أنَّ تصميم هذا الجسر كان قد تم في عهد عبد الحميد؛ أي إنّه كان سلطانًا بهذا

(١٢٨) فتح السلطان عبد الحميد الثاني -ولأول مرة- الكليات والمعاهد الآتية: كلية الطب، كلّية الهندسة، كلية التجارة، كلية العلوم، كلية الآداب، كلية الحقوق، كلية العلوم السياسية، كلية الزراعة والبيطرة، أكاديمية الفنون الجميلة، معهد المعادن والغابات، معهد المعلمين العالي، معهد اللغات. (المترجم)

(١٢٩) وهو جسر يربط بين قارة آسيا وقارة أوروبا. (المترجم)

الأفُق الواسع والنظرة السديدة، ولكن الظروف لم تساعده ليتمِّم إنشاءَ هذا الجسر في عصرِه، بل بقيت تصاميمه الكاملة محفوظة في الأرشيف، وانتقل خبَرها إلى الصحف قبل أيام من قِبل أحد المؤرّخين الباحثين، مما أكّد مدى قوة فراسة السلطان عبد الحميد.

لم يستطع أحد ممن كان حول السلطان فهمَ قيمةِ أفكارِه المستقبليّة، لذا ظهر الكثير من المشاكل وعدم التفاهم، إذ كانت خَطَواته محسوبة لخمسين سنة قادمة، ولكن رجال الدولة المحيطين به كانوا قصِيري النظر ولم يستوعبوا تلك المشاريع، ولم يتغيّر هذا الأمر في أيامنا الحالية، فهناك الآن رجال دولة يقدّمون اقتراحات وأفكارًا للسنواتِ العشرة القادمة، ولكن جهودهم تتعرقلُ من قِبَل رفقائهم.

يقولون عنه "السلطان الأحمر"، وهذا اللقب اختلقه الفرنسيون وبعض يهود الدونمة الذين لم يكونوا أصدقاء لنا بالمعنى الحقيقي، وتصرفاتهم العدائية اليوم لا تختلف عما كانت عليه بالأمس، ورغم أن هذا اللقب كان من المفترض أن يشكّل لدينا انطباعًا إيجابيّا عنه فقد تُرجم إلى لُغتنا من قِبَل بعض التعساء عندنا من الذين حسبوا سبّ الأجداد وشتْمهم مَفخرة لهم، ولكن التاريخ هو الذي سيقرّر عما إذا كان عبد الحميد شعلة من الذكاء والدّهاء أو أنه كان فعلًا سلطانًا أحمر؛ إذ إنَّ التاريخَ قد بدأ بإظهارِ الحقائق، التي تنصُّ على تبرئة ساحة السلطانِ عبد الحميد من هذا اللقب.

قُتِلَ عمّه السلطان عبد العزيز وأرادوا إخفاء هذه الجريمة فزعموا أنه انتحرَ، قام مِدْحَتْ باشا وبعض مِن أعوانه بقتلِ السلطان عبد

العزيـز، وكانـت محاولـة إظهار الجريمـة وكأنها انتحار من السـذاجة بحيـث أنهـا مـا كانـت لتخـدعَ صبيًّا صغيـرًا، فعندمـا قُتل عبـد العزيز قُصَّتْ شـرايين رسـغيه ثمّ قيل إنه انتحر هكذا، ولكن إن قصَّ شـريانَ رسـغِه الأيسـر بيـده اليمنـى فكيـفَ اسـتطاعَ أن يقـصَّ شـريان رسـغِه الأيمـن، وكذلـك العكـسُ، ثـم إنّ بعـضَ شـرايين عنقِـه كانـت أيضًـا مقصوصـة، فكيـف يمكن أن يكون هذا انتحارًا؟! ثم ما السـبب الذي دعاه إلى الانتحار؟ كلُّ ما قيل في هذا الخصوص عبارةٌ عن أكاذيب وعن افتراءات.

ثـم شُـكِّلت هيئـةٌ للتحقيـق فـي هـذا الموضـوع، وبعـد قيـامِ هذه الهيئـة بفحـصِ التقاريـر المقدّمـة لها أصـدرت قرارها بإدانـة مِدْحَت باشـا وأعوانـه وأصـدرت حكـم الإعـدام بحقّهـم، فكيف يكـون عبد الحميـد سـلطانًا أحمـر وهو الذي اسـتعمل صَلاحيتـه فخفَّفَ أحكامَ الإعدام هذه عن قاتلِ عمِّه الذي كان في الوقت نفسه أعدى أعدائه، وخفَّفَ هذه الأحكام إلى سـجن مؤبّد ونفاه إلى الطائف، وهنا هبّت الاسـتخبارات السـرّية الدوليـة فـي محاولة لأنقاذ مِدْحَت باشـا الذي كان من "الدُّونْمة" وتهريبه من السجن، عند ذلك أصدر عبد الحميد أمـرًا مشـددًا إلـى والـي الطائـف بأنـه إن تـم تهريب مدحت باشـا من السـجن فسـيكون هو مسـؤولًا مسـؤولية كاملة عن مثل هذا الإهمال الخطير.

وبـدأ الوالـي كل يـوم يتلقَّى أخبـارًا عن محـاولات التهريـبِ هذه حتى سَئِمَ من ازديادها، لذا يحتمل أنه لكي يخلص نفسـه من عقابٍ منتظَرٍ قامَ بِخَنْقِ مِدْحَت باشـا في السـجن، فالمسـألة غير متعلِّقة بعبدِ

الحميد من قريب أو بعيد، ثم كان يستطيع تنفيذَ حكمِ الإعدام عليه، ولا سيما أن مِدحَت باشا حاول اللجوء إلى دولة أجنبية، وهو عمل يرقى إلى مرتبة الخيانة، لقد كانت الرحمة لدى عبد الحميد واسعةً جدًّا إلى درجةِ أنها أصبحت حالةً مرضيَّةً عنده، فلم يرغب أبدًا في إراقة دمِ أيِّ شخصٍ، وهذه الرحمة والشفقةُ هي التي منَعتْه من مجابهة "جَيش الحرَكة"(١٣٠).

كان محمود باشا(١٣١) شخصًا ساذجًا يكاد لا يفهم شيئًا، ولم يكن يعرفُ أصولَ إدارة الدولة أكثر مما يعرفه أيُّ فلّاحٍ في الحقل، وعندما دخل المجلسَ النيابيَّ (مجلس المبعوثان) فيما بعد كان يغطّ في النوم أثناءَ الجلسة، وكان رئيس المجلس النيابي يحاول أحيانًا إيقاظه من النوم هربًا من الحرج أمام الضيوف الأجانب، مثل هذا الشخص الخالي من الشعور بالمسؤولية تجاه مشاكل البلد وشؤونه إلى درجة الغطيطِ في النوم أثناء جلسة المجلس النيابي؛ كان قد جمع حواليه مجموعةً من شُذَّاذِ الآفاق(١٣٢) جاء بهم من مدينة

(١٣٠) **جيش الحركة**: هو الجيش الذي أرسله الاتحاديون من مدينة سلانيك إلى إسطنبول لكي يحمي بزعمهم "المشروطية الثانية" التي كانت قد أعلنت في الدولة العثمانية ضد مؤامرات السلطان، لأنهم اتهموا السلطان بأنه كان المدبر لحوادث الشغب التي قام بها بعض العسكريين فيما عُرف في التاريخ بـ"حادثة ٣١ مارت/مارس"، بينما كان السلطان في الواقع بريئًا من هذه التهمة، وقد طلب قائد حامية قصر السلطان من السلطان السماح له بتشتيت جيش الحركة، لأن هذه الحامية كانت أقوى بكثير من ذلك الجيش، ولكن السلطان رفض لأنه لم يرغب بإراقة قطرة دم واحدة من أجله. **(المترجم)**

(١٣١) **محمود شوكت باشا**: قائد جيش الحركة الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني، وأصله من بغداد، اغتيلَ فيما بعد من قبل جمعية الاتحاد والترقي عندما كان وزيرًا للحربية. **(المترجم)**

(١٣٢) كان الجزء الصغير من هذا الجيش -أي جيش الحركة- يتألف من جنود نظاميين، أما القسم الأعظم فكان من المتطوعين من مختلف الأقليات غير المسلمة كالبلغار واليونان والصرب... إلخ. **(المترجم)**

"سَلَانِيك" إلى إسطنبول، وعندما سمع قائدُ حامية قصرِ "يِلْدِزْ" بهذا النبإ هرع إلى السلطان وطلب منه السماح له بتشتيت هذا الجيش، كان السلطان على علم بهذا الأمر منذ البداية، ولكنه لم يقبل طلبَ قائد حرسه وردَّ طلبَهُ قائلًا بأنه لن يسمحَ بإراقةِ دماءِ أمّتِهِ، وكما يُفهم من قيادة "محمود باشا" لجيشِ الحركة فإنّ هذا الجيش أبعد ما يكون عن النظم العسكرية المعروفة، حتى إن أكثرية جنودِ هذا الجيشِ لم يكونوا يعرفون سببَ مجيئِهم إلى إسطنبول، وكان قسمٌ منهم يحسبون أنهم جاؤوا لحماية السلطان.

أجل، لم يكن السلطان ضحيّةَ أحدٍ.. بل ضحيّة رحمتِه وشفقتِه، ولو لم يقابل التصرّفات الهوجاء لـ"جمعية الاتّحاد والترقّي" بمثل هذا التصرف الإنساني الرحيم لكان له معهم تصرُّفٌ آخر.

ثم إنه لم يكن يتوقَّع أو يفكِّر بأن الاتّحاديّين سيتسبَّبون في فواجع ومآسٍ كبيرة إلى هذا الحدّ، فقيَّمَهم من منطَلَقِ تفكيرِه الإنسانيِّ؛ أي إنّه لم يتوقّعْ أبدًا من هذه الجماعة التي تصدَّتْ لقيادةِ الأمّة صدورَ ما صدرَ منهم بعد ذلك، وكان يتوقّع أن أخاه السلطان رشاد سيستمرُّ في نفسِ طريقِهِ، لذا نرى أن جانبَ التوكُّلِ عنده تغلَّبَ على جانبِ التدبير، وهكذا ذهبَ ضحيّة مُروءَتِه.

ويوجد للسلطان عبد الحميد الثاني جانب معنويّ وروحيّ، وكان في هذا الجانبِ كبيرًا، تمامًا مثلما كان كبيرًا في الجانب السياسيِ كرجلِ دولةٍ من الطرازِ الرفيعِ، ومن النادر لمن يتبوَّأُ مثل هذا المنصب النجاح في تحقيق مثل هذا التوازن بين الدين والدنيا، والسلطان عبد الحميد الثاني من هؤلاء الأفذاذ، وإننا عندما ذهبنا

إلى الحج كان هناك شخصٌ مسنٌّ يقومُ بخدمتِنا، وعندما سمعَ منّا اسمَ السلطان ارتجفَ من شدَّةِ توقيرِه له، وأخبرَنا بأن السلطان حجَّ عدَّةَ مرّات وذكر أسماء المواضع والأماكن التي أقام فيها، بينما لم يحجّ السلطان -في ظاهر الأمرِ- طوالَ حياته.

روى لي مَن أثقُ فيه نقلًا عن محمد عاكف ﷺ: أن محمد عاكف توجّه في الصباح الباكر إلى مسجد أيا صوفيا لصلاة الفجر، وإذا به يرى هنالك رجلًا يسكبُ العبرات دون توقُّف، وفي اليوم التالي رأى الرجلَ عينَهُ على نفس الحال، فلم يتحمّل عاكف واقتربَ من الرجل قائلًا: يا أخي، لا تقنطْ من رحمة الله؛ لأنه لا يقنطُ من رحمة ربه إلا القومُ الكافرون"، ولما كان الرجلُ غيرَ قادرٍ على الكلام أشارَ إلى عاكف بيده قائلًا: "إليك عني، لا تشغَلْني"، لكن عاكف ألحّ عليه حتى يحدثه عن سبب بكائه، فأخذ الرجل يحكي ما ألمّ به وما جعله يبكي سنين عددًا على هذا الحال:

كنتُ قائدًا لكتيبةٍ في جيشِ السلطانِ عبد الحميد الثاني، وذات يوم تلقَّيتُ خبرًا بوفاةِ أبي، وكان أبي ثريًّا ذا أملاكٍ كثيرة، يملك الحدائقَ والبساتين، ولما توفّي أصبحتُ أنا صاحب كلّ هذه الثروة، فقرَّرْتُ الانفصالَ عن الجيشِ والاشتغالَ بأعمالي، وقدّمتُ عريضةً أشرحُ فيها موقفي وأُعبّرُ فيها عن رغبتي في الاستقالة من مهمّتي في الجيشِ، لكن بعد بضعة أيام جاءَ الردُّ على العريضة بالرفضِ، فقدمتُ العريضة للمرة الثانية إلى مقام الصدارة فجاءني نفسُ الردِّ، فلمّا لم يعدْ أمامي طريق آخر كتبْتُ خطابًا إلى السلطان مباشرةً مكرِّرًا طلب الاستقالة، فرُفِضَ طلبي مرةً أخرى، فطلبتُ مقابلةَ السلطان

شخصيًّا، فأُذِنَ لي، فلما مثلتُ بين يدي السلطان كرّرت عليه طلبي، فلـم يُجب، وصمتُّ فترةً، فلمّا أصررتُ عليه قال: "حسـن، لقد قبلنا إصرارك"، وأشار بظهر يده أن اخرج، كان واضحًا من جميع الوجوه أنه قد قَبِلَ استقالَتي مكرَهًا بناءً على شِدَّةِ إلحاحي.

فخرجتُ من عنده، وأنا في غاية السعادة، فها أنا قد أصبحتُ حرًّا، وبإمكاني الآن الرجوع إلى أرضي وأملاكي، لكنني لما نمتُ تلك الليلة رأيت عجبًا؛ وكأنّ سيدنا رسول الله ﷺ جاء يتفقّد جيش السلطان ومعه الخلفاء الراشدون ووراءهم بخطوة السلطان عبد الحميد منكسًا رأسه في أدب وتواضع، وكانت الجنود تمرُّ عليه كتيبةً كتيبةً وسريّةً سريّة، فأخذ النبي ﷺ ومن معه يستعرض الجند وقد تهلَّلَ وجهُهُ، وإذا بكتيبةٍ غيرِ منتظِمةٍ تمُرّ من أمامه، ولم يكن على رأسها قائدٌ، دقّقْتُ النظرَ فإذا هي كتيبتي! كانت تمضي فوضويّةً على غيرِ نظام، فالتفتَ النبي ﷺ بوجهه المبارك إلى السلطان عبد الحميد قائلًا: "أين قائد هذه الكتيبة؟ فقال له السلطان منكّسًا رأسه: "لقد ألحّ على الاستقالة يا رسول الله فأقلتُه"، فأشار النبي ﷺ بظهرِ يدِه قائلًا: "ونحن قد أَقَلْنَا من أَقَلْتَ"، فشعَرْتُ حينَها وكأنَّ الدنيا قد انهارت فوق رأسي، ومنذ ذلك اليوم وأنا على الحال الذي ترى، والآن قل لي، من عساه أن يبكي إن لم أبكِ أنا على نفسي؟!

قد لا تبدو هذه الحادثةُ موضوعية للبعض، ولكنني أصدِّقُ كلّ ما جاء فيها، فكم من إنسان جاءني وذكر لي أنه رأى النبي ﷺ في المنام يراجع ويتفقَّدُ بنفسِه حتى أدنى الخدمات، ولذا فإنني لا أرى داعيًا لعدم التصديقِ.

وكما ذكرنا في بداية الموضوع كان الفرنْسيُّون أوَّل من أطلقوا عليه لقب "السلطان الأحمر (*Le Sultan Rouge*)" فقام الأرمن بنشر هذا اللقَب في صحفهم، لذا كان على من يستعمل هذا اللقب أن يفكّر بالفم الذي تُلُقِّفَ عنه هذا اللقب وقام يكرِّرُهُ دون إدراكٍ أو تثبُّتٍ... عليه أن يفكر بهذا وأن يخجل. أجل، إنه كان سلطانًا أحمر بالنسبة للخفافيشِ المصابةِ بِداءِ عمى الألوان، بينما هو بالنسبةِ إلينا سلطانٌ عِملاق... أسكنَه الله فسيحَ جنَّاتِه.



الحريم في الدولة العثمانية

سؤال: يتعرَّض موضوع الحريم في الدولة العثمانية إلى انتقاداتٍ كثيفةٍ، فهل تشرحون لنا ما يفيدُ بهذا الخصوص؟

الجواب: إننا مرتبطون ومفتونون بالتقاليد الإسلامية المحافظة الجميلة إلى درجة أننا لا نرتضي عَرضَ نسائِنا أمام أنظارِ الآخرين، أما أدعياء التقدُّمِ المعارضون لهذا فلا يزالون يتّخذون المرأَةَ موضوعًا للشائعات المتعلقة بجناحِ الحريم، ولكن ما الحريم؟ لو سألْتَهم هذا السؤال لأجابوا بأن القصصَ التي يحكيها الغربُ نتيجةً للحِقْدِ المريرِ الذي يحمله ضدَّنا قصصٌ صحيحةٌ، فقد كانَ الحريمُ -حسبَ زعمِهم- وكأنهم محلٌّ للاستيلادِ؛ أي مثل مزرعةٍ لاستيلادِ الحيوانات... وهذا بُهتان وافتراء.

لقد بدأنا منذ عهد "التنظيمات" نتلقَّى معلوماتنا حول جناحِ الحريمِ لا من مصادِرِنا بل من المصادرِ الغربيّة، وكان هذا خطأً كبيرًا، قبل أيام قلت لِأَحَدِ الألمانِ: "اخرج إلى الأسواق وتجوّلْ في المكاتب فستجد كثيرًا من الأفلامِ والمسرحيّات والكتبِ التي تحتوي على الروايات التي تُورِدُ قصصَ الحريم في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وحتى في الدول الآسيويّة وتشرح أجواءها القذرة، ولكنّك لن تَجِدَ قصّةَ حريمٍ واحدة قذرة أو خبرًا عن حادثة فُحْشٍ حدَثَت

في قصور حريمِ السلاطين منذ فتح إسطنبول، أي طوال خمسمائة سنة، فضلًا عن حدوثها في التاريخ الأقدم، لم يسمع أحدٌ بمثل هذه الحوادث لا بسببِ صرامة التدابير المتَّخَذَة، بل لأن حوادثَ الفُحْشِ لم تحدث في الحريم عندنا".

إنما كانت هناك أصالةٌ وفضيلة وعفّة وطهارةٌ من نوعٍ خاصٍّ، ليس في أجنحةِ حريم السلاطين فقط، بل في أجنحةِ حريم الأغنياء والفقراءِ أيضًا، والمُنْكِرون لفضائِلِ تاريخِنا حالوا بيننا وبين رؤية الجمال الذي يحفل به تاريخُنا، والحقيقةُ أن التفريقَ بين أماكن اجتماع النساء واجتماعِ الرجال وعدمَ تجويزِ الاختلاطِ غير المشروع بينهما هو محاولةٌ لِوَضْعِ التوازن نتيجةَ الضعف الموجود في الرجل وفي المرأة على حدٍّ سواء، ولم يكن جناحُ الحريم مكانًا مُقدَّسًا وذا حرمةٍ فقط، بل كان حائلًا دون فسادِ العائلة ودون اختلاطِ الأنسابِ ومظهرًا لروعةِ التقاليد الإسلامية.. والحق أنّ جناحَ الحريم كان ركنًا تفوحُ فيه رائحةُ الأزهارِ والورودِ وعطر الفضيلةِ والأخلاقِ.

إن غرفةَ النوم عندنا لها خاصية معينة؛ لأنها المكان الذي تتعيّن فيه الأنسابُ وتُصان، والعائلة تتشكّل هناك بكلِّ سرِّها وخصوصيَّتِها، لذا لا تفتح هذه الغرف للضيوف ولا يُدعى إليها أحد، ليس الأجنبي فقط، بل حتى أفراد البيت الآخرون لا يدخلونها متى ما شاؤوا، وهي تحملُ خصوصيّةً إلى درجةِ أننا حسب التربية التي تلقَّيناها نرفض طلبَ من يريد تكريمنا ويعرضُ علينا النوم في غرفة النوم، وما الداعي إلى هذا مع أن الغرفة هي غرفة اعتيادية كسائرِ الغرف؟ إن معظم عاداتنا تختلف عن عادات الغرب، والأدب يشملُ عندنا

حتى هذا التفصيل الجزئيّ، وجناحُ الحريم بهذا المعنى لم يكن شيئًا خاصًّا بالعثمانيين، فلِكلّ واحدٍ منا جناحُ حريمٍ في بيته، فالذي يريد نقدَ أجداده في هذا الخصوص ويرميهم بحجر إنما يرمي نفسه في الحقيقة.

لقد كان يحمل جناحُ الحريم معنى أكثر خصوصية لدى العثمانيين، وهو عدم السماح للجميع بالدخول إليه، وكذلك إحاطته بأسوار عالية كما هو ملاحَظٌ في بعض القصور، فقصر "طُوبْ قَابِي" مثلًا بناية كبيرة اتُّخِذَتْ فيه احتياطاتٌ لِعَزْلِ قسمِ الحريم عن أنظار الأجانب حيث كانت ساكنات هذا القصر والجواري يستطعن التنزه والاستراحة والترفيه عن النفس ضمن الدائرة المشروعة في باحاته وحدائقه، وكانت الغاية من هذا التنظيم هي حفظ النساء والجواري من أن تقع أعيُنهن على شيء غير لائق، كانت هذه النساء والجواري يعشْنَ حياتهنَّ الاعتيادية وحياةَ اللهوِ ضمن الدائرة المشروعة والمعايير الإسلامية، لا ينظرْنَ إلى الخارج ولا يريَنَّ سوى أزواجهن وحلائلهن ومحارمهن.

والحقيقة أن الرجال المنتسبين إلى القصر كانوا يعيشون الحياة نفسها، وكانت هذه الشروط منطبقةً عليهم أيضًا، فهم أيضًا كانوا يعيشون حياتهم خلف أسوار القصر ويتمتّعون بالمتع الحلال، فإن كان هذا العيشُ يُعَدُّ أَسْرًا في القصر فقد كان الرجال أيضًا أسرى، فإن كان هؤلاء المنتقدون ينتقدون هذا الأمر فأرى أنهم لا يعرفون ماذا ينتقدون، وإن كان النقد مُنصَبًّا على كثرة النساء الموجودات في القصر فأمر يحتاج إلى بعض التفصيل.

أجل، كان هناك من سلاطين آل عثمان من كانت له زوجتان أو ثلاث، هذا صحيح، لا نُنكِره ولا داعيَ لأن ننكرَه أصلًا؛ فليس الغربُ ولا نظرتُهُ ولا رأيُهُ قاعدةً لِكلِّ شيءٍ عندَنا، فقد مرّ أَحَدُ العصورِ كان الغرب يفكر فيه على نحو مختلف، أما الآن فهو ينتقد تعدّد الزوجات، وغدًا قد ينتقد طراز تفكيره الحالي.

ثم إن من يحقّ له القولُ في هذا الخصوص قد قاله، فالله تعالى قد أعطى الرجالَ -بعد توفّر شروط معيّنة- رخصةَ التزوُّجِ بأربع نساء، ولم يكن سلاطين آل عثمان فقط هم الذين استعملوا هذه الرخصة حتى يكونوا هدَفًا للنَّقْدِ، فالرسول ﷺ وصحابته الكرام والعديد من العظماء عندنا كلهم استعملوا هذه الرخصة، لذا فلا يحق لأحدٍ أن يجعل من هذه الرخصة التي منحَها الدينُ موضوعَ نقدٍ، وقد كان فيهم من تزوَّجَ زوجتين أو ثلاثًا لكنَّه يقضي ليلَه بالعبادة ونهارَه بالصوم، ولكونِنا تناولْنا موضوعَ حكمةِ تعدُّدِ الزوجات عند الحديث عن تعدُّدِ زوجات الرسول ﷺ[١٣٣]؛ فإننا نكتفي هنا بهذا القدر، ولكن إن اقتضى الأمر فإنَّنا نقومُ بعد ذلك بِتَنَاوُلِ هذا الحكم الديني بشكلٍ مستقِلٍّ ومفصَّلٍ.

إنَّ أحدَ المواضيع التي تُثارُ وتُنْتَقَدُ عند ذكرِ مسألةِ الحريمِ هو موضوعُ الجواري، وقد سبقَ وأن فَصَّلْتُ الكلامَ في موضوعِ الرِّقِّ[١٣٤] الذي تركَهُ الإسلام مفتوحًا، والحكمةِ من ذلك، لذا سأتناول هذا الموضوع في غايةِ الإيجازِ للتذكيرِ فقط.

(١٣٣) انظر: فتح الله كُولن: **الرد على شبهات العصر**، مقال "حكمة تعدد زوجات النبي ﷺ"، ص ٧٣.

(١٣٤) المصدر السابق، مقال "الإسلام والرق"، ص ١٢٧.

الجواري هنّ النساء الأسيرات في أثناء الحرب، وكان المسلمون يأخذونهن إلى بيوتهم ويربّونهن ويعلمونهن الطريق الموصل إلى سعادة الإنسانِ وكمالِهِ، ويتكفَّلُون بجميعِ حاجاتهنَّ المادية والمعنوية، وإذا اختارت إحداهن دين الإسلام يتمُّ إطلاقُ سراحها في الغالب، وإذا ولدتْ ولدًا لصاحبها أُطلق عليها اسم "أمِّ ولد" وأصبحت حرّة، أما مسألة استفراشِها فلها شروطٌ معيّنة، منها ألا يكون لها زوج، وأن تكون جاريته وحدَه ملكًا صرفًا خالصًا فلا يكون لأحد حصّة فيها.

فإذا كان لا بد من تناول هذه المسألة المرهفة؛ نقول: إن هناك ناحية المشاعية في موضوع أسرى النساء (الجواري)، وإن صاحب الجارية في الإسلام يزيل هذه المشاعية ويصونها منها فيحفظ كرامتها، ثم يفتح أمامها الطرق المؤدية إلى الحرية، فإذا عرفنا أن هؤلاء الجواري يؤخذن إلى البيوت وإلى القصور ويقابلن هناك حياة كريمة؛ عَلِمْنا عبثَ القيام بنقدِ هذا التصرُّف.

نحن نشاهد كيفية معاملة الأسرى في أيامنا الحالية هذه، إذ يؤخَذون إلى أماكن تُشْبِهُ الاسطبلات وكأنهم حيوانات، ويلاقون هناك أسوأَ أنواع الظلم والعذاب، ويُحِسُّ القائمون بهذا الظلم فرَحًا سَادِيًّا، أما القتل الجماعي الذي قام به الغرب فمعلومٌ لدى الجميع، وبعد مشاهدة هذا السلوك الوحشيِّ للغربِ نلتفِتُ إلى المسائل التي ينتقدونها فلا نملكُ إلا أن نقول: إن هؤلاء لا يعرفون معنى الإنسانية، ولا كيفَ تتمّ معاملة الإنسان، لذا لا يفهمون معنى الأمر الإسلامي

حول المعاملة الإنسانية، ولأنهم لا يفهمون المعاملة الإنسانية فإنهم ينتقدون التصرُّفَ الإنساني، والحقيقةُ أن هذا الجهل مع كونه غير غريب على الغرب بل يتلاءم معه من مفرق رأسه إلى أخمصِ قدميه؛ إلا أنني أستغربُ هذا من مقلِّدي الغربِ من أبناء بلدِنا.

ماذا يريدون منا أن نفعلَ بالأسرى الذين نأخذُهم في الحرب؟ هل نُطلق سَراحهم لكي يتسلحوا مرة أخرى ويهجموا علينا؟ هل نفعلُ هذا في الوقت الذي يحتفظون بالأسرى الذين يأخذونهم منا في الحرب؟ هل يريدون أن يأخذوا منا الأسرى كيفما شاؤوا واستطاعوا ثم ينتظروا منا إطلاقَ سراحِ أسراهم استنادًا إلى شهامَتِنا ومروءَتِنا؟ ألا يكون هذا غفلةً وحمقًا؟! ثم إن كنّا لا نريد توقيعَ أيِّ جزاءٍ أو عقابٍ لترهيب العدو فلماذا نحاربهم إذًا؟! ولماذا يتم إزهاقُ أرواحِ الآلافِ وإهلاكهم؟ ولماذا تترمّل آلاف النساء ويَتَيَتَّمُ آلافُ الأطفالِ؟

إن الذين يدخلون الحربَ إنما يأخذون كلَّ هذه النتائجِ بنظرِ الاعتبار، أي يتقبَّلونها سلفًا، فدخولُهم الحربَ والوقوع في الأسر هو أحد النتائج المترتّبة على الحرب، لذا أليسَ من الأفضلِ والأكثرِ إنسانيّة أن تتمَّ معاملةُ الأسيرِ حسبَ الإسلام وقواعده؟ إذًا فعندما يقوم الأعداءُ بأَخْذِ الأسرى منّا، فإننا نأخذُ الأسرى منهم بالمقابل، والآن ماذا سنعملُ مع هؤلاء الأسرى؟ هل سنُطْلِقُ سراحَهم أو نقوم بقتلهم؟ كلا، بل نقسمهم ونوزّعهم بين المسلمين، وعندما يرَون الجوّ المعنويّ للإسلام في هذه البيوت تَلِين قلوبهم للإسلام وتنشأ الصداقات الفردية، وأمام هذه المعاملة الإنسانيّة ودون استعمالِ أيِّ

إكراهٍ سيُقبِلون على الإسلام طَوعًا، وعندئذ تظهرُ المروءة الإسلامية حيث تنفتِحُ أمامهم طُرُقُ الحرية، لأن صاحبه لن يرتضي أن يستعبدَ أخاه المسلم، لأنه يعرفُ مدى ثوابِ تحرير الرقَبة في الإسلام، ثم هناك ذنوبٌ يكون تحرير الرقبة فيها أوّل شرطٍ من شروط التوبة، وهكذا فهناك طرقٌ عديدة تودي بالأرقّاء إلى باب الحريّة.

إننا نعاملُ الأسرى معاملة إنسانية، ونحاول تربيتهم تربيةً إنسانيّة، ونساعدهم على تأسيسِ التوازن بين الدنيا والآخرة، ونبذلُ كلَّ ما في وُسعنا لهدايتهم إلى الإسلام، وعلى رأسِ ذلك تعامُلُنا الإنسانيّ معهم، وكان هذا هو ما يحصل في القصور ولا سيما بالنسبة للنساء، فهل حاولت إحدى النساء الهربَ من أحد هذه القصور بسبب سُوء معاملتها؟ هل هناك مثالٌ يمكن تقديمه في هذا الخصوص؟ كلا، لا يوجد حتى مثال واحد.

ثم لنحاول بحث النتائج التي تمخضت عنها هذه المعاملة الإنسانية وهذا الطراز من السلوك في التاريخ، هناك مصطلح "الموالي" في التاريخ، وهم الناس الذين حصلوا على حرّيتهم، وقد ظهر من بينهم رجال عظماء سيبقى ذكرهم مقرونًا بالتقدير والاحترامِ حتى يوم القيامة، منهم أسامة بن زيد ﵁ الذي كان الرسول ﷺ يحبّه كحبِّه لأحفاده، وقد اختاره الرسول ﷺ وعيَّنه قائدًا على الحملة التي جهَّزَها ضدَّ البيزنطيين، وكان من بين الجنود صحابة كبار وأجلّاء أمثال أبي بكر وعمر ﵄، بينما كان أسامة آنذاك في الثامنة عشر من عمره وكان من الموالي، وكان والده زيد بن حارثة ﵁ قائدًا في معركة مؤتة ولقد استشهد ﵁ فيها.

ولقد كان الإمام نافع ﷺ الذي ربّى أمثال الإمام مالك من الموالي أيضًا، أمه مرجانة أَمَة ابن عمر ﷺ، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: "حَضَرَتْنِي هَذِه الْآيَةُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٩٢/٣)، فَذَكَرْتُ مَا أَعْطَانِي اللهُ ﷻ فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ مُرْجَانَةَ، جَارِيَةٍ لِي رُومِيَّةٍ، فَقَالَ: هِيَ حُرَّةٌ لِوَجْه اللهِ، فَلَوْلا أَنِّي لا أَعُودُ فِي شَيْءٍ جَعَلْتُهُ لِلّه لَنَكَحْتُهَا"[١٣٥]، فقد قام عبد الله بن عمر ﷺ بتحريرها قربة إلى الله تعالى، ولكي يكون من الذين ينفقون مما يُحبّون، ثم تزوجتْ مرجانة من أحدهم وولدت نافعًا، فكان عبد الله بن عمر ﷺ يُحبّ نافعًا ويضمُّه إلى صدره، ثم أخذ بيده وربّاه وجعله -وهو علّامة الأمة- يرقى في العلم إلى ذروته، ونافع هذا الذي يُعَدُّ من النجوم المضيئة في العالم الإسلامي كان من الموالي!

نستطيعُ ذكر العديد من العظماء الذين كانوا من الموالي منهم الإمام أبو حنيفة ومسروق وطاووس بن كيسان وغيرهم، حتى أن عالِمَين في العهد الأمويّ كانا يتذاكران أسماء العلماء، فعدّا واحدًا وخمسين عالمًا كان خمسون منهم من الموالي.

فإذا كانت هذه القصور تُرَبي وتنشئ مثل هؤلاء الأشخاص -وكانت فعلًا تقوم بهذا الدَّور- إذًا دَعُونا نتخلَّ مؤقَّتًا عن حرّيّتنا ونتربَّ هناك ثم نَعُدْ إلى حريتنا، لذا لا نرى أيَّ موجب لأيِّ انتقاد في هذا الخصوص، يكفي أن نتخلَّص من الأفكار المسمومة التي حُشيتْ بأدمغتِنا من دون فحصٍ أو تدقيقٍ.

(١٣٥) أورده ابن حجر في فتح الباري في شرح الحديث (٤٥٥٦)، وعزاهُ إلى البزّار مرفوعًا.



مصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣)؛ دار السلام، الرياض.

أبو القاسم المصري، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت: ٢٥٧هـ)؛ **فتوح مصر والمغرب**؛ مكتبة الثقافة الدينية، (١٤١٥هـ).

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، بيروت، ط ١، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين (ت: ٦٣٠هـ)؛ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**؛ تحقيق: علي محمد البجاوي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت: ٢١٣هـ)؛ **السيرة النبوية**؛ تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، ١-٢، ط ٢، (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ **صحيح ابن حبان**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٨، بيروت، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)؛ **فتح الباري**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-١٣، (١٣٧٩هـ).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)؛ **البداية والنهاية**؛ دار الفكر، ١-١٥، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

ـــــــ، **تفسير القرآن العظيم**؛ تحقيق: سامي بن محمد سلامة؛ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١-٨، ط ٨، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ **سنن ابن ماجه** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦)؛ دار السلام، الرياض.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي (ت: ٢٣٠هـ)؛ **الطبقات الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، ط ١، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ)؛ **تاريخ دمشق**؛ تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي؛ دار الفكر، ١-٨٠، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

ابن رجب حنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي (ت: ٧٩٥هـ)؛ **جامع العلوم والحكم**؛ تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-٢، ط ٧، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

ابن شبة، عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبيدة بن ريطة النميري البصري (ت: ٢٦٢هـ)؛ **تاريخ المدينة**؛ تحقيق: فهيم محمد شلتوت؛ طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد، جدة، (١٣٩٩هـ).

ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (ت: ٣١١هـ)؛ **صحيح ابن خزيمة**؛ تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١- ٤.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت: ٨٠٨هـ)؛ **تاريخ ابن خلدون**؛ تحقيق: خليل شحادة؛ دار الفكر، بيروت، ط ٢، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة ابن الأزرق الغساني المكي (ت: ٢٥٠هـ)؛ **أخبار مكة**؛ تحقيق: رشدي الصالح ملحس؛ دار الأندلس للنشر، بيروت، ١-٢.

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة ، ١-٦.

الإمـام الربانـي، أحمد السـرهندي الفاروقـي (ت: ١٠٣٤هـ)؛ **المكتوبات**؛ وقف الإخلاص، إسطنبول، ١-٤، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي (ت: ٢٩٢هـ)؛ **مسند البزار**؛ تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (من ١ إلى ٩) وعادل بن سعد (من ١٠ إلى ١٧) وصبري عبد الخالق الشافعي (١٨)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١-١٨، ط ١، (٢٠٠٩م).

البيهقـي، أحمـد بـن الحسين بـن علي بـن موسـى الخُسْـرَوْجِردي الخراسـاني، أبـو بكـر البيهقـي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **شـعب الإيمـان**؛ تحقيـق: الدوكتـور عبـد العلـي عبـد الحميـد حامـد؛ مكتبة الرشـد، الريـاض، ط ١، ١-١٤، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **السـنن الكبـرى**؛ تحقيـق: محمـد عبـد القـادر عطـا؛ دار الكتـب العلمية، بيروت-لبنان، ط ٣، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **دلائل النبوة**؛ تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعجي؛ دار الكتب العملية-دار الريان للتراث، ١-٧، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **صحيـح البخـاري** (موسـوعة الحديـث الشـريف الكتـب السـتة-١)؛ دار السلام، الرياض.

الديلمـي، شـيرويه بـن شـهردار بـن شـيرو يـه بـن فناخسـو، أبـو شـجاع الديلمي الهمذانـي (ت: ٥٠٩هـ)؛ **الفـردوس بمأثور الخطاب (مسـند الفردوس)**؛ تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٥، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

الحاكـم، أبـو عبـد الله الحاكـم محمـد بن عبد الله بن محمد بـن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسـابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ **المسـتدرك على الصحيحيـن**؛ تحقيـق: مصطفـى عبـد القـادر عطـا؛ دار الكتـب العلميـة، بيروت، ١-٤، ط ١، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

ـــــــ، **المعجـم الكبير**؛ تحقيـق: حمـدي بـن عبـد المجيـد السـلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

المحاملي، أبو عبد الله البغدادي الحسين بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن سعيد بن أبان الضبي المحاملي (ت: ٣٣٠هـ)؛ **أمالي المحاملي**؛ تحقيق: د. إبراهيم القيسي؛ المكتبة الإسلامية، دار ابن القيم -عمان- الأردن، الدمام، ط ١، (١٤١٢هـ).

محمد فتح الله كُولن، سلسلة أسئلة العصر المحيّرة (١) **الردّ على شُبُهات العَصر**؛ دار النيل، القاهرة، ط ١، (١٤٣٤هـ-٢٠١٣م).

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت: ٨٤٥هـ)؛ **إمتاع الأسماع**؛ تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-١٥، ط ١، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت : ٣٠٣هـ)؛ **سنن النسائي**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٨، (١٩٩٢م).

ـــــــــ، **السنن الكبرى**؛ تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١-١٠، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

سعيد النُّورْسِي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ **من كليات رسائل النور**: **الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــــ، **من كليات رسائل النور**: **المكتوبات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــــ، **من كليات رسائل النور**: **اللمعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

عبد الرازق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١هـ)؛ **مصنف عبد الرازق**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١-١١، ط ٢، (١٤٠٣هـ).

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت: ٧٦٤هـ)؛ **الوافي بالوفيات**؛ تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى؛ دار إحياء التراث، بيروت، ١-٢٩، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي (ت: ٥٤٤هـ)؛ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**؛ دار الفيحاء، عمان، ١-٢، ط ٢، (١٤٠٧هـ).

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)؛ **الجامع لأحكام القرآن**؛ تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش؛ دار الكتب المصرية، القاهرة، ١-١٠، ط ٢، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

القضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (ت: ٤٥٤هـ)؛ **مسند الشهاب**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-٢، ط ١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **سنن الترمذي**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٤)؛ دار السلام، الرياض.

الخرائطي، أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (ت: ٣٢٧هـ)؛ **اعتلال القلوب**؛ تحقيق: حمدي الدمرداش؛ نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، ط ٢، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

الاستقامة في العمل والدعوة

سلسلة أسئلة العصر المحيرة

سلسلة أسئلة العصر المحيرة

الاستقامة في العمل والدعوة

فتح الله كولن

دار النيل

إصدارات متميزة



٢٢ جـ - جنوب الأكاديمية – شارع التسعين الشمالي – التجمع الخامس – القاهرة الجديدة – مصر
تليفون وفاكس: ٢٥٣٧٩٣٩١ ٢٠٢+ الهاتف الجوال: ٠١٠٢٣٢٠١٠٠٢